

شَرْحُ

كَيْفَ الشُّبُهَاتِ

لِإِمَامِ الدَّعْوَةِ الشَّيْخِ

عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

شَرْحُ

عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِيِّ

دار الفُرقان
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

اِغْتَنَى بِهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا
لَاؤُ جَبْرِ الْعَزِيزِ مُنِيرِ الْمُدْرِي

شرح
كشف الشبهات



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار الفرقان للنشر والتوزيع

20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)

00213 (0) 556 96 58 10

dar.alfurquan@gmail.com



شَرْحُ

كَيْفَ الشُّبُهَاتِ

لِإِمَامِ الدَّعْوَةِ الشَّيْخِ

حَجَّةُ الْإِسْلَامِ أَبُو بَكْرٍ الْبَلْبَانِي

شَرْحُ

عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَلْبَانِي

اِعْتَنَى بِهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا

أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الْمَدِينَةِ

دار الفرقان

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الله اعلم

مقدمة المعتني

الحمد لله الَّذِي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعده ضلّ الضّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزه ربّه عما يقول الظّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون، وأشهد أن نبينا محمّداً عبده ورسوله وخليله الصّادق المأمون، اللهم صلّ وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمّا بعد:

فإنّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلّا بمعرفة أوّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذِي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنّة والنّار، وبه حقّت الحاقّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصّحف، وفيه تكون الشّقاوة والسّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا

لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿النور: ٤٠﴾^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشُّرك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثَلَاثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ «فشمّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عبادته، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشُّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الذي جعل في كلّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

الهدى والصّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين^(١).
وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمة فيما ينفعها،
وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (كُشَفُ الشُّبُهَاتِ)^(٢)، وهو
بحث نافع لطيف، ممتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء
وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن
البدر حفظه الله.

وَمِنْ باب التَّعَاوُنِ عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، والسَّعْيِ فِي تَعْمِيمِهِ لِلْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ،
قُمْتُ بِالْإِعْتِنَاءِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ؛ وَأَصْلُهَا دُرُوسٌ لِلشَّيْخِ فُرَّغْتُ؛ فَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي إِخْرَاجِهَا
فِي كُتَيْبٍ، فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ حَفْظُهُ اللَّهُ إِلَّا الْمَوَافَقَةَ وَالتَّشْجِيعَ، فجزاه الله خيرًا^(٣).
وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهْذِيبُ وَالتَّرْتِيبُ، وَالتَّوْثِيقُ وَالتَّدْقِيقُ، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ

(١) «الدَّررُ السَّنِيَّةُ فِي الْأَجُوبَةِ النَّجْدِيَّةِ» (١/١٦).

(٢) سئل الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أحسن الله إليكم شيخنا ماهي المسوغات
التي دفعت الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لتأليف هذا الكتاب؟
الجواب: إيضاح الشبهات التي اعترض بها عباد القبور ولبسوا بها على المسلمين» «شرح
كشف الشبهات» (ص ١١).

(٣) كان ذلك في بيته بالمدينة النبوية، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩ هـ، الموافق لـ
٢٠ / ١٢ / ٢٠١٧ م.

على كلام الشَّيْخِ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ إِضَافَةِ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْكَلَامُ لِتَمَامِ
الْمَعْنَى مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْهَا.

سَائِلًا اللَّهَ ﷻ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَجْزِيَ خَيْرَ الْجَزَاءِ
كُلَّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهِ لِلْمُتَفَعِّلِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

مُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ

أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الدَّرِيِّ

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مقدمة الشارح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - ﷺ - وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن من نعم الله العظيمة على عبده المسلم أن ييسر له في حياته تعلم التوحيد الذي خلق لأجله، وأوجد لتحقيقه، ومعرفة دلائله وحججه وبياناته، وأيضاً أن يعرف ما يضاد التوحيد وويناقضه أو ينقص كماله ليكون على حذر تام من كل أمر يناقض التوحيد أو ينافيه، ومن كل أمر ينقص من كمال التوحيد، ويكون التوحيد عند المرء المسلم أثمن شيء وأعلى كنز وأعظم أمرٍ يعنى به في حياته كلها وتكون عنايته بتوحيده مقدمة على العناية بكل أمر، واهتمامه بتوحيده مقدماً على الاهتمام بكل أمر، لأن التوحيد أعظم مطلب وأجل مقصد وأنبل غاية وهو أساس هذا الدين، وأصله الذي عليه يبنى، وهو أساس قبول الأعمال، وزكاء الطاعات وصلاحها، وأساس قبولها عند الله - تبارك وتعالى - وكل عمل يقوم به الإنسان ولا يكون قائماً على توحيد الله ﷻ فإنه يذهب هباءً، ولا ينتفع به عامله أي شيء

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، قد قال الله -ﷻ-: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ولهذا فإن عقد المجالس لدراسة التوحيد وبذل الأوقات بمعرفته ومعرفة دلائله وحججه وقراءة ما كتبه أئمة أهل العلم في هذا الباب هو من أهم المهمات وأعظم المطالب التي ينبغي على طالب العلم أن يعنى بها.

والعناية بالتوحيد تتناول جانبين لا بد منها:

الجانب الأول: معرفة التوحيد من حيث تقريره وتأصيله وذكر دلائله وحججه وبياناته.

والناحية الأخرى: معرفة الأمور التي هي من نواقض التوحيد أو من نواقصه؛ لأن للتوحيد نواقض وله نواقص، وطالب العلم والمسلم عموماً كما أنه مطالب بمعرفة التوحيد ليحققه، فإنه في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة نواقضه ونواقصه ليحذرهما، لتكون مستبينة له، واضحة عنده، فيكون منها على حذر، ويكون أيضاً محذراً الناس من الوقوع فيها ومن سوء مغبتها وعاقبتها على من وقع فيها في دنياه وأخراه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وفي «الصحيحين» عن حذيفة -رضي الله عنه-، قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»^(١)، فهذا

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

مطلب لا بد منه، فكما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليتبعه فإنه كذلك مطالب بمعرفة الباطل ليحذره، ولأجل هذا ألف العلماء -رحمهم الله- مؤلفات مفردة في الكبائر وبيانها وعدّها، وممن ألف في الكبائر، مؤلف هذا الكتاب الذي أعني شيخ الإسلام الإمام الهمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- له كتاب في الكبائر من أنفس ما يكون، ومن قبله للإمام الذهبي وغيرهما من أهل العلم فقد ألفوا في بيان الكبائر، وأكبر الكبائر الشرك بالله ﷻ، وهو ناقض التوحيد، وقد قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»^(١)، كيف يتقي الشرك من لا يعرفه! وكيف يتقي المحرمات من لا يعرفها، ولهذا فالمسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق فإنه مطالب أيضاً بمعرفة ما يناقض الحق أو ينقصه ليحذر من الوقوع فيه، ويؤكد هذا الأمر عندما تموج الشبهات وتكثر الفتن، ويتعاون أهل الباطل على تشكيك أهل الحق في ثوابتهم ومسلماتهم، بطرح الشبهات العاصفة التي تفتن الناس، وتلبس عليهم دينهم وتصرفهم عن الحق الذي خلقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه، وقد خاف النبي -ﷺ- على أمته من أئمة الضلال قال: «وإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»^(٢)، فخاف ﷺ على أمته من أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق؛ لأنهم يوردون الشبهات على الناس، وكم من أناس حرفت عقائدهم وصرفوا عن الجادة السوية بسبب دعاة الباطل وأئمة الضلال؟ بل إن دعاة الباطل يستमितون في جلد عجيب ودأبٍ وجِدٍ واجتهاد في

(١) «حلية الأولياء» (٩/٣١٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

تمكين الشبهات وغرسها في الناس، ليعدوهم عن دين الله -تبارك وتعالى-، ولا يزال أهل الباطل يشبهون على الناس ويفتنونهم في دينهم في قديم الزمان وحديثه، وقد قال الله -سبحانه وتعالى- عن هؤلاء واصفاً حالهم على مر العصور واختلاف الأزمان قال: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١٨١]، فهي متشابهة في الصدق عن الحق والتمكين للباطل وطرح الشبهات على الناس ليعدوهم عن دين الله -تبارك وتعالى-.

ولقد عظمت المصيبة في زماننا هذا عندما انفتح على الناس من وسائل الاتصال الحديثة ونقل المعلومات السريعة، بحيث يمكن للإنسان أن يقول الكلمة فتصل في اللحظة الواحدة إلى أطراف الدنيا، من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت الشبكة العنكبوتية، ومن خلال الهواتف ولا سيما الهاتف النقال الذي يحمله كثير من الناس، وأصبح أهل الباطل يجدون من خلال هذه المجالات وسائل سهلة لهم لنشر باطلهم، والذي يدمي القلب ويحزن الغيور أن ترى في كثير من أبناء المسلمين وبناتهم من يجد متسعاً من وقته لسمع لمن يلقون الشبهات، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد!؛ بل بعضهم ما جلس لتعلم التوحيد ثم فتح قلبه لأصحاب الشبهات ليودعوا في قلبه سم شبهاتهم وركام باطلهم، وهنا تتلوث العقول وتفسد العقائد وتخرب الأديان وتفشوا الضلالات، ومما يتطلب على أهل الحق والغيرة على دين الله -تبارك وتعالى- أن يبذلوا ما استطاعوا من جهودٍ لتعلم العلم والجلوس لمدارسته ومذاكرته من ثم بثه ونشره في الناس وتعليمه لهم، ولهذا أدعوك أخي القارئ أن تحتسب في قراءتك لمثل هذه

المؤلفات أن تكون متعلماً للخير، ناصراً لدين الله - تبارك وتعالى - فتفقه الدين لتعرف التوحيد، وتعرف الحق والهدى وتعرف أيضاً شبهات أهل الباطل وطريقة أهل العلم في ردها لتكون بإذن الله - تبارك وتعالى - من أنصار هذا الدين ومن دعاة الحق ومنارات الخير، ومن العاملين في صد هذه الأباطيل ورد هذه الشبهات.

ومن عجيب وغريب أمر كثير من الناس أعني عوامهم وجهالهم أن صار أمرهم في مجالسهم تطارح شبهات ويحارون في جوابها، وترى كلاً منهم يتكلم ويهرف بما لا يعرف!، مما سمعوه من تلك القنوات، ولا يجد هؤلاء وقتاً لدراسة الحق والهدى على بابهِ الصحيح ووجهه القويم.

إن شبهات أهل الباطل التي أثاروها في قديم الزمان ولا يزالون يثيرونها في كل زمان وأوان، تحتاج من دعاة الحق وأهل الخير إلى وقفة صادقة في الذب عن دين الله - تبارك وتعالى - وحماية حماه، وإذا كان نبينا ﷺ عدّ من شعب الإيمان العظيمة وخصاله الجليلة إمطة الأذى عن الطريق^(١)، أي: أن تجد شيئاً من القذر أو الشوك أو الأمور المؤذية في طريق الناس فتميطها عن طريقهم لئلا تؤذيهم، فكيف بإمطة الشبهات التي هي أقذع الأذى وأشدّه؟ لأنها في طريق السائرين إلى الله - ﷻ - بالإخلاص والتوحيد، وإذا ابتلي الناس بهذه الشبهات ربما أخرجتهم عن صراط الله المستقيم، فإذا كان إمطة الأذى عن طريق المسلمين شعبة من شعب الإيمان، فإن إمطة الشبهات بكشفها وتعريتها وبيان حقيقة أمرها وإيضاح زيفها ووهائها من أجلّ القربات وأنفع الطاعات التي يتقرب بها إلى الله - سبحانه وتعالى -، وهنا

ندرك الفضل العظيم والخير الكبير الذي حبا الله - سبحانه وتعالى - به من حبا من عباده في أن كانوا أنصاراً للحق ببيانه ورد الشبهات التي يثيرها أهل الباطل صدأً عن الحق والهدى، ولا أبالغ عندما أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا أعني كتاب (كشف الشبهات) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - لم يؤلف في بابيه مثله! مع وجازة الكتاب واختصاره في مادته العلمية ومباحثه، ولا غرو في ذلك فإن من كتب هذا الكتاب إمامٌ مجدد وعلم مصلح وإن رغمت أنوف، نصر الله - ﷻ - به دينه وأعلى به كلمته، وانتشر دين الله - ﷻ - الصافي النقي في أنحاء المعمورة، في دعوة مباركة يسر الله - تبارك وتعالى - هذا الإمام للقيام بأعبائها، وكان من جهوده في نصرة الحق وبيانه أن ترك مؤلفات عظيمة نافعة لا تزال زاداً لطلاب العلم، وبركة هذه المؤلفات ظاهرة، في عقد الدروس والمجالس الكثيرة لمذاكرتها، وكتابة المؤلفات الكبيرة في شرحها وبيانها، وترجمتها إلى كثير من لغات العالم، وهذه بركة طرحها الله - ﷻ - في دعوة هذا الإمام الدعوة الصافية النقية إلى توحيد الله - ﷻ - وإخلاص الدين له، واتباع رسوله - صلوات الله وسلامه عليه -.

ولما كان - رحمه الله تعالى - في زمانه متحملاً لأعباء الدعوة، ناشراً للتوحيد في الناس مبيناً دلائله وحججه، كان دعاة الباطل وأهل الأهواء في زمانه يثيرون الشبهات في الناس لصددهم عن هذه الدعوة، وأثاروا شبهات كثيرة، أرادوا من ورائها صد الناس عن الدعوة إلى التوحيد التي قام بأعبائها هذا الإمام - رحمه الله -، فأنبرى - رحمه الله تعالى - وأتى على أبرز شبهات هؤلاء وجمعها في هذه الرسالة وأجاب عنها بأجوبة مقنعة وكشف ما فيها من زيف وضلال وباطل بما لا

مزيد عليه، ولم يكن -رحمه الله تعالى- في هذا الكتاب مقتصرًا على كشف تلك الشبهات التي أُثِّرت في زمانه من دعاة الباطل؛ بل كان -وهذا من تمام نصحه رحمه الله تعالى- مؤصلاً في كتابه الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في موقفه من الشبهات وفي طريقة ردها وبيان فسادها، وشبهات أهل الباطل كثيرة وعديدة، قد لا يتسنى لكل طالب علم أن يعرف بشبهات أهل الباطل وأجوبة أهل العلم لها معرفة تفصيلية، قد لا يتسنى هذا لكثير من طلبة العلم، فوضع -رحمه الله- في مقدمة كتابه كشف الشبهات تأصيلاً مباركاً وتقريراً نافعاً لطالب العلم يسير على ضوئه في رد شبهات أهل الباطل، ولا سيما إذا لم يكن على معرفة تفصيلية بكشف تلك الشبهات، ومن أهم ما يكون في ذلك أن يعرف الحق الذي بعث به النبي -ﷺ- واجتمعت عليه دعوة الأنبياء والمرسلين فكانوا من أولهم إلى آخرهم دعاةً له، يعرف ذلك معرفة جيدة، ويعرف دلائله وحججه وبياناته، ويعرف أيضاً في الوقت نفسه دين المشركين الذي بعث النبي -ﷺ- بإبطاله ونقضه وهدمه، ماذا كان عليه المشركين من دين، يعرف ذلك، فإذا عرف دين النبي ﷺ وعرف دين المشركين الذي بعث النبي -ﷺ- بإنكاره، إذا عرف هذين الأمرين معرفة جيدة سلم من جُلِّ شبهات أهل الباطل، فإذا عرف الحق وعرف ضده، عرف صحة الحق وعرف بطلان ضده، فإنه بإذن الله -تبارك وتعالى- لا تنفق عنده شبهة ولا تروج، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] ولهذا مهّد الشيخ -رحمه الله تعالى- بتمهيد نافع جداً جعله في صدر الكتاب وأوله في بيان دين نبينا ﷺ ودين الأنبياء واجتماعهم على توحيد الله وإخلاص الدين له وبيان دين المشركين

وحقيقة دينهم الذي بعث النبي - ﷺ - وبعث الأنبياء عليهم - صلوات الله وسلامه عليهم - من قبله لإنكاره وإبطاله، مهّد لذلك ثم بعد ذلك ذكر تقريراً مجملاً في رد الشبهات وكشفها، ثم ذكر أبرز الشبهات التي أثّرت في زمانه من أرباب الباطل وأهل الأهواء، فأجاب عنها إجابة تفصيلية، وبهذه الأمور الثلاثة يكون - رحمه الله - وضع النقاط - كما يقال - على الحروف، ووضع المنهج السديد في السلامة من الباطل وشبهات أهله أيّاً كانت، فنسأل الله - ﷻ - أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع قدره، وأن يعلي مقامه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يبارك في جهوده العظيمة وأن يرزقنا جميعاً حسن الاستماع وحسن الانتفاع، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وأما مؤلف الكتاب فهو غني عن التعريف - رحمه الله تعالى -، وأما مؤلفه فهو الذي بين أيدينا كتاب (كشف الشبهات)، فسنقف بإذن الله على مضامين هذا الكتاب العظيمة، وأشير إلى أن هذا الكتاب حظي بشروحات عديدة مكتوبة وصوتية من أكابر أهل العلم، وأنصح بمطالعة الشروحات لهذا الكتاب ولا سيما شرح الشيخ محمد بن بن إبراهيم - رحمه الله تعالى -، وهو مطبوع جمع من تقريراته - رحمه الله -، جمعه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القاسم - رحمه الله -، وأيضاً شرح الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى -، والشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -، والشيخ صالح الفوزان - حفظه الله تعالى -، وجميعها موجودة صوتاً وكتابةً، فرغت من الأشرطة وهي شروحات نافعة ومفيدة جداً لطالب العلم، ونسأل الله - ﷻ - أن يمن علينا أجمعين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا

ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسلك بنا جميعاً في
الباب العظيم من أبواب الخير، فإنه تبارك وتعالى ولي التوفيق والسداد.

عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِي



[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى
وقدس روحه في الجنة-، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وهو دين
الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده».

[الشرح]

الشيخ رحمه الله تعالى هذا الكتاب سماه (كشف الشبهات)^(١)، والكشف في
اللغة معناه معروف، عندما يقال كشف الشيء أي أزال عنه ما يغطيه، يقال كشف
فلان اللثام عن وجهه أي: أماطه وأزاله عن وجهه، فأصبح وجهه بدل أن كان خفياً
أو غير ظاهر أصبح ظاهراً، فكشف الشيء بأن يُماط عنه ما يغطيه، والشبهات هي

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «منهجه في تأليف
كتاب كشف الشبهات: اسم الكتاب مُطابَقٌ لموضوعه، فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ أورد فيه الشبهات التي
ذكرها أهل البدع، ملبِّسين بها على الدعوة إلى الحق والصراط المستقيم، ومخالفين فيها
لِمَا كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن سار على نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء
والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، فجمع الشيخ -رحمه
الله- جُملاً كبيرة من هذه الشُّبُهَة، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاً على ذلك
بنصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، وكتابه هذا متممٌ لكتبه الأخرى في العقيدة،
التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب على
ما يُورَد على العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيناً بطلانها ومخالفتها للحق والهدى الذي كان
عليه سلف هذه الأمة» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص ١٢).

الأمر التي يلبس فيها الحق والباطل، يشبه فيها على الناس بحيث عندما تثور هذه الشبهات تجعل الأمر ليس واضحاً، فيلبس عليهم الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور، فلا يكون الحق مستيناً لهم أنه حق، ولا يكون أيضاً الباطل مستيناً لهم أنه باطل، فتلبس عليهم الأمور وتختلط عندهم، ويصبح الأمر بدل أن كان واضحاً يصبح ملتبساً مختلطاً غير واضح^(١)، وكشف الشبهات أي: تعريتها وبيان فسادها وبطلانها بحيث يكون ظهور بطلانها واضحاً للناس، والشبهة إذا ثارت التبس الأمر على الناس فلم يميزوا بين حق أو باطل، فإذا قيص الله - سبحانه وتعالى - لهم عالماً ناصحاً فكشف عنهم الشبهة رأوا الحق، فالشيخ - رحمه الله عليه - سمى كتابه (كشف الشبهات)؛ لأنه أزال فيه بتوفيق الله - تبارك وتعالى - ما يثيره أهل الباطل من أمور يلبسون بها على أهل الحق وأهل التوحيد، وبدأ - رحمه الله - كتابه بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» تأسيساً بكتاب الله - عز وجل -، وتأسيساً بالنبي الكريم ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، والباء في «بسم الله» باء الاستعانة، وقوله «بسم الله» أي أبدأ بذكر اسم الله - تبارك وتعالى -، أبدأ كتابي هذا - أو أكتب كتابي هذا - مستعيناً بالله - تبارك وتعالى -، ذاكرًا اسمه - جل وعلا -.

قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم رحمك الله أن التوحيد هو أفراد الله بالعبادة».

«اعلم»: هذه كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة المهمة التي تحتاج إلى استدعاء

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الشبهة هي اشتباه الطريق على السالك بحيث لا يدري أعلى حق هو أم على باطل» «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٨).

انتباه السامع وشد ذهنه وجمع قلبه، وعنايته بالموضوع الذي يلقي عليه، فيؤتى بها للتنبيه وشد الانتباه ويؤتى بها في الأمور العظام، وفي القرآن الكريم أتت في مواضع عديدة، جلها فيما يتعلق بتوحيد الله -عز وجل- ومعرفة عظمته وجلاله وكماله وأسمائه وصفاته - سبحانه وتعالى -، منها قول الله عز وجل: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، قال: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهي كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة التي يستدعي المقام شد انتباه الناس لهذه الأمور حتى يحسنوا الاستماع ومن ثم يحصل بإذن الله -تبارك وتعالى- الانتفاع.

«اعلم رحمك الله»: وهذا أيضاً من نصحه، بدأ الكتاب بهذه الدعوة لمطالع هذا الكتاب وقارئه والمستفيد منه، دعا له بالرحمة، والرحمة تارة تذكر مع المغفرة وتارة تذكر مفردة، كما ذكرها الشيخ هنا -رحمه الله-، فإذا ذكرت مع المغفرة فإن المراد بالمغفرة ستر ما مضى وكان، والمراد بالرحمة التوفيق فيما يستقبله المرء من الأيام والأزمان، وإذا ذكرت الرحمة وحدها هنا جمعت الأمرين، فقله «**رحمك الله**» أي: بأن يغفر لك ما مضى وهذا من رحمة الله بعبده، وأن يوفقك فيما بقي من حياتك، وإذا أطلقت الرحمة والدعاء بالرحمة يشمل الأمرين.

«اعلم رحمك الله»: يشمل غفران ما مضى من رحمة الله بك أن يغفر لك ماضى وما سلف وما كان، ومن رحمة الله -سبحانه وتعالى- بك أن يوفقك لسديد الأعمال وصالح الأقوال فيما بقي من حياتك.

(أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة) التوحيد: هذه الكلمة مصدر للفعل وحد

يُوَحِّدُ تَوْحِيداً وَهُوَ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِفْرَادِ، وَتَوْحِيدُ اللَّهِ -ﷻ- هُوَ إِفْرَادُهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِخَصَائِصِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَفِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَفِي أَلُوْهِيَّتِهِ، لِيَفْرُدَ -جَلَّ وَعَلَا- بِكُلِّ مَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ -ﷻ- مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا وَبِرُبُوبِيَّتِهِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّنْدِيرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَأَن يَفْرُدَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، فَلَا يَجْعَلُ مَعَهُ شَرِيكاً فِي شَيْءٍ مِنْهَا، هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ، تَوْحِيدُ اللَّهِ -ﷻ- أَن يَفْرُدَ -جَلَّ وَعَلَا- بِخَصَائِصِهِ -ﷻ-، فِي أَلُوْهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ التَّوْحِيدُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ^(١) تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَتَوْحِيدُ الْأَلُوْهِيَّةِ، وَالشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ- عَرَّفَ التَّوْحِيدَ هُنَا؛ بَلْ كَثِيراً مَا يَأْتِي هَذَا التَّعْرِيفُ فِي مَصْنُفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَرِسَائِلِهِ وَمَكَاتِبَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعْرِيفٌ مُخْتَصَرٌ وَجَامِعٌ.

(١) فائدة:

قَالَ الْعَلَّامَةُ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هَذَا التَّقْسِيمُ الْأَسْتِقْرَائِيُّ لَدَى مُتَقَدِّمِي عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ مَنْدَه، وَابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ، وَغَيْرُهُمَا، وَقَرَّرَهُ شَيْخَا الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَقَرَّرَهُ الزَّيْدِيُّ فِي (تَاجِ الْعَرُوسِ)، وَشَيْخُنَا الشَّنَقِيطِيُّ فِي (أَضْوَاءِ الْبَيَانِ)، وَأَخْرَجَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْجَمِيعَ. وَهُوَ اسْتِقْرَاءٌ تَامٌّ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مُطَرَّدٌ لَدَى أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ كَمَا فِي اسْتِقْرَاءِ النُّحَاةِ: كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى (اسْمٍ، وَفِعْلٍ، وَحَرْفٍ)، وَالْعَرَبُ لَمْ تَفْهَمْ بِهَذَا وَلَمْ يُعْتَبَرْ عَلَى النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ عَاتِبٌ، وَهَكَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْتِقْرَاءِ» «التَّحْذِيرُ مِنْ مُخْتَصَّرَاتِ الصَّابُونِي فِي التَّنْسِيرِ» (ص ٢١)، وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ شَيْخِنَا عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْبَدْرِ حَفِظَهُ اللَّهُ بِعُنْوَانِ: «الْقَوْلُ السَّيِّدُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ تَقْسِيمَ التَّوْحِيدِ».

قال: «اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة» إفراده بها أن لا يجعل معه فيها شريك، بأن يخص بها -تبارك وتعالى- وحده، فلا يجعل معه شريك في شيء منها، قال (اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة) وهنا يتطلب أيضاً الأمر أيضاً من الموحد أن يعرف العبادة ماهي؟ حتى لا يصرف شيئاً منها لغير الله، وحتى يخص بها الله -جل وعلا-، وإذا كان لا يعرف العبادة ماهي فربما صرف شيئاً منها لغير المستحق لها وهو الله -تبارك وتعالى-، والعبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(١)، وهو التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه: «العبودية»، وتناقله عنه أهل العلم، وهو من أجمع ما قيل في بيان حد العبادة وتعريفها.

فالعبادة حق لله -ﷻ- يجب أن يفرد بها -ﷻ-، ولم يذكر هنا ما يتعلق بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن هذا التعريف أو هذا التوحيد؛ توحيد الألوهية متضمن للتوحيدين أي: توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة متضمن للتوحيدين، فلا يكون عبداً لله -تبارك وتعالى- مخلصاً له العبادة إلا من عرفه رباً خالقاً رازقاً مدبراً له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، وإذا قلنا أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات فمعنى ذلك: أنه لا يكون موحداً لله -ﷻ- في ألوهيته إلا من عرفه رباً وعرف أسمائه وصفاته، وأما توحيد الربوبية

(١) «العبودية» (ص ٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، قد يكون الإنسان مقراً بالربوبية بأن الله هو الرب الخالق الرازق المنعم؛ ولكن لا يخلص العبادة لله ولا يفرد الله -ﷻ- في العبادة، وهذا أمر سيأتي تبينه وتوضيحه وذكر الأدلة عليه في كلام المصنف -رحمه الله تعالى-.

قال: «اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده».

وهذه الحقيقة عظيمة جدا ينبغي العناية بها أن هذا التوحيد الذي هو إفراد الله -سبحانه وتعالى- بالعبادة هو دين الرسل.

«دين الرسل» أي: من أولهم إلي آخرهم، كلهم متفقون عليه مجتمعون على الدعوة إليه، لا خلاف بين نبي وآخر فيه، كلمتهم فيه واحدة، وقولهم فيه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

ومعنى قوله ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر: هم الرسل.

﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي كلهم تواردت كلمتهم واتفقت دعوتهم على هذا الأمر: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وكلهم متفقون كلمتهم واحدة، الرسل من أولهم إلي

آخرهم كلمتهم واحدة، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على ماذا؟ على أي شيء؟ ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، هذه هي دعوة جميع المرسلين الرسل عليهم صلوات الله وسلامه - كلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة، كلهم دعاة إلي توحيد الله - سبحانه وتعالى -، وهذا هو معنى قول النبي - ﷺ - في «الحديث الصحيح»: «الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(١)، فقله: ((وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)) أي: فعقيدتهم واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في الأصول، الأصول واحدة، أمور التوحيد وأمور العقائد عند الأنبياء واحدة، لا اختلاف بين نبي أو آخر في شيء منها، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: «العقيدة ليس فيها نسخ، لا في شرائع الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد»، ولا يدخل العقيدة نسخ، النسخ يدخل على الأحكام فقط، فقد يأتي نبي وينسخ شيئاً من الأحكام التي أتى بها النبي الذي قبله، وأيضاً قد يأتي النبي بشيء من الأحكام ثم تنسخ في شريعته هو؛ لكن العقيدة لا يدخلها نسخ، لا في شريعة النبي الواحد، ولا في شرائع الأنبياء عموماً، أمور ثابتة لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل وكلمة الأنبياء فيها واحدة، وهذا هو معنى قوله -رحمه الله تعالى-: «وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده»، فالله -ﷻ- أرسل الرسل إلي عباده بهذا الدين، بتوحيده وإخلاص الدين له تبارك وتعالى.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمّهاتهم شتّى» «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٤٨٩/٦).

[المتن]

قال: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا».

[الشرح]

ثم قال رحمه الله: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، نوح -عليه السلام- هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما جاء هذا المعنى في حديث الشفاعة: ((اَتُّوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ))^(١)، وفي القرآن الكريم قال الله -ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فنوح -عليه السلام- أول رسول أرسله الله إلي أهل الأرض، ولهذا قال الشيخ -رحمه الله-: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين».

هنا يبين -رحمه الله- بهذه الإشارة إلى أساس المشكلة عند قوم نوح وأن سبب البلاء والشر الذي وقع فيه هؤلاء هو: الغلو في الصالحين، والغلو في الصالحين تجاوز الحد في حقهم، فيتجاوزون الحد في حق الصالحين من جهة تعظيمهم ورفع أقدارهم إلي أن يضيفوا عليه شيئاً من خصائص الله -تبارك وتعالى- وما لا يليق إلا به -سبحانه وتعالى- وما لا يصلح إلا له.

قال: «لما غلو في الصالحين» وهذه إشارة منه -رحمه الله تعالى- إلي أساس المشكلة، قد قال ﷺ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوُّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

قَبْلَكُمْ الْعُلُوُّ فِي الدِّينِ»^(١)، فالغلو ولا سيما في الصالحين هو أعظم أسباب الفساد والوقوع في الشرك بالله -تبارك وتعالى-، ومن المعلوم أن للصالحين مكانة في نفوس الناس ومنزلة في قلوبهم اكتسبوها عبر أيام طويلة عاشوها مع الناس بالاخلاق الفاضلة والآداب الطيبة والمعاملات الحسنة والدعوة إلى الخير، فأصبح لهم في قلوب الناس مودة وأصبح لهم إلى نفوس الناس قرب ومكانة، والشيطان وجد هذا مدخلا على الناس لصرفهم عن دين الله -تبارك وتعالى- وعن التوحيد الذي خلقوا لأجله.

وقد جاء في «صحيح البخاري» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: «..أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُيِدَتْ»^(٢).

فكان من أمره أنه لما مات عدد من الصالحين في قوم نوح وهم خمسة ذكرت أسماءهم في القرآن: وَدَّ وَسَوَاعٌ وَيَعُوْثٌ وَيَعُوْقٌ وَنَسْرًا، لما مات هؤلاء الصالحون وقد كانت لهم في نفوس الناس مكانة عليّة ومنزلة رفيعة أتى الشيطان إلي أقوامهم بعد وفاتهم ونفوسهم متأثرة بفقدانهم فدعاهم إلي أمرين:

١- دعاهم إلي العكوف عند قبورهم أي البقاء الطويل والمكث الطويل عند

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٠).

القبور، وبدأ معهم هذا الأمر بنية أو بقصد تذكر هؤلاء الصالحين، تذكر فضائلهم، وتذكر دعوتهم، وتذكر نصائحهم، فدعاهم إلي العكوف، أن يبقى عند قبر الرجل الصالح وقتاً طويلاً، والقصد في هذا الأمر في بداية الأمر هو أن يذكر، قال لهم: «لا يليق بكم أن يموت وتنسونه تنشغلون بمصالحكم وحاجتكم؛ بل تخصصون أوقاتاً تمكثون فيها مكثاً طويلاً عند قبورهم وتبقون بقاءً طويلاً عند قبورهم من أجل ذكر فضائلهم ذكر دعواتهم ذكر نصائحهم ذكر مآثرهم إلي غير ذلك»، هذا الأمر الأول.

٢- والأمر الثاني -دعاهم إليه بعد الأمر الأول- أن يتخذوا لهم تصاويراً؛ لأنه ربما يشق عليهم في كل مرة أو يتكرر منهم الذهاب للقبور والعكوف عندها، فأرشدهم إلي أمر آخر وهو أن يتخذوا لهم تصاوير تحقق لهم نفس الغرض وهو بقاء ذكر هؤلاء وبقاء الصلة بهؤلاء وعدم نسيانهم، قال: «تتخذون لهم تصاوير وتكون هذه التصاوير قريبة منكم، تكون مع الإنسان في بيته وتكون في تجارته، تكون في طريقه، تذكركم هؤلاء الصالحين».

فأرشدهم إلي هذين الأمرين: العكوف عند قبور الصالحين، واتخاذ التصاوير لهم، وترك هذا الجيل، اكتفى مع هذا الجيل بهذين الأمرين وتركهم إلي أن مات هؤلاء واندرس العلم، فأتى إلي الجيل الذي بعده وهذا يستفاد منه أن الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- طويل النفس في دعوته؛ يعني ممكن يضع الغرس الآن ولا يطلب ثمرته إلا بعد مائة سنة فما عنده مشكلة، يضع الغرس الآن وتكون الثمرة ليس للجيل القادم ولا الجيل الذي بعده ما عنده مشكلة، فعنده طول نفس في دعوته

وإضلال الناس عن دين الله -تبارك وتعالى-، ولهذا اكتفى مع الجيل الأول بهذين الأمرين، ثم لما مات هؤلاء ودُرس العلم ونُسي وقلّ في الناس العلماء، جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: «أتدرون لما كان آباؤكم وأجدادكم كانوا يعكفون عند تلك القبور ولماذا كانوا يتخذون لها التصاوير؟، هل تعرفون السبب؟، إن السبب في ذلك أنهم كانوا إذا استغاثوا بها أُغِيثوا، وإذا سألوا بها أُعْطُوا»، فأدخلهم من هذه البوابة على الشرك، ولا يزال الشيطان ماضياً في الطريقة نفسها لإدخال الناس إلى الشرك من الباب نفسه، مع أن الله تعالى ذكر لنا هذا الأمر في القرآن وبيّنه النبي ﷺ في السنة إلا أنه لا يزال أناس كثيرون يدخلون إلى الشرك من البوابة نفسها ومن الطريق نفسه، العكوف عند قبور الصالحين واتخاذ التصاوير لهم، وإذا فتشت فيما يقع فيه الناس من شرك يقع فيه الناس في هذا الزمان أو قبل هذا الزمان لو فتشت عن أعظم سبب له تجد أنه من خلال هذين الأمرين: العكوف عند القبور، وهذا ينتظم تشييد القبور وزخرفتها ووضع الستور عليها والأشياء التي تدعوا الناس إلى العكوف عندها والبقاء، واتخاذ التصاوير، ولهذا خصهم النبي -خص هذين الأمرين- بالذكر في أحاديث كثيرة مثل: حديث علي قال ﷺ: ((أَنْ لَا تَدْعَ تَمْثَالاً إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ))^(١) خص هذين الأمرين بالذكر، قال أيضاً في الحديث الآخر: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)،

(١) رواه مسلم (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

فذكر هذين الأمرين.

قال: «فأولهم نوح عليهم السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، «غلوهم في الصالحين^(١)»: عكوفهم عند قبورهم واتخاذ التصاوير لهم ومن ثم بالتوجه إليهم في السؤال والدعاء وطلب الغوث والإلتجاء، قال: «لما غلوا في الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» هذه الأسماء الخمسة جاءت في موقع البدل من قوله في الصالحين فتكون تقرأ مجرورة «ود وسواع ويغوث ويعوق ويعوق ونسر» بدل من قوله في الصالحين، فالصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح هو هؤلاء الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهذه الاسماء الخمسة أسماء رجال صالحين، والطريقة التي سار الناس بسببها إلى عبادة هؤلاء الصالحين من دون الله هي التي شرحتها قبل قليل، قد قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿[نوح: ٢٣-٢٤]، فهذه الأسماء الخمسة كما جاءت عن ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره أسماء رجال صالحين من قوم نوح -عليه السلام- لما ماتوا عكف الناس على قبورهم واتخذوا لهم تصاويرا إلى أن عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى-.

العجيب في الأمر أن هذا أول شرك وجد وهذا مدخله وهذا سببه وبعث أول رسول وهو نوح -عليه السلام- أول رسول بعث إلى أهل الأرض؛ بعث لتحطيم هذا الشرك وبيان بطلانه ومضى في قومه داعية إلى التوحيد ومحذرا من هذا الشرك،

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «الصالح هو الذي قام بحق الله، وبحق عباد الله» «شرح كشف الشبهات» (ص ١٦).

مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦].

فمضى فيهم سنوات طوال وعمر مديد يدعوهم وهم مصرون على هذا الشرك، إلى أن أمر الله - سبحانه وتعالى - نوحا - عليه السلام - أن يصنع الفلك، وأخذ يصنع الفلك ويمر به قومه ويسخرون منه؛ لأنه يصنعه في الصحراء، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، ثم أذن الله - سبحانه وتعالى - للأرض فأخرجت الماء، وأذن للسماء فنزل المطر، حتى طغى الماء على الأرض وغطى الجبال ولم ينجوا من الماء إلا من كان في السفينة، وأصبحت السفينة مضرب مثل في الحق ولزومه، مثل ما قال الإمام مالك - رحمه الله عليه - قال: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»^(١)، فلم ينجو إلا من ركب السفينة، وعم الماء الأرض وغطى الجبال وهلك كل من على وجه الأرض، وقد ذكر في كتب التاريخ أن هذه الأصنام الخمسة مع الطوفان والمياه حملت المياه هذه الأصنام وألقتها في جدة على شاطئ البحر وغطتها الرمال وبقيت مدفونة إلى أن جاء في زمن ما قبل بعثة النبي ﷺ بوقت ليس بطويل عمرو بن لحي، فقد جاء في «الصحيحين» أن النبي - ﷺ - قال: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَخْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرُو بْنُ لَحْيٍ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(٢)، وجاء في بعض الروايات أنه أول من غير دين إبراهيم، وذكر أن لعمر بن لحي (رئي) من الجن وكان صاحب

(١) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (١٢٧٧).

كهانة فاتاه رئي من الجن وهتف به أن: «عَجِّلَ السَّيْرَ وَالظَّنَّ مِنْ تِهَامَةٍ، بِالسَّعْدِ وَالسَّلَامَةِ، إِنَّتِ جُدَّةٌ، تَجِدُ فِيهَا أَصْنَامًا مُعَدَّةً، فَأَوْرِدْهَا تِهَامَةً وَلَا تَهَبْ، ثُمَّ ادْعُ الْعَرَبَ إِلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ»^(١)، إلى آخر ما سمعه، فذهب إلى جدة وحفر عن تلك الأصنام وجاء بها ودعا إليها العرب فأجابوه، وعبدوا نفس الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وأضافوا إليها أيضاً أصناما كثيرة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصْبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]^(٢)، فكسر الأصنام، ومن جملة الأصنام التي كسرها ﷺ هذه الأصنام الخمسة، ولهذا قال الشيخ: «وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين وداً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً، وآخر الرسل - محمد ﷺ -، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»^(٣)؛ أي المعبودة على عهد نوح - عليه السلام -، وهي صور ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليق عظيم له على هذا الموضع يقول: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا

(١) انظر: «الأصنام» (ص ١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨٠).

(٣) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وهكذا ينبغي ويجب على طلبة العلم والدعاة أن يهتموا بهذا الأمر وأن يجعلوا الدعوة للتوحيد وإنكار الشرك ودحض الشبهات من أولويات دعوتهم فهذا هو الواجب وهذه دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن كل أمر يهون دون الشرك، فما دام الشرك موجودا فكيف تنكر الأمور الأخرى!» «شرح كشف الشبهات» (ص ٢٤).

علقت متى تزول وتنمحي»، هذه الأصنام التي وجدت، متى كُسرت؟ وُجدت قبل زمن أول رسول يُبعث، وبُعث للتحذير منها، ولم تُكسر إلا زمن آخر رسول، ثم قال رحمه الله: «فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بُعث محمد ﷺ وكسرها، فالشرك إذا وقع عظيم رفعه وشديده، فإن نوحا مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أخذ ألف سنة إلا خمسين عاما ما أجابه إلا قليل، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بعث محمد ﷺ - وكسرها فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله، كيف أن أصناما عبدت على وقت أول رسول وما كسرها إلا آخرهم»^(١) هذا كلام الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله.



(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ٣١).

[المتن]

قال: «وآخر الرسل محمد - ﷺ -، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلي أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله؛ ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله - ﷻ -، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله - تعالى - ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين».

[الشرح]

قال - رحمه الله تعالى -: «وآخر الرسل محمد - ﷺ -»، آخرهم: أي خاتمهم الذي ختم به النبيون، كما قال الله - ﷻ - ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْبُجُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

«وآخر الرسل محمد - ﷺ -، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين». أي: يوم فتح مكة، لما فتح مكة ودخلها ﷺ فاتحًا أخذ يحطم الأصنام بيده ويكسرها ﷺ بيده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فطهر الله - ﷻ - ببعثته ﷺ ودعوته - ﷺ - البيت من الأصنام ومن المشركين ومن أعمال المشركين، فهدى الله - ﷻ - به من الضلالة، وبصر به من العمى، وفتح به

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

قلوبا عمياً وأذانا صمّاً وقلوبا غلفاً - صلوات الله وسلامه عليه - .

قال: «وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»، «هؤلاء الصالحين» أي: هؤلاء الخمسة وما أضيف إليها من الأصنام الكثيرة التي كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله - ﷺ -؛ داخل الكعبة وأيضاً حول الكعبة، وهنا أيضاً ندرك نعمة الله - سبحانه وتعالى - علينا بأن أكرمنا ببعثة هذا النبي ﷺ، الأصنام كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله، انظروا إلى التحول إلى الوثنية والضلال، الأصنام جعلوها بسبب شبهات أهل الباطل وضلالهم وإضلالهم جعلوا الأصنام داخل بيت الله، وجعلوها أيضاً مُحْتَفَةً ببيت الله، فَمَنْ الله - ﷺ - وأكرمنا ببعثته - ﷺ - فحطم الأصنام كما أنه حطم الشرك، وأنقذ الله - سبحانه وتعالى - به من شاء من عباده من الشرك وهداهم إلى صراط الله المستقيم، وينبغي أن يستشعر المسلم عَظَمَ هذه النعمة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، مِنَّةٌ من أعظم المنن وأجلّها أن بعث فينا - سبحانه وتعالى - هذا الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - .

قال: «أرسله الله إلي أناسٍ» - وانته به إلى هذه الفائدة العظيمة - قال: «أرسله الله إلي أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً» هذه كلها أمور كانوا يفعلونها، الذين بعث فيهم ﷺ شأنهم كما وصف شيخ الإسلام - رحمه الله -، كانوا: «يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً»، وأيضاً يعرفون بصلة الأرحام ويعرفون بإكرام الضيف ويعرفون أيضاً بأخلاق فاضلة ربما لا ترى بعضها في بعض المسلمين، واسمع إلى أحد الشعراء الجاهليين المشركين حيث

يقول في أبيات له:

وَأَغْضُ طَرَفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا

وهو شاعر جاهلي!

الآن يوجد في بعض المسلمين من يتلصص على بيوت الجيران حتى ينظر إلى جيرانه، فكان عندهم أمور أخلاق وكرم، عندهم عبادة، عندهم ذكر، عندهم حج يحجون ويلبون ويقفون بعرفة ومزدلفة يقومون بهذه الأعمال.

قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً»

وهذا الذي قال:

وَأَغْضُ طَرَفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا

هو الذي يقول أيضاً لمعشوقته ومحبوبته:

يَا عِبْلُ أَيْنَ مِنَ الْمَنِيَةِ مَهْرَبِي إِنْ كَانَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ قَضَاهَا

فيؤمن بالقضاء، وأن القضاء بيد الله، وأن الله - سبحانه وتعالى - في السماء، كل هذه يؤمن بها، يؤمن بأن الله في السماء، وأن القضاء - سبحانه وتعالى - بيده، «إن كان ربي في السماء قضاه»، وعندهم أخلاق، عندهم عبادات، عندهم ذكر لله - سبحانه وتعالى -، إذا ما هي مشكلتهم - ما دام أن هذه الأمور كلها موجودة -؟، وأيضاً يقولون بأن الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هو الله، ويقولون بأسماء وصفات لله - عز وجل - يؤمنون بها، ويؤمنون بعلوه على خلقه، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - لَأَبِي «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتًّا فِي الْأَرْضِ

وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟». قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(١)، رب العالمين يقول: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، كانوا يقولون أن الله في السماء، ويؤمنون بالقضاء، يؤمنون بأن الرب الخالق الرازق، وأيضاً يعبدونه ويحجون ويصلون ويقفون بالمشاعر، هذه الأمور كلها يقومون بها.

فالمشركين الذين بعث فيهم ﷺ وبعث في قتالهم يقومون بهذه الأمور، ولهذا نتبه جيداً وأنه يجب على المسلم أن يعرف دين المرسلين ودين المشركين، ومن لم يعرف دين المشركين ربما عمل شيئاً من أعمالهم، وهو يظنها أنها من دين المرسلين، وهذا الذي وقع فيه عباد القبور وأرباب الباطل في قديم الزمان وحديثه. قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً؛ ولكنهم...» -هنا تعرف المخالفة التي وقع فيها هؤلاء- «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله -ﷻ-، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله -تعالى- ونريد شفاعتهم عند الله» أي: عندهم عبادة: حج، صدقة، ذكر لله، وأخلاق كالكرم، وصلة أرحام، وعندهم إقرار بأن الرب الخالق الرازق هو الله، وإقرار بالقضاء والقدر، الإيمان بعلو الله على خلقه، أمور موجودة؛ لكن المشكلة التي بعث النبي -ﷺ- لكشفها وبيان بطلانها وتحذيرهم منها وإنذارهم من مغبتها هي هذه، قال: «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده».

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبنزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

«نريد منهم التقرب إلى الله» أي: نريد منهم أن يقربونا من الله؛ لأن منزلتهم عند الله أعظم من منزلتنا، ونحن عندنا تقصير وعندنا خطأ وعندنا خلل عندنا ذنوب، وهؤلاء لهم مكانة عند الله ولهم منزلة ولهم قدر عند الله - سبحانه وتعالى -، فنحن نريد منهم أن يقربونا إلى الله، قال الله - ﷻ - عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، هذا هو قصدنا، قصدنا من عبادتهم ودعائهم وسؤالهم والتوجه إليهم أن يقربونا إلى الله، هذا معنى قوله: «يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله».

والأمر الثاني: قال: «ونريد شفاعتهم عنده»، مثل ما قال الله - ﷻ - عن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، قالوا: نحن نريد شفاعتهم عنده؛ أي أن يشفعوا لنا عند الله - سبحانه وتعالى -؛ ولهذا يتجهون إليهم مباشرة: (مدد يا فلان)؛ (ادركني)؛ (الحقني)؛ (اشفع لي)؛ (أعطني)؛ (إن لم تنقذني من الذي ينقذني)؛ (إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي)؛ (مالي من ألؤذ به سواك عند حلول الحادث العمم)؛ إلي غير ذلك من الكلام، التجاء إلي مخلوقين لله - تبارك وتعالى - بقصد أن يقربوهم إلى الله - تبارك وتعالى -، وبقصد أن يكونوا شفعاء لهم عند الله - سبحانه وتعالى -.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، والشيطان وجد هذا هو المدخل الأبلغ تأثيراً في نفوس الناس، لأن مكانة الأنبياء والصالحين والملائكة مكانتهم في قلوب الناس عظيمة ومنزلتهم عالية فدخل من هذا المدخل، وهو أمر محبب إلى نفوس الناس وهو محبة الصالحين ومكانته، قال: «مثل:

الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، وفي الشرح يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ، يقول: «وأهم شيء معرفة دين المرسلين فيتبع، ومعرفة دين المشركين والشياطين فيجتنب، فإن من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام، وللشيخ -يعني محمد بن عبد الوهاب رحمه الله- مؤلف في مسائل الجاهلية»^(١).



(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ٣٢).

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فَبِعِثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا - رَحِمَهُ اللهُ - يَجِدُدَ لَهُمُ دِينَهُمُ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالْإِعْتِقَادَ مُحَضَّرٌ حَقَّ اللهُ تَعَالَى، لَا يَصْلَحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِّغَيْرِهِ لَا لِمَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا، وَإِلَّا فَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَحْيِي وَلَا يَمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْبِرُ الْأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهَا، كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - بعد أن بدأ بالمقدمة التي مرت معنا في كتابه (كشف الشبهات)؛ والتي أوضح فيها اتفاق النبيين على الدعوة إلى توحيد الله - رَحِمَهُ اللهُ -، وإخلاص الدين له، وكسر الأصنام وتحطيمها، وكسر صور الصالحين التي يتعلق بها من أشرك بغير الله - رَحِمَهُ اللهُ -، وأن من أرسل فيهم هؤلاء الأنبياء أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا لكنهم جعلوا بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله - رَحِمَهُ اللهُ -، تقرّبهم بزعمهم إلى الله زُلفى وتكون لهم شفعاء عند الله - رَحِمَهُ اللهُ - فيقول - رحمه الله -: «فَبِعِثَ اللهُ مُحَمَّدًا - رَحِمَهُ اللهُ - يَجِدُدَ لَهُمُ دِينَهُمُ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ»؛ لأن العرب كانوا على دينه، وكانوا حنفاء على دين أبيهم إبراهيم - عليه صلوات الله وسلامه - إلى أن حصل فيهم التحول من التوحيد إلى الشرك؛ بسبب عمرو بن لُحَيٍّ الذي سَيَّبَ السَّوَابِغَ وَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخَزَاعِيَّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ» ^(١) وَغَيْرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَالَّذِي جَاءَ بِالْأَصْنَامِ مِنْ جَدَّةٍ وَنَشَرَهَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالْإِعْتِقَادِ فِيهَا، فَتَحَوَّلُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ، فَبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ - لِإِعَادَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، لِإِعَادَتِهِمْ إِلَى الْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ الَّذِي هُوَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ إِمَامِ الْحَنَفَاءِ - عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ -.

قال: «يَجِدُ لَهُمْ دِينَ إِبْرَاهِيمَ»، والتَّجْدِيدُ يَكُونُ لَمَّا انْدَرَسَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَلَمَّا غُيِّرَ وَبُدِّلَ مِنْهُ، بَأَن يَبِينُ لَهُمْ الْحَقَّ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ وَالْإِيمَانَ الصَّافِيَ وَيَحْذَرُهُم ﷺ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ - ﷻ -.

قال: «وَيُخْبِرُهُمْ» أَي: يَخْبِرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ ﷺ «أَن هَذَا التَّقَرُّبُ وَالْإِعْتِقَادُ» أَي: الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِي الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَمَا يَصْرَفُونَهُ لَهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَرُّبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، مِنَ النَّذْرِ وَالذَّبْحِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ: «يُخْبِرُهُمْ أَن هَذَا التَّقَرُّبُ وَالْإِعْتِقَادُ مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ» أَي: خَالِصٌ وَحَقُّ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ شَرِكَةٌ، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَحْدَهُ، فَبُعِثَ ﷺ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا مَعَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ هِيَ حَقُّ اللَّهِ - ﷻ -، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ أَيُّ أَحَقِّيَّةٍ فِيهَا سِوَاكَ كَانَتْ صُورَ صَالِحِينَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ؛ أَي: حَقُّ خَالِصٌ لِلَّهِ ﷻ، لَا يَسْتَحِقُّهَا أَيُّ مَخْلُوقٍ كَائِنًا مِنْ كَانَ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ وَلَا وَلِيٌّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا صَالِحٌ مِنْ

(١) رواه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٩٠١).

الصالحين فضلاً عن غيرهم، هذه أمور لا يستحقها إلا الخالق العظيم والرب الجليل -تبارك وتعالى-.

«أن هذا التقرب» أي: الأعمال التي يقدمونها للأصنام متقربين بها إليها، من أجل أن تقرّبهم إلى الله -ﷻ- من ذلكم الذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك، «والاعتقاد» أي: اعتقادهم في هذه الأصنام أنها وسائط بينهم وبين الله تقرّبهم إلى الله -ﷻ- وتدينهم منه، فهم يعتقدون فيها ذلك؛ ولهذا يدعونها وينذرون لها ويذبحون لها ويصرفون لها أنواعاً من العبادات بهذا الإعتقاد الذي قام في قلوبهم تجاه هذه الأصنام.

قال: «لا يصلح منه» أي التقرب والإعتقاد- شيء لغير الله، لا يصلح شيء منه لغير الله؛ أي: أنه حق الله -ﷻ-، وهنا أيضاً يُنبّه إلى أنه لا يشفع لمن يقدم هذه الأعمال التي لا تصلح إلا لله لغيره، لا يشفع له أن يسميها أو يسميها له أشياخه بغير اسمها، كأن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله، ويطلب المدد والعون من غير الله، ويقول: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، فهذا لا يشفع له، لا يشفع له صرف حق الله لغيره تحت مسميات أيّا كانت، كما نبّه العلماء -رحمهم الله- في هذا المقام: (تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسميات)، وعبر التاريخ يمكر أهل الباطل بالناس مكرّاً كُبَّاراً من هذا الباب، يغيرون أسماء المحرمات الشرعية والمناهي في الكتاب والسنة، بأسماء أخرى حتى تنفق عند الناس وعند الجهال، وهذا كثير جداً كتسمية الربا بالفوائد، وتسمية الرشوة بالإكرامية، وتسمية المخدرات والمسكّرات بالمشروبات الروحية، إلى غير ذلك من الأسماء التي يُمكنُ أصحاب

الباطل بطرحها للباطل في نفوس الناس، فالشاهد أن تغيير الأسماء لا يغير الحقائق، وهؤلاء وإن سموا أعمالهم شفاعاً أو توسلاً أو نحو ذلك من الأسماء هو في الحقيقة شرك بالله، اسمه الشرعي؛ واسمه الحقيقي الشرك بالله، ومن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويصرف أنواعاً من العبادة لغير الله، اسم عمله الشرك، هذا هو اسمه، ولا يتغير عن حقيقته وإن سمي توسلاً أو سمي شفاعاً.

قد قال المشركون قديماً - كما ذكر الله عنهم في القرآن - قال - ﷺ -:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهذا القول لا يسوِّغ لهم هذا الباطل، ولا يزال أهل الضلال والانحراف في هذا الباب يسمون هذه الأعمال الشركية والممارسات الشركية توسلاً أو شفاعاً أو نحو ذلك من الأسماء.

قال: «لا يصلح منها شيء لغير الله، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل» خص بالذكر الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين؛ لأنهم أفضل خلق الله، أفضل عباده، ملائكته المقربون وأنبيائه المرسلون هم أفضل خلق الله - ﷺ -، وأفضل عباده، فإذا كان هؤلاء الصفوة وهؤلاء العباد المصطفون لا أحقية لهم في العبادة ولا في شيء منها، فإن غيرهم من باب أولى قال الله - ﷻ -: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهؤلاء الصفوة من عباد الله تبارك وتعالى لا يستحقون من العبادة أي شيء، فغيرهم من باب أولى وأحرى؛ ولهذا فإن الشيخ - رحمه الله تعالى - عقد في كتابه التوحيد بابين متتاليين:

الأول: بين فيه أن الأنبياء لا يستحقون شيئاً من العبادة.

والباب الآخر: بين فيه أن الملائكة لا يستحقون شيئاً من العبادة.

باب قول الله تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]،
والباب الثاني: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

بين في الأول: أن الأنبياء ليس لهم في العبادة أي حق، وأورد قول الله -ﷻ- لنبه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأورد من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك، وأورد أيضاً في حق الملائكة أن الله -ﷻ- إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صَعِقَةً خَضَعَانًا لقوله -ﷻ-، حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم أي قلوب الملائكة، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبا: ٢٣] فهذا يبين أن الملائكة مع كِبَرِ خَلْقِهَا وشدة قوتها لا تستحق من العبادة أي شيء، وشأنها مع الله -ﷻ- هو هذا أنها تفرع وتخر صَعِقَةً ولا تملك من أمرها وأمر غيرها شيء، الأمر كله لله -ﷻ-، وهكذا الشأن في الأنبياء، وإذا كان الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون لا يستحقون من العبادة أي شيء، فإن غيرهم من باب أولى وأحرى، قال: «لا لملك مقرب ولا لنبى مرسل، فضلاً عن غيرهما».

قال: «وإلا فهؤلاء المشركون» أي: الذين بُعِثَ فيهم ﷺ مُقَرَّرُونَ «يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده»، هؤلاء المشركون مُقَرَّرُونَ أي: مُقَرَّرُونَ لله -ﷻ- بالربوبية، مُقَرَّرُونَ له بذلك، التفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإذا سئلوا من خلقكم؟ من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ من خلق الأنهار؟ من الذي بيده أَرْمَةُ الأمور؟ كل ذلك يقولون: الله، فهم مُقَرَّرُونَ لله -تبارك

وتعالى - بالربوبية، ويشهدون أنه - تبارك وتعالى - رب العالمين، ولا يعتقدون في الأصنام أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتتصرف في هذا الكون، لا يعتقدون ذلك، يعتقدون أن هذا كله بيد الله - ﷻ -، يقرُّون بذلك، والآيات على ذلك كثيرة وسيأتي بعضها عند المصنّف - رحمه الله تعالى -.

مُقرُّون «يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأراضين السبع ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره»، هذا من الأمور التي يعتقدها المشركون الذين بُعثَ فيهم ﷺ، يعتقدون ذلك كله؛ بل وأيضاً - وهذا نبه عليه المصنّف قريباً - يعبدون الله: يحجون ويتصدقون ويصلون الأرحام ويطعمون الطعام ويتصفون بأخلاق فاضلة، عندهم مثل هذه الأشياء، ومشكلتهم - كما نبهنا على ذلك - في توحيد العبادة، لا يجعلونه خالصاً لله، نعم يعبدون الله؛ لكن لا يجعلون العبادة خالصة لله - تبارك وتعالى -؛ بل يجعلون مع الله الشركاء في العبادة، ولا يجعلون مع الله الشركاء في الربوبية، الربوبية يرون ويعتقدون أن الله هو المتفرد بها، إذا قيل لهم من خلقكم؟ يقولون الله، لا يقولون الله والأصنام، من يرزقكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يحييكم ويميتكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يدبر الأمر؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام.

وإذا قيل لهم من تعبدون؟ ومن تلجؤون إليه في دعائكم وسؤالكم، وفي طلبكم؟ لا يقولون: الله والأصنام!

وهذا سيأتي دلائله وشواهد من القرآن، أما في توحيد العبادة من تعبدون؟ لا يقولون الله وحده، كما يقولون ذلك إذا قيل: من خلقكم؟ من رزقكم؟ من يحييكم؟ من يميتكم؟ يقولون الله وحده، لا يقولون: الله والأصنام، فإذا قيل: من تعبدون؟ يقولون الله والأصنام.

ومر معنا الحديث: «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةٌ سِتًّا فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعْبُدُ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟»، قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(١).

ولو قيل لهذا: كم خالق لك؟ كم رازق لك؟ كم مدبر لأمرك؟ ماذا يقول؟ يقول: واحد، الذي في السماء هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يدبر الأمر؛ لكن العبادة هي التي عندهم فيها خلل، والخلل الذي وقع فيه هؤلاء في باب العبادة من جهة اعتقادهم أن هذه الأصنام وسائط بينهم وبين الله -عز وجل- تقربهم إلى الله، مثل ما يفعل سواء بسواء عبَاد القبور الذين يعكفون عندها ويذبحون لها وينذرون لها النذور ويكون عندها ويتذللون ويخشعون ويخضعون، فإذا قيل لهم لماذا هذه الأعمال؟ يقولون: هؤلاء لهم مكانة عند الله ومنزلة عند الله ونريد أن يقربونا إلى الله زلفى، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال: «يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو»، لاحظ عبارة الشيخ دقيقة،

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

قال: «أن الله هو الخالق وحده»، هكذا يعتقدون أن الله الخالق وحده لا شريك له؛ أي لا شريك له في الخلق، حتى إنهم كانوا يقولون في تلبيتهم في تقرير هذه الحقيقة، كانوا يقولون في حجهم وفي تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»^(١)؛ أي: أن هذا الذي نعبد معك ونتخذ شريكاً لك هو مملوك لك، أنت تملكه وهو لا يملك، هكذا يعتقدون، يعتقدون أنها مملوكة لله، مخلوقة لله، وأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر هو الله وحده - جل وعلا - لا شريك له، أيضاً السماوات ومن فيهن، الأرضون ومن فيهن كلهم عبيد لله - ﷻ - وتحت تصرفه، وقوله: «كلهم عبيده» المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الذل والخضوع لأمر الله - ﷻ -، وقضائه وقدرته - سبحانه وتعالى - لهم شاملة، ومشيتته فيهم نافذة، وهم طوع تسخير وتديبره، له الأمر - سبحانه وتعالى - من قبل ومن بعد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكلهم عبيد الله أي: تحت تصرفه وتديبره، لا خروج لأحد منهم عن تدبير الله - ﷻ - وتسخيره سبحانه، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

قوله: «وتحت تصرفه وقهره» توضيح لقوله: «كلهم عبيده» أي: أنهم ممالك له مربوبون مسخرون يتصرف فيهم - تبارك وتعالى - كيف يشاء ويحكم - سبحانه وتعالى - فيهم بما يريد، لا راداً لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى.



(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٠٣/١)، و«البداية والنهاية» (٢/٢٣٧).

[المتن]

قال: «إذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله -ﷺ- [واستحل دماءهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم] يشهدون بهذا، [إذا أردت الدليل] فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ يَدْبِرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وغير ذلك من الآيات».

[الشرح]

جادة الشيخ -رحمه الله- هي جادة أهل السنة والجماعة: اتباع الدليل وقُفُو النصوص، ولا يقول ما يقول إلا مستنداً على دليل، ولهذا درج أهل السنة في كتب الاعتقاد وعموم ما يؤلفون ذكر الحكم أو الأمر مضمون إلى دليله من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، خلافاً لما عليه أهل الأهواء وأهل الباطل الذين لا تراهم يعولون على كتاب الله ولا على سنة نبيه -ﷺ-؛ بل يتخذون لأنفسهم مصادر شتى ومنابع مختلفة عنها يأخذون اعتقادهم ويتلقون دينهم، أما أهل السنة فاتخذوا إمامهم كتاب الله وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، فلما ذكر هذه الحقيقة

في شأن المشركين أنهم يشهدون أن الخالق وحده الله، الرازق وحده الله، المحي هو الله، المميت هو الله لا شريك له في شيء من ذلك، قال: إذا أردت الدليل على أن المشركين يشهدون بهذه الأمور اقرأ هذه الآيات، ليس أمراً جاء به من عنده -رحمه الله- أو ادعاه، وإنما أمر هو مقرر في كتاب الله -عز وجل-، «إذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ -واستحل دماءهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم- يشهدون بهذا»، «يشهدون بهذا» الإشارة إلى ما سبق، وهو أنهم يقرون بأن الخالق الرازق المحي المميت المدبر هو الله، هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد قاتلهم النبي ﷺ، وهنا تعجب غاية العجب إذا علمت أن في أمة محمد ﷺ من يعتقدون أن معنى (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله، وهذا من غاية العجب!، ويثبتونه في كتب تُقرأ وتُحفظ وتُروج بين الناس: أن لا إله إلا الله معناها لا خالق إلا الله!، لو كان معناها لا خالق إلا الله لما نشب قتال ولا وُجد خصومة بين النبي ﷺ وبين المشركين ولم تُرق دماء ولم تذهب أرواح، إذا كان معنى لا إله إلا الله إلا الله: لا خالق إلا الله، هل يتردد المشركون في قبول ذلك؟، فهذا من غاية العجب!، وهو أمر يأتي التنبيه عليه لاحقاً.

الشاهد: أن المشركين كانوا يعتقدون أن الخالق الرازق المحي المتصرف في هذا الكون هو الله وحده لا شريك له، والدلائل على ذلك كثيرة، قال: «إذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ...﴾» أي: أيها النبي لهؤلاء المشركين، قل لهم: «﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾»، ماذا سيكون جوابهم؟ «﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾»

أي: الله وحده هو الذي تفرّد بهذه الأشياء، تفرّد برزقنا من السماء والأرض، تفرّد بملك السمع والبصر، تفرّد بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، تفرّد بتدبير الأمور، لا يعتقدون في أصنامهم أنها تفعل بشيء من ذلك أو تقوم بشيء من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي: سيقول لك المشركون عندما تسألهم هذا السؤال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله وحده، فقل لهم حينئذٍ: ﴿أَفَلَا نُنْقِوُنَ؟﴾!، مادمتم تعتقدون هذا الاعتقاد وتقرّون هذا الإقرار، وتؤمنون هذا الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] معنى الآية كما قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ قال ﷻ: «من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون»^(١).

﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: معه في العبادة، فقل لهم: ﴿أَفَلَا نُنْقِوُنَ؟﴾!؛ أي: ألا تتقون الله!، تعلمون أنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المحيي، وحده المميت، وحده المدبر للأمر، وتتخذون معه شركاء ألا تتقون الله، قال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوُنَ؟﴾!؛ أي: أفلا تتقون الله - ﷻ - وتطرحون هذا الشرك الذي تمارسونه، والباطل الذي تقتربون، وتخلصون لله رب العالمين التوحيد فلا تعبدون إلا إياه ولا تسألون إلا إياه، أفلا تتقون؟!.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٨٤] أي: قل أيها النبي لهؤلاء المشركين الذين يتخذون الأنداد قل لهم: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٢٨٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/٢٢٠٧).

تَعْلَمُونَ؟ مَنْ المالك للأرض؟ من المدبر للأرض؟ من الذي سخر الأرض؟، من الذي أوجد الأرض؟، ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: من الناس والدواب والأشجار والمخلوقات، لمن هذه الأشياء؟ هل هي لهذه الأصنام التي تعبدونها؟ سيقولون: لا، لله، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٥] هذا جوابهم وهذه عقيدتهم وهذا هو إيمانهم وهذا الذي هو يعتقدونه في قرارة نفوسهم كما أخبرنا بذلك رب العالمين -جل وعلا-، وكما أخبرنا من بَعَثَ في هؤلاء محمدًا ﷺ رسولاً وبشيراً ونذيراً، أخبرنا عنهم -سبحانه- أنهم إذا سئلوا هذه السؤالات يقولون: الله، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، أين تذكركم؟! أين تفكرهم في الأمر؟! أين تدبرهم للحقيقة؟! لماذا تتخذون الأصنام؟! لو تذكركم قليلاً وتدبرتم الأمر قليلاً لوجدتم أن هذه الأصنام لا تستحق شيئاً من العبادة، الذي يستحق العبادة كلها من تفرد بخلق هذه الأشياء، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرْشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء في العبادة، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله، هذا هو معنى الآية، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله.

قال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ (٨٧) [المؤمنون: ٨٥-٨٧] أي: ألا تتقون الله -ﷻ- بترك الأنداد والبعد عن اتخاذ الشركاء وأنتم تقولون أن الله

- وَحْدَهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ .

قال - رحمه الله -: «وغير ذلك من الآيات»، قوله: ﴿فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: كيف تُخدعون وتصرفون عن طاعته - تبارك وتعالى - وتوحيده مع إيمانكم وإقراركم واعترافكم بأنه المتفرد بخلق هذه الأشياء وتدبير هذه الكائنات لا شريك له؟!، «وغير ذلك من الآيات» أي الآيات الدالة على إيمان المشركين وإقرارهم بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله - تبارك وتعالى - وحده.



[المتن]

قال رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مَقْرُونٌ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخَلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرِّسْلَ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -، وَعَرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ الَّذِي يَسْمِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا (الاعتقاد)، كَمَا كَانُوا يَدْعُونَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِيَلَّا وَنَهَارًا، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْمَلَائِكَةَ لِأَجْلِ صَلَاحِهِمْ وَقَرَبِهِمْ إِلَى اللهِ - ﷻ - لِيَشْفَعُوا لَهُمْ، أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ: اللَّاتِ، أَوْ نَبِيًّا مِثْلَ: عِيسَى».

[الشرح]

قال: «إِذَا تَحَقَّقْتَ» أي: كَانَ عِنْدَكَ عِلْمًا مُتَحَقِّقًا وَأَمْرًا ثَابِتًا رَاسخًا «أَنَّهُمْ مَقْرُونٌ بِهَذَا» أي: مَقْرُونٌ بِرُبُوبِيَةِ اللهِ، وَخَلْقِهِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، وَإِيجَادِهِ لِلْكَائِنَاتِ، إِذَا تَحَقَّقْتَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقُولُ هُنَا مُنْبَهًا: وَمَنْ الَّذِي لَا يَتَحَقَّقُ مِنْ ذَلِكَ وَأَيَّاتِ اللهِ تُتْلَى بَيْنَهُ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْأَمْرِ وَبَيَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، قَالَ: «إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مَقْرُونٌ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخَلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ» أي: هَذَا الْإِقْرَارُ مِنْهُمْ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَةِ لَمْ يَدْخُلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ، لَمْ يَكُونُوا مُوَحِّدِينَ بِذَلِكَ؛ بَلْ وُصِفُوا مَعَ وَجُودِ هَذَا الْإِقْرَارِ عِنْدَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، وَلَا يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْخَالِقُ، وَحْدَهُ الرَّازِقُ، وَحْدَهُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ، لِأَنَّ هَذَا الْإِقْرَارَ وَحْدَهُ لَا يُدْخِلُ الْإِنْسَانَ فِي التَّوْحِيدِ، الْإِقْرَارُ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَةِ فِي الْخَلْقِ بِالْإِحْيَاءِ بِالْإِمَاتَةِ وَحْدَهُ لَا يَدْخِلُ الْإِنْسَانَ فِي التَّوْحِيدِ، قَالَ: «إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مَقْرُونٌ بِهَذَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخَلْهُمْ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -» وَالْمُرَادُ بِ«التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ

إليه رسول الله - ﷺ - « هو توحيد الله في العبادة الذي كان عندهم خلل فيه، فكان يدعوهم إلى ذلك، وكان يقول لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا»^(١) أي: وحدوا الله - ﷻ - في العبادة، اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره، اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، قال: «وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله - ﷺ -، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة» وهذا أمر ينبه عليه ويؤكد عليه كثيراً - رحمه الله - فالتوحيد الذي جحدته المشركون هو توحيد العبادة، ليس التوحيد الذي جحدته المشركون توحيد الربوبية؛ بل الشواهد والدلائل كثيرة على أن المشركين مُقَرِّين بتوحيد الربوبية، مُعترفين بأن الرب الخالق الرازق المُنعم هو الله - سبحانه وتعالى -، مع أن بعض المُنظِّرين لعبادة القبور في زماننا هذا وقبله، يقولون: إن قول المشركين عندما يُسألون من الذي خلقكم من الذي رزقكم، من الذي يحييكم؟ قولهم: ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، هذا لا يقولونه على وجه الإقرار، وإنما على وجه المجادلة! وأن المشركين في الحقيقة لا يَقْرُون بالربوبية، لماذا؟ لأن التوحيد عند هؤلاء القبوريين هو: الإقرار لله بالربوبية وهو معنى لا إله إلا الله!، وإذا ثبت أن المُشركين مُقَرِّين أصبح توحيدهم وتوحيد المشركين الذين بعث فيهم النبي - ﷺ - سواء، إقرارهم في الربوبية وأما جانب العبادة فهو مُضَيِّع عندهم وعند أولئك، ولهذا حاول بعض مُنظِّري هؤلاء أن يحرفوا في معاني هذه الآيات ودلالاتها؛ من أجل أن يوجدوا فرقاً بينهم وبين أولئك، مع أن الأمر الذي عليه هؤلاء هو الذي عليه أولئك،

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

يقرون لله بالربوبية؛ ولكن جانب العبادة يجعلون مع الله - سبحانه وتعالى - فيه الشركاء، قال: «**وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**» أي: الاعتقاد في الأولياء، الاعتقاد في من يسمونهم بالسادة، الاعتقاد في الأشياخ؛ في الصالحين، ف«**التوحيد الذي جحدوه**» أي جحد المشركون هو: «**توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**»، مثل أن يقول قائل هؤلاء: «أنا أعتقد في الشيخ فلان، أو أعتقد في الولي الفلاني، أو أعتقد في السيد الفلاني، أعتقد أنه رجائي وأملي ومنجدي ومنقذي وشفيعي وواسطي أعتقد ذلك، وبناء على هذا الاعتقاد يوجد التقرب، التقرب إليه بالندور، بالذبائح بالقرايين، بالبكاء، بالعكوف عند قبره، عند ضريحه بالمناجاة بالطلب، بالتوسلات إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي، إن لم تُنقِذني!!»، تبدأ هذه الأمور التي تترتب على هذا الاعتقاد، «**الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**» أي: الاعتقاد في الأولياء، أو في السادة أو في المقبورين أو في الأضرحة أو نحو ذلك، والذي يُبنى عليه أنواع التقربات كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً، قوله: «**كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً**» أي: المشركين الذين بُعث فيهم ﷺ «**كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً**» أي: من الأعمال التي يقومون بها أنهم يدعون الله، يسألون الله، يطلبون حاجاتهم من الله - سبحانه وتعالى -؛ ولكن هل هذا الدعاء يخلصونه لله؟ أم أنهم يدعونه ويدعون معه غيره؟ يسألونه ويسألون معه غيره؟، يلتجئون إليه ويلتجئون معه إلى غيره؟، ما شأنهم في هذا الباب، قال: «**كما كانوا**» أي: المشركون الذي بُعث فيهم ﷺ: «**يدعون الله ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم**

وقربهم إلى الله -عز وجل-، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى،
فهنا المشكل: «يدعون الله ليلاً ونهاراً» يتوجهون إلى الله بالدعاء بالسؤال بالطلب
بالتجاء؛ لكنهم لا يُخلصون دعاءهم لله؛ بل يدعون معه إما: ملكاً من الملائكة
لأجل صلاحه وقربه من الله، أو رجلاً صالحاً من أجل صلاحه ومكانته، أو نبياً
من الأنبياء، هذا الدعاء الذي يوجد عندهم لهؤلاء سببه الاعتقاد، يعتقد في النبي
أو الولي أو الملك، ويعظمه تعظيماً لا يليق إلا بالله -سبحانه وتعالى-، ثم يلتجئ
إليه في سؤاله وطلبه ودعائه ورجائه ورغبه ورهبه، قال: «كما كانوا يدعون الله ليلاً
ونهاراً» يدعون الله ليلاً ونهاراً؛ لكنهم لا يُخلصون لله الدعاء، ولهذا نبّه المصنّف
قال: «ثم منهم من يدعوا الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعوا رجلاً
صالحاً مثل اللات»، اللات بالتشديد، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، اللات بالتشديد، قيل في التفسير: أنه رجل كان
المشركون يعتقدون فيه الصلاح؛ لأنه كان من صنيعه أن يُلْتَّ (أصل) العجين، يُلْتَّ
السويق للحجاج؛ حجاج بيت الله، فكان يعجن العجين ويلت السويق ويصنعه
ويهيأه ويقدمه قرىً وضيافةً للحجاج، نوع من الكرم، فكانوا معجبين بهذا الرجل
لكرمه وسخائه وبذله، فلما مات عكفوا على قبره وأخذوا يجعلونه وسيطاً وشفيعاً
لهم عند الله لقربه بزعمهم عند الله -عز وجل- (١).

(١) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف
له أستار وسدنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها
على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.
قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه،

قال: «أو يدعون رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى -عليه السلام-»

قد قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦].



تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا (اللات) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يُلْتُ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه» «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).

[المتن]

قال: «وعرفت أن رسول الله - ﷺ - قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤].»

[الشرح]

قال: «وعرفت» أيضاً إضافةً إلى ما سبق، وهذه الأمور التي ينبه عليها الشيخ - رحمه الله - إذا عرفت كذا وعرفت كذا، وعرفت كذا، هذه لا بد أن تُضبط، ويُحَبَّذَ على طالب العلم أن يحفظها، يحفظ هذه المقدمات، إذا عرفت كذا وعرفت كذا وعرفت كذا؛ لأنها أمور نبّه الشيخ أنه لا بد أن يتحقق الإنسان منها، ويكون متحققاً بها، ويكون منها على يقين وثبات وعلم بها وبأدلتها؛ لأنها إذا ضُبطت هذه الأمور ضبطاً تاماً وعُرفت بدلائلها كانت عمدةً وأساساً لإبطال ما سيأتي من شبهات أهل الشرك والباطل، فهذه أمور ركائز ودعائم وأسس لا بد أن تُعرَف في الكتاب في «كشف الشبهات»، فهذه الشبهات لأجل أن تُكشَف وتُبطل لا بد أن تعرف كذا وتعرف كذا وتعرف كذا وتتثبت من كذا وتكون على يقين من كذا، فهذه أمور لا بد منها، ولهذا أُكِّد أن هذه الأمور لا بد أن تضبط ضبطاً جيداً من طالب العلم مع أدلتها، وإذا ضبطت هذه الأمور مع أدلتها، والشيخ لم يستقص الأدلة وإنما أشار إلى البعض، فأنت إذا ضبطت هذه الأمور وضبطت أدلتها تجد أنك محتاجاً إليها فيما بعد في كل كشف شبهة لهؤلاء المشركين؛ لأنك تحتاج فيما بعد في كشف

الشبهات أن تقول: أن من الأمور المتقررة في القرآن كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، فيصبح الحق واضحاً وبين وشواهد واضحة، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فإذا ظهرت هذه الأمور واتضحت ما سواها شبهات لا قيمة لها وقد يكتفى في إبطالها بتقرير هذه القواعد - كما سيظهر لك هذا فيما بعد - قد يكتفى في إبطال الشبهات بتقرير هذه القواعد؛ لأنه سيتبين من تقرير هذه القواعد وإظهارها وإبرازها بأدلتها أن ما سواها قطعاً باطل، ولكن ما وجه بطلانه؟، وكيف يُكشَف؟، تبقى هذه المسألة تفصيلية يتناولها أهل العلم كأن يقول العالم: هذا حديث موضوع لأن في سنده فلان فلا حجة فيه، أو يقول: هذا الحديث ضعيف، أو الذي فهمتموه من هذا الحديث غير مُسَلَّم، ولا يفهم من الحديث كذا، أمور تفصيلية تأتي فيما بعد؛ لكن هذه القواعد هي الأساس في كشف شبهات أهل الباطل، فهذه القواعد لا بد أن تُضبط وأن تكون عند طالب العلم أمور راسخة ثابتة بدلائلها وشواهدا من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

قال: «وعرفت أن رسول الله ﷺ - قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]» أي: أن هؤلاء المشركين مع ما كانوا عليه من الإقرار لله بالربوبية وما كانوا عليه من الدعاء؛ دعاء الله وعبادته - لكنهم لا يخلصون لله - مع ذلك قاتلهم النبي ﷺ على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله، فإذا كانت هذه الأمور التي كانوا عليها وأشار إليها الشيخ لم تكن كافية ولا منجية لهم؛ بل قاتلهم النبي ﷺ ووصفهم بأنهم كفار وأنهم مشركين

-صلوات الله وسلامه عليه-، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده في آيات كثيرة جداً، دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾: أي المبنية التي بُنيت لأن تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها الله، ﴿لِلَّهِ﴾: أي: بُنيت لله وحده، يعبد فيها وحده -تبارك وتعالى-، ولا يُجعل معه فيها شركاء، وقيل ﴿الْمَسْجِدَ﴾ أي: مواضع السجود، وأعضاء السجود لله، فلا يُصرف شيء من السجود والذل والخضوع إلا لله -تبارك وتعالى-، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، و﴿أَحَدًا﴾ جاءت نكرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي: أي أحد كان، لا تدعوا مع الله أحداً أي أحد كان، لا ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسل ولا ولي من الأولياء ولا غيرهم، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿لَهُ﴾ أي: لله، وهذه الآية في سورة الرعد بعد أن ساق -تبارك وتعالى- من أول السورة البراهين على تفرده -تبارك وتعالى- وحدانيته؛ تفرده بخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وسعة علمه وإحاطة ملكه وغير ذلك مما ذكر -تبارك وتعالى-، ختم ذلك بقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: المتفرد بهذه الأشياء وخلق هذه الأشياء وإيجادها هو وحده الذي له دعوة الحق، وهو -سبحانه وتعالى- الحق -جل وعلا-، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، والحق اسم من اسمائه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] فالله -عز وجل- هو الحق، ودعوة الحق لله -جل وعلا- فلا يُدعى إلا الله، ولا يُلجأ إلا إلى الله، ولا يصرف شيء من العبادة إلا لله، وصرف شيء من العبادة لغيره شرك بالله -عز وجل-،

وهو أبطل الباطل وأظلم الظلم وأشد الضلال، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ فدعاؤه وصرف الدعاء له، والذل والخضوع له وحده، هذا هو الحق، وهو المستحق لذلك وحده -تبارك وتعالى-، وأما من سواه فلا يستحقون شيئاً من ذلك، قال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤] ^(١).

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله:

فائدة في بيان معنى الرب والإله

الله جل وعلا في القرآن ذكر الرب في مواضع، وذكر الإله في مواضع. خذ مثلاً سورة الناس، يقول سبحانه وتعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ} (١) فما الفرق بين رب الناس وإله الناس؟ هل هما بمعنى واحد؟ إذاً يكون الكلام مكرراً أو أنهما بمعنىين فلا بد من معرفة الفرق بينهما، وكثيراً ما يأتي ذكر الرب كقوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} (٢)، فتكرر لفظ الرب وتكرر لفظ الإله فما معنى كل منهما؟

فالرب معناه المربي لخلقه بنعمه ومغذيه برزقه تربية جسمية بالأرزاق والطعام، وتربية قلبية روحية بالوحي والعلم النافع وإرسال الرسل.

ومن معاني الرب أنه المالك للسموات والأرض فرب الشيء مالكة والمتصرف فيه، ومن معاني الرب المصلح الذي يصلح الأشياء ويدفع عنها ما يفسدها، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يصلح هذا الكون وينظمه على مقتضى إرادته وحكمته سبحانه وتعالى.

أما الإله فمعناه المعبود من أله يأله بمعنى عبد يُعبد فإنه معناه معبود وليس معناه الرب وإنما معناه المعبود والإلهية هي العبادة والوله هو الحب لأنه سبحانه وتعالى يحبه عباده المؤمنون ويخافونه ويرجونه ويتقربون إليه.

هذا هو معنى الإله فبين الفرق بين معنى الرب ومعنى الإله وأنهما ليسا بمعنى واحد ومن قال إنهما بمعنى واحد فقد غلط، والعلماء يقولون إذا ذكرا جميعاً صار الرب له معنى والإله

[المتن]

قال: «وتحققت أن رسول الله - ﷺ - قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون».

[الشرح]

يقول الشيخ - رحمه الله - إذا عرفت كذا وعرفت كذا وتحققت أن رسول الله - ﷺ - قاتل هؤلاء المشركين الذي يقرون بهذه الأشياء ويعبدون الله ويدعون الله، قاتلهم النبي ﷺ، وقتاله لهم أمرٌ معلوم، في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفي كتب التاريخ قاتلهم، ودارت بينه وبينهم معارك طاحنة وشديدة، وذهبت أرواح كثيرة من المسلمين ومن الكفار لماذا قاتلهم؟، مع أنهم كانوا يقرون أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت الله المدبر للأمر الله، وكانوا يدعون الله، ويذبحون لله وينذرون لله، قال: «وتحققت أن رسول الله - ﷺ - قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله»، ما يُجعل مع الله فيها شريك ولا مقدار ذرة، لأجل ذلك قاتلهم، فهم يقرون أن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يقرون بذلك ويعبدونه ويدعونهم ويسألونه،

له معنى، وإذا ذكر واحد دخل فيه معنى الرب أما إذا ذكرا جميعاً مثل ما في سورة الناس فإنه يكون للرب معنى وللإله معنى آخر» [شرح كشف الشبهات] (ص ٣٦).

فالمشرك إذا قيل له هل الله معبود؟، هل الله يُدعى؟ يُسأل؟، هل تدعوه؟ هل تذبح له؟ هل تنذر؟، يقول: «نعم»؛ لكن لو قلت له: «أنف هذه الأمور عن غير الله»، لا بد أن تنفي هذه الأمور عن غير الله، ولا تكون من أهل الإيمان إلا إذا نفيتها عن غير الله، «لا إله...»، لا بد من النفي، لا توحيد إلا بالنفي، نفي العبودية عن كل من سوى الله، عندما يُطلب منه نفي هذه الأمور عن غير الله هنا يقف، لا يتردد المشرك في أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت، ولا يتردد أيضاً في أنه معبود وأنه يُدعى و يُسأل ويطلب منه ويُذبح له ويُنذر، هذا أيضاً لا يتردد فيه؛ لكن إذا قيل له هذه الأمور يجب أن تنفيها عن غير الله هنا يقع، ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، هنا الخصومة، ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ﴾ أجعل المعبودات معبوداً واحداً لا ندعوا إلا الله وحده، لا نسأل إلا الله وحده، لا نذبح إلا الله وحده، لا ننذر إلا الله وحده، هنا الخصومة التي كانت بينهم، ولهذا يقول الشيخ: «قاتلهم - أي النبي ﷺ ليكون الدعاء كله لله^(١)، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع

(١) وللعلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: تفصيل بديع في شرحه لهذه العبارة:

«الدعاء على نوعين:

الأول: دعاء عبادة بأن يتعبد للمدعو طلباً لثوابه وخوفاً من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة، وعليه يقع الوعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

النوع الثاني: دعاء المسألة وهو دعاء الطلب، أي: طلب الحاجات وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دعاء الله سبحانه وتعالى بما لا يقدر عليه إلا هو، وهو عبادة الله تعالى؛ لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى، واللجوء إليه، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة، فمن دعا غير الله - ﷻ - بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حياً أو

العبادة كلها لله» إذا عرفت هذا، وتحققت منه، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام كما سبق إيضاح ذلك، وهذه معاني مهمة جداً ولهذا الشيخ يُبدي ويعيد في هذه الحقائق: «وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام» وعرفت أيضاً: «وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون»، وكأن الشيخ يقول -رحمه الله- لا يمكن أن تفهم التوحيد إلا بمعرفة هذه الحقائق، فلا بد من العلم بهذه الحقائق، وبها تعرف التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهو مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، قال: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله».



ميتا.

القسم الثاني: دعاء الحي بما يقدر عليه مثل يا فلان اسقني فلا شيء فيه.

القسم الثالث: دعاء الميت أو الغائب بمثل هذا فإنه شرك؛ لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفاً في الكون فيكون بذلك مشركاً» (شرح كشف الشبهات) (ص ٢٣).

[المتن]

قال: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلَكًا أو نبيًا أو وليًا أو شجرةً أو قبرًا أو جَنِيًّا، لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قَدِّمْتُ لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)، فأتاهم النبي -ﷺ- يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: (لا إله إلا الله)، والمُراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجُهاَل يعلمون أن مراد النبي -ﷺ- بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله))، قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].»

[الشرح]

قال -رحمه الله-: «وهذا التوحيد» أي: التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى المشركون من قبوله والإذعان له، «هو معنى قولك: لا إله إلا الله»، فالتوحيد هو مدلول (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، ولا توحيد إلا بتحقيق هذه الكلمة، و(لا إله إلا الله) قائمة على ركنين: النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل من سِوى الله أيًا كان، نفيًا عام للعبودية عن كل من سِوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، هذا هو التوحيد، ولذلك يجب أن يُعلم أنه لا توحيد إلا بالنفي والإثبات، ولا يكون الموحِّد موحَّدًا إلا بهما، وهما: النفي في أول هذه الكلمة والإثبات في آخرها، النفي في أولها للعبودية عن كل من سِوى الله، والإثبات

في آخر هذه الكلمة للعبودية بكل معانيها لله وحده، فمن نفى ولم يُثبت لا يكون مُوَحِّدًا، ومن أثبت ولم ينف لا يكون مُوَحِّدًا، من نفى ولم يُثبت يكون ملحدًا، ومن أثبت ولم ينف يكون مشركًا، ولا يكون المرء موحدًا إلا إذا نفى وأثبت، إذا جاء بالنفي والإثبات معًا، رأيتم من قال: «أنا أقر بأن الله معبود وأعبده وأدعوه وأسجد له وأركع وأذبح له وأنذر، أعتقد ذلك وأفعل ذلك؛ لكن لا أنفي هذه عن غيره»، هل يكون مُوَحِّدًا؟ حاشا وكلاً، لا يكون مُوَحِّدًا، لا بد في التوحيد من النفي، من لم ينفي العبودية عن غير الله لا يكون مُوَحِّدًا، ولو أثبت أن الله معبودا وعبده دون نفي للعبودية عن غيره لا يكون موحدًا، التوحيد لا بد فيه من النفي والإثبات؛ ولهذا يقول الشيخ: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله» ثم أخذ يشرح معنى الإله، ومن وقعوا فيه أو المنظرون في عبَاد القبور حصل منهم عبث؛ محاولة للتغيير في المعاني، فقالوا: «معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق إلا الله، أو لا رازق ولا مدبر للأمر إلا الله»، يقول الشيخ -رحمه الله-: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور»، «فإن (الإله) عندهم»، من هم؟ أهل اللسان الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ، أهل اللسان العربي الذين بعث فيهم الرسول ﷺ لما قال لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^(١)، يعرفون معنى (لا إله)، ويعرفون معنى (الإله)، يعرفون معناها جيداً باللسان العربي المبين الذي خوطبوا به، ولو قال لهم: قولوا لا خالق إلا الله تفلحوا، المسألة تختلف في فهمهم للسان العربي، عن قوله لهم:

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

((قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا))؛ لأنهم يعرفون معنى الإله، (الإله) معناه عندهم -يعني عند أهل اللسان الذي يُقصد بهذه الأشياء- يُقصد بالذل بالخضوع بالدعاء بالرجاء بالانكسار بالتأله،

لله دُرُ الغايات المُدَّهي * سَبَّحْنِ واسترجعن من تألهي

-أي تعبدني- التأله: التعبد، والمألوه هو المعبود، ﴿وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، أي: عبادتك، فأهل اللسان يعرفون ذلك، ولهذا يقول الشيخ -رحمه الله-: «فإن (الإله) عندهم -أي عند أهل اللسان العربي الذين بُعث فيهم ﷺ هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور»، هو الذي يُقصد بالذبح والنذر والدعاء والرجاء والسجود والركوع ونحو ذلك من الأعمال لأجل هذه الأمور التي هي طلب الشفاعة والتقرب إلى الله -سبحانه وتعالى-، قال: «هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً [أو شجرة] أو قبراً أو جنيّاً» والمعنى: أن من دعا ملكاً أو ذبح له أو نذر له، أو شجرة أو نبياً أو ولياً فقد اتخذها إلهاً، ولم يصبح من أهل (لا إله إلا الله)، وليس من أهل التوحيد؛ لأنه لا يكون من أهل التوحيد إلا إذا نفى هذه الأشياء عن غير الله -تبارك وتعالى-، قال: «لم يريدوا» أي: أهل اللسان العربي الذي بعث فيهم ﷺ «لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده»، ولو كانوا يريدون بالإله: الخالق، ولو كان معنى الإله في اللسان العربي: الخالق الرازق لكان الأمر مختلفاً عندما قال لهم ﷺ: ((قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا))، سيقولون: «لا إله إلا الله»، إذا كان معنى (لا إله إلا الله) أي: لا خالق أو لرازق إلا الله؛ لأنهم هم يعتقدون هذا الأمر، ولا يكون منافياً لشيء

يعتقدونه، قال: «لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)» الشيخ يوضح هذه المعاني من خلال وقائع، معاينة ومشاهدة، لأن المشركين في الأزمنة المتأخرة يطلقون على المعبود الذي يصرفون له الدعاء والذبح والنذر: (السيد)، وعندما يقال فلان سيّد أو السيّد فلان أصبح مرتبطاً في قلوبهم -بسبب الباطل الذي اكتنفها- أن له حق في الذل؛ حق في الدعاء؛ حق في الخضوع والرجاء؛ حق في الانكسار والخضوع؛ له حق في هذه الأشياء، سيّد، فالسيد هذه الكلمة أصبح منصباً عند هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة والقباب ونحو ذلك وأن السيّد له الأحقية؛ بل ارتقى الأمر ببعض هؤلاء إلى حدّ لم يبلغه المشركون في زمن الرسول ﷺ -؛ اعتقدوا في بعض من يسمونهم بالسيد أو السادة أن عندهم تصرف في الكون!، وهذا أمر ما بلغه المشركون!؛ تدبير؛ وإحياء وإماتة، حتى قال بعض المشاهير من دعاة القبور في زماننا، قال: «من الذي يقول أنه المتفرد بالخلق هو الله؟»! يعني معنى كلامه في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَبَّارُكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] يفهم من الآية، يقول: «الأولياء عندهم قدرة»!، ويقول: «إن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم؛ ولكنهم لا يفعلون ذلك حتى لا تختلط الأنساب»!، من أجل المصالح وإلاّ يقدرّون!! والعياذ بالله، ويقول الله ﴿قَبَّارُكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يقول: «هذا يدل على أن مع الله خالقين»، هذا ما قاله المشركون، ولو قال هذا القائل هذا الكلام لأبي جهل لأنكر عليه، لأن هذه الأمور متقررة وراسخة وثابتة أن الله -سبحانه وتعالى- متفرد بها والآيات واضحة

في هذا المعنى، فبلغ في بعضهم الأمر مبلغاً لم يبلغه حتى المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ، وسيأتي عند الشيخ لاحقاً قوله: «تباً لمن كان أبو جهل أعلم منه بالتوحيد».

قال: «فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)»، و(السيد) هذه الكلمة أصبحت عند أهل القبور تعني ما أشرتُ إليه أن من يُطلق عليه هذا اللقب له حق في الذل؛ له حق في الخضوع؛ في الانكسار، حتى إن بعضهم إذا وقف عند قبر من يُسمّى بالسيد يخضع خضوعاً لا يكون منه في صلاته!، ويبكي بكاءً لا يكون منه عند قيامه بين يدي ربه في الصلاة!، يخضع خضوعاً وذلًا، وهذا مبني على هذا الاعتقاد في هؤلاء، قال: «فأناهم النبي -ﷺ- يدعوهم إلى كلمة التوحيد -أي إلى (لا إله إلا الله)- وهي: (لا إله إلا الله)»، قال: «والمُرَاد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها» المراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها مجرد اللفظ لا يكفي ولا يكون به الإنسان من أهل التوحيد، لا بد من تحقيق الشهادة بلا إله إلا الله، وهذا لا بد فيه من العلم كما قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، في «صحيح مسلم» من حديث عثمان -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- أنه قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، الحق: لا إله إلا الله، ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: معنى ما شهدوا به، فلا بد من العلم بمعناها، «المُرَاد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها»، فمن قال هذه الكلمة وهو لا يفهم معناها لا

تفيده، ومن قال هذه الكلمة وهو يفهم منها معنى لا تدل عليه لا تفيده كذلك، فلو قال قائل معنى لا إله إلا الله أي: أن الله قادر على الاختراع، فلا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله، أو: «لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله»، لا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله حتى يفهم معناها ومدلولها الذي دلّت عليه؛ وهو عبادة الله -عز وجل- وعدم الإشراف به، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] هذا هو معنى لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، هذا هو معناها، قال الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، هذا هو معناها، هذا هو معنى (لا إله إلا الله): أن يعبد الله -عز وجل- وحده وأن لا يتخذ معه شركاء^(١).

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وفي وقتنا هذا وجد من يفسر لا إله إلا الله بأن معناها هو إفراد الله بالحاكمية وهذا غلط؛ لأن الحاكمية جزء من معنى لا إله إلا الله وليست هي الأصل لمعنى هذه الكلمة العظيمة، بل معناها لا معبود بحق إلا الله بجميع أنواع العبادات ويدخل فيها الحاكمية ولو اقتصر الناس على الحاكمية فقاموا بها دون بقية أنواع العبادات يكونوا مسلمين، ولهذا تجد أصحاب هذه الفكرة لا يهتدون عن الشرك ولا يهتمون به ويسمونه الشرك الساذج، وإنما الشرك عندهم الشرك في الحاكمية فقط وهو ما يسمونه الشرك السياسي، فلذلك يركزون عليه دون غيره، ويفسرون الشرك بأنه طاعة الحكام الظلمة» «شرح كشف الشبهات» (ص ٤٦).

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هَذَا قِسْمٌ بَاطِلٌ؛ مُبْتَدَعٌ، فَلَمْ يَكُنْ مِمَّا ذَكَرَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا لَقُلْنَا: لَا مُشَاحَّةَ فِي الْأَصْطِلَاحِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، لِأَنَّ تَوْحِيدَ الْحَاكِمِيَّةِ يَدْخُلُ ضَمْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِاعْتِبَارِهِ حُكْمًا لِلَّهِ، وَفِي تَوْحِيدِ الْأَلُوْهِيَّةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْعَبْدَ مُتَعَبِّدٌ بِهِ، وَمَفْرُوضٌ عَلَيْهِ، إِذَنْ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ

قال: «والكفار الجُهال يعلمون أن مُراد النبي - ﷺ - بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه»، «الكفار الجُهال» أي: الذين بُعث فيهم ﷺ كانوا «يعلمون أن مُراد النبي - ﷺ - بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه»، والدليل على أنهم كانوا يعلمون أن معنى (لا إله إلا الله): إفراد الله بالتعلق - يعني بالذل بالخضوع بالذبح بالنذر بالرجاء - والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه يقول الشيخ: «فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله))، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا))، فالجواب؟ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ بل أخذوا يتواصون على الصبر على عبادة الآلهة: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]؛ يعني يُدبّر بكم ويخطط ويُمكر بكم حتى تُحرفوا عن هذا الدين فانتبهوا وتواصوا بالصبر على عبادة الآلهة، وأيضاً أخذوا يتفاخرون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] لولا أن كنا مُتَحِلِّين بالصبر لحرفنا محمد - ﷺ - عن هذه الآلهة، كل ذلك قالوه عندما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا))، فهموا أن (لا إله إلا الله) إبطال عبادة هذه الأصنام وإخلاص العبادة لله - تبارك وتعالى -؛ ولهذا قال - ﷺ - في آية أخرى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) [الصافات: ٣٥-٣٦]؛ لأن (لا إله إلا الله)

نَجْعَلُهُ قِسْمًا بِرَأْسِهِ، لِأَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَى كَوْنِهِ قِسْمًا بِرَأْسِهِ أَشْيَاءٌ مُخَالَفَةٌ لِلشَّرْعِ، وَمِنْهَا التَّسَرُّعُ بِتَكْفِيرِ الْحُكَّامِ، فَيَقُولُونَ: إِذَا خَالَفَ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ - قَدْ تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ - يَقُولُونَ هَذَا كَافِرٌ، لِأَنَّهُ أَخْلَ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِهَذَا وَضَعُوا هَذَا الْقِسْمَ الرَّابِعَ «شَرْحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ» (٣/ ٣٤).

تعني ترك الآلهة وإخلاص العبادة لله - سبحانه وتعالى -، وأيضاً خذ الدليل على ذلك في قصة النبي - ﷺ - مع عمه أبي طالب وقد أوردها الشيخ - رحمه الله - في كتابه «التوحيد» في باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿١﴾ لما حضرت أبا طالب الوفاة دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِي حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْهُ».

فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿٣﴾.

إذاً لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل على ملة عبد المطلب»؛ لأن قول النبي - ﷺ -: ((قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) تعني إبطال الأصنام وإبطال عبادة ودعاء غير الله - سبحانه وتعالى -؛ ولهذا قالوا له: «بل على ملة عبد المطلب».

فهل ملة عبد المطلب إنكار وجود الله؟

وهل ملة عبد المطلب إنكار أن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر لهذا الكون هو الله؟

وهل ملة عبد المطلب، جحد أن الله معبود يُعبد ويُصَلَّى له ويُرْكَع ويُسجد

ويُدعى؟

الجواب: ملة عبد المطلب الإقرار بالأشياء المتقدمة واتخاذ الشركاء مع الله في العبادة، في الدعاء، في الذبح في النذر، ولهذا لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل على ملة عبد المطلب» أي: في دعاء الأصنام مع الله والذبح لها والنذر لها والتقرب إليها والمحافظة على هذا الأمر الذي تُنافيه وتبطله (لا إله إلا الله)، ولهذا لما قال له: ((قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ))، قالوا له: «بل على ملة عبد المطلب»، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب، فأبى أن يقول (لا إله إلا الله)، قال: «فإنه لما قال لهم: ((قولوا لا إله إلا الله [تفلحوا]))، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾ [ص: ٥]».



[المتن]

قال: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكُفَّارِ؛ بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلْفِظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لَشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَاقِظُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: «لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَدْبِرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللَّهُ»، فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالِ الْكُفَّارِ أَعْلَمَ مِنْهُ بِمَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).»

[الشرح]

قال - رحمه الله تعالى - : «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ» جُهَّالُ الْكُفَّارِ - أي الذين بعث فيهم نبينا ﷺ، «يَعْرِفُونَ ذَلِكَ» أي: يعرفون معنى (لا إله إلا الله) وأنها تعني: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه: والبراءة منه «فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكُفَّارِ»، ثم هنا أمر يُستفاد من قول الشيخ: «بَلْ يَظُنُّ...» إلخ، من لم يعرف معنى هذه الكلمة حقيقةً معناها الصحيح الذي دلَّ عليه الكتاب ودلت عليه السنة ويُعرف باللسان العربي وقد فهمه الكفار الذين بُعث فيهم ﷺ، فهو في أحد طريقتين:

- قال: «بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلْفِظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لَشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي»، هذا مسلك بعضهم يظنُّ أن تحقيق (لا إله إلا الله) هو أن يتلفظ بحروف، هذا هو تحقيقها أن يتلفظ بحروفها دون أن يعتقد القلب بشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك، (لا إله إلا الله) كلمة تُقال وتردد؛ لكن لا يعتقد القلب لشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك.

- المسلك الآخر: قال: «والحاذق منهم» - أي: الذي يدّعي الحذق والفهم والدراية بالأمور - **يظن أن معناها: «لا يخلق ولا يرزق إلا الله»**.

فمن يجنح عن المعنى الصحيح لـ (لا إله إلا الله) له أحد مسلكين:

(١) إما أن يظن أنها كلمة تُقال دون أن يُعتَقَد أو يعتَقِد القلب بشيء من المعاني التي تدل عليها.

(٢) والمسلك الآخر: وهو من يدّعي الحذق والفهم من هؤلاء، يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله.

فيقول الشيخ آسفًا على حال هؤلاء، يقول: «**فلا خير في رَجُلٍ جُهَالِ الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)**»؛ جهال الكفار أعلم منه بـ (لا إله إلا الله) لأن الشيخ وضح قريبًا أن جهال الكفار المشركين الذين بعث فيهم ﷺ كانوا يعرفون معنى هذه الكلمة، ولهذا امتنعوا من قبولها واستكبروا عن النطق بها وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ فيتعجب الشيخ ثم يختم بقوله: «**فلا خير في رَجُلٍ جُهَالِ الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)**».



[المتن]

«إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهِذَا؛ أَفَادَكَ فَايَدَتَيْنِ:

الأولى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]،

وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفُ الْعَظِيمُ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى -ﷺ- مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

[الشرح]

قال رحمه الله تعالى -: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ».

«مَا قُلْتَ لَكَ»: أي: فيما تقدّم في هذه الرسالة من تمهيداتٍ مهمةٍ وتقديماتٍ عظيمةٍ، بيّن فيها -رحمه الله تعالى- دين المرسلين، وأنه قائم على توحيد الله -ﷻ-، إخلاص الدين له، والبراءة من الشرك، وبيّن فيها حقيقة دين المشركين، وأنهم يُقَرُّون بأنّ الخالق الرازق المُنعم المُتصرّف في هذا الكون هو الله، وأيضًا

يعبدون الله - ﷻ -، ويذكرون الله كثيراً، ويتصفون بصفاتٍ فاضلة؛ كصلة الأرحام وإطعام الطعام وغير ذلك؛ لكنهم لا يُخلصون لله - ﷻ - العباد، فلا يُخلصون له الدعاء، ولا يُخلصون له الذبح والنذر؛ بل يجعلون مع الله - تبارك وتعالى - في ذلك الأنداد والشركاء، ويزعمون أن اتخذهم لهذه الأنداد من أجل أن تقر بهم إلى الله وأن تكون شافعاً لهم عند الله - سبحانه وتعالى -، إلى غير ذلك من المُقدمات والتمهيدات العظيمة التي بدأ - رحمه الله - هذه الرسالة بها.

فيقول هنا: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ»، ومعرفة القلب: هي التي يكون فيها قلب الإنسان حاضراً واعياً ضابطاً للأمر، لا أن يكون عند حظ الإنسان من العلوم مجرد السماع دون أن يكون القلب حاضراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ ولهذا أكد - رحمه الله - على هذا الأمر بقوله: «مَعْرِفَةً قَلْبٍ»؛ أي: تضبط ذلك بقلبك.

«وَعَرَفْتَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ - ﷻ - الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾» [النساء: ٤٨]؛ أي: أن حقيقة اتخاذ الأنداد مع الله، وتسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه، وصرف شيء من العبادة لغيره - تبارك وتعالى -، من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار، فالشرك هو: اتخاذ نِدٍّ مع الله - ﷻ - يُدعى مع الله؛ يُذبح له؛ يُنذر له؛ تُصرف له أنواع العبادة.

«وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ»؛ كما قال - ﷻ -: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ كما قال - ﷻ -: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛

كما قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو دين الرسل من أولهم إلى آخرهم: وهذا أمرٌ سبق البيان عليه عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

قال: «وَعَرَفْتُ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا» أيضاً إذا عرفت هذه الأمور ثم تتأمل في الوقت نفسه حال غالب الناس وكثيرٍ منهم، وأن غالبهم في جهلٍ لهذا الأمر، يجهلونهُ؛ لا يعرفونه؛ ولا يفهمونه، فإذا عرفت ذلك كله؛ أفادك فائدتين، عرفت دين الأنبياء والمرسلين؛ وعرفت الشرك الذي هو ضاده، وعرفت دين المشركين الذي بُعِثَ فيهم النبي ﷺ، ثم بعد ذلك نظرت إلى واقع كثيرٍ من الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر، لا يعلمون به ولا يعرفونه، إذا عرفت هذه الأمور معرفة جيدة، وألممت بها إلماماً طيباً، يقول الشيخ: هذا يفيدك فائدتين.

قال: «الْأُولَى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»، الفائدة الأولى: أن قلبك يفرح بهذا الخير الذي ساقه الله إليك وَمَنْ عَلَيْكَ بِهِ؛ مع أن أكثر الناس يجهلونهُ، وهنا تظهر قيمة هذا الأمر الذي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ، لو كان هذا الأمر الذي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ أُعْطِيَ لكل الناس لكان حقيقاً بك أن تفرح به فرحاً عظيماً فكيف والحال أن هذا الأمر أكثر الناس في جهلٍ عنه وعدم علمٍ به ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، فإذا فهمت هذا الأمر وعرفته وعرفت دلائله وشواهدهُ؛ ورأيت حال كثيرٍ من الناس في جهلٍ عظيمٍ به وعدم علمٍ به تفرح بفضل الله وبرحمته، وهنا الفرح لا يُدَمِّ ولا يتعارض مع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]،

هذا فرح بالدين، فرح بنعمة الدين؛ الإيمان؛ التوحيد، ليس فرح أَشْر وبَطَر وتعال؛ وإنما فرح اغتباط بنعمة الله - سبحانه وتعالى - وسعادة بها.

قال: «الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]»، وهذا الفرح يُبَاشِر القلب عندما يَعِي المسلم ويستحضر هذه الأمور الذي مَهَّد بها الشيخ وقَدَّمها، أما من لا يَعِي تلك الأمور لا يُبَاشِر هذا الفرح قلبه، ولا يُخَالِط قلبه؛ لكنَّ من وَعَى هذه الأمور وفهمها ودخلت قلبه وضبطها ثم نظر إلى واقع كثيرٍ من الناس وأكثر الناس وجدهم في جهلٍ بهذا الأمر وعدم علمٍ به يفرح من جهة منهُ الله عليه - سبحانه وتعالى - بأن جعله من هؤلاء الذين هُذِّوا للطريق القويم والجادة السَّوِيَّة؛ دين الله -تبارك وتعالى- الذي رضيهِ الله لعباده.

أرأيت لو أَنَّ مُجْتَمَعًا من المجتمعات تعيش أنت فيه سرى فيهم مرضٌ فتاك وأضرَّ بهم ضرراً بالغاً وأصبح أكثر الناس طريحي الفراش ويُعانون أنواع الآلام والأسقام من ذلك المرض، ونظرت إلى الناس وإذا بأكثر الناس أَلَمَّ بهم هذا المرض وأضرَّ بهم؛ ثم وجدتكَ في عافية، وجدت أنك عَفِيت وَسَلِمْتَ ولم تُصَب من هذا المرض بشيء ولم تتلوث منه بشيء فتدرك نعمة الله -تبارك وتعالى- عليك، ولهذا يقولون: «بِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ»، ربما لا تشعر بقيمة الصحة التي تتمتع بها؛ لكنك إذا رأيت المرضى في المستشفيات وأنواع المعاناة التي يُعانون بها تُحس بقيمة الصحة، فقد لا تُحس بقيمة النور وأنت كل ليلةٍ تقرأ كتابك في إضاءةٍ جيدة؛ لكن لو طَفَاءَ النور عنك ليلة وأحببت أن تقرأ كتابك كعادتك تُحس حينئذٍ

بقيمة النور، ولهذا نبّه الشيخ على هذا المعنى بقوله: وعرفت حال كثيرٍ من الناس، بعد أن تعرف هذا الخير وهذا الفضل بأدلته وبراهينه؛ تعرف حال أغلب الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر؛ فتفرح فرحاً عظيماً بأن الله -عزّ وجلّ- صرف عنك هذه الشرور، وهذاك لهذا الخير، وله المَنُّ وله الفضل -جل وعلا-، وله الحمد أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا، نحمده -سبحانه- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربنا ويرضى، ونسأله -جل وعلا- أن يثبتنا على دينه.

قال: «وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ»، تفرح وفي الوقت نفسه تخاف، «وَأَفَادَكَ أَيْضًا» هذه الفائدة الثانية، «الْخَوْفَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ...»، «أَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ» أي: الخوف على هذا الشيء الثمين الذي فزت به ونلتَهُ وأكرمك الله -عزّ وجلّ- بالظفر به وصرت من أهله؛ فأصبحت تُحس أن معك كنزٌ هو أثمن كنز، فيبدأ مع الفرح الذي يُبَاشِرُ قلبك أيضًا يكون معك خوفٌ على هذا الكنز أن يذهب؛ ألا يبقى؛ أن يتبدّل، والخوف من الشرك من المطالب التي دلّت عليها النصوص، وأرشدت إليها الأدلة، وفي «كتاب التوحيد» للشيخ -رحمه الله- بابٌ عنوانه «الخوف من الشرك»، أورد فيه قول إمام الحنفاء إبراهيم الخليل الذي حطّم الأصنام بيده وكسرها بيده قوله في دعائه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللهُ: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم؟!»^(١).

عن شَهْرَبْنِ حَوْشِبٍ قَالَ: قُلْتُ لَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/١٧).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَأَكْثَرَ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟
قَالَتْ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَ»^(١).

فإذا أكرم الله - سبحانه وتعالى - عبده ومنَّ عليه بمعرفة التوحيد ومعرفة براهينه ودلائله ومعرفة حال الناس وأكثر الناس وإنصرفهم عنه يُفيدة هذا الفرح ويُفيدة أيضاً الخوف العظيم، «الْخَوْفُ الْعَظِيمُ»: أي على توحيده وعلى إيمانه أن يذهب؛ أن يتغير؛ أن يتبدل؛ أن يُتلى - والعياذ بالله - بشبهاتٍ تخذش توحيده، أو تنقص توحيده، وهي كثيرة جداً في الحياة الدنيا، الشبهات كثيرة؛ الصارفة عن التوحيد والصَّادة عنه، وخاصة في زماننا، مع وسائل الانفتاح الكثيرة التي حصلت، مثل وسائل الاتصال ومواقع التواصل، فكثرت الشبهات على الناس؛ مع قلة علمهم بالتوحيد، وقلة فهمهم له، وقلة بصائرهم بدلائله وبراهينه، وجاءتهم شُبُه جارفة، فهنا يُقال بشكل أكبر ما قيل قديماً: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!»^(٢)، الصوارف كثيرة ولا عاصم منها إلا الله - سبحانه وتعالى -، ولا مُنجي منها إلا الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَقَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وَلَا تَجْعَلُوْا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٧٢/٣).

[الذاريات: ٥٠-٥١]، فيكون الإنسان خائفاً على توحيده وعلى إيمانه، وإذا وُجِدَ عنده هذا الخوف على توحيده فإنه لا يصنع صنيع كثير من الناس الذي عنده من أسهل ما يكون أن يُخاطرَ بدينه، فيجعل دينه على خطر، وذلك من خلال عدم مبالاته؛ بالسماع لكل أحد؛ ومشاهدة كل شيء؛ والتنقل في المواقع والقنوات ولا يُبالي، وهذه مُخاطرة بالدين، قد قيل قديماً: «إن كنت مخاطراً بشيء فلا تُخاطرَ بدينك»، فدينك أغلى شيء عندك، وأثمن شيء عندك، ومن كان خائفاً على دينه من الذهاب أو التغير أو التبديل لا يُخاطر به، كيف يُخاطر بدينه من عرف قيمته؟! وعرف مكانته وذاق طعمه وحلاوته وفرح به واعتبط، «دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء؛ فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالوا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»^(١).

أي: تبقى تتردد في نفسي الشبهة إلى أن أموت وما خَرَجْتُ، شبهة واحدة!، وهو الإمام الجليل، ثم ترى الأحداث وصغار الأسنان وقليلي العلم والجهال بدين الله يُخاطرون بدينهم ويسمعون لكل أحد!، ويسمعون لكل ناعق!؛ ولهذا تُبتلى كثير من القلوب برُكَّامٍ من الشبهات؛ ورُكَّامٍ من الوسوس والشكوك، والسبب أن صاحبها خاطر بنفسه!، وفتح قلبه لكل أحد يُلقى فيه من الشبهات ما شاء!.

الشاهد: أن مَنْ عرف قيمة الدين والتوحيد وفضل الله - سبحانه وتعالى - عليه

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٤٢)، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٥٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٠).

به وهدايته له وانصراف أكثر الناس عنه وجهلهم به يفرح به فرحاً عظيماً وفي الوقت نفسه يُخاف عليه، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ كَنْزٌ ثَمِينٌ يَخَافُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي حَيَاتِهِ فِي مُجَاهَدَةٍ بَبَقَاءِ هَذَا الْكَنْزِ وَعَدَمِ ذَهَابِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الْأَسْبَابِ؛ بَلْ يَلْتَفِتْ قَلْبُهُ وَيَعْتَمِدْ وَيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -؛ لِأَنَّ التَّثْبِيتَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالتَّوْفِيقَ بِيَدِ اللَّهِ، وَقُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ صَادِقاً أَنْ يُثَبِّتَ قَلْبَهُ وَأَلَّا يُزَيِّغَهُ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))؛ كَانَ هَذَا أَكْثَرَ دَعَاءِ نَبِينَا ﷺ، وَجَاءَ فِي وَجَاءٍ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(١) أَنْ نَبِينَا ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»، فَيَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَيُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ، وَبِذَلِكَ الْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: ((أَحْرِضْ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ))^(٢)؛ كَمَا قَالَ ﷺ: ((اعْمَلُوا فِكْلاً مُيسَّرَ لِمَا خُلِقَ لَهُ))^(٣)؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قال: «فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ»، وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَبِينُ

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»^(١)، إذا عرفت ذلك، وعرفت خطورته، وأنه يهوي بالإنسان إلى النار، وربما كلمة قالها الإنسان بلسانه هَوَى بها في النار سبعين خريفاً - والعياذ بالله -، وأدرك خطورة هذا الأمر؛ يبدأ الخوف يزيد عنده من المُخاطرة بالدين والمسارة أو الوقوع في الكلمات التي تخدش في التوحيد أو تُنقصه أو تُناقضه.

قال: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ»، «يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ»: أي: لا يدري ما تبلغ به الكلمة، أو أنها لا تصل به إلى هذا الموصِل أو هذا الأمر أو هذا القعر من النار أو هذا القدر من العقوبة، قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِجَهْلِهِ»؛ وذلك لكونه مُفَرِّطاً؛ مُهْمِلاً؛ مُضَيَّعاً؛ غير مُبَالٍ بدينه؛ ولا مُهْتَمٍّ به؛ ومُخَاطِرٍ؛ ومُعْرِضٍ.

قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ»، أليس المشركون حالهم قامت على هذا الظن؟! ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ما قالوا نحن عبدناها لتدخلنا النار! ولنذوق بها عذاب الله وعقوبته! ولنصلى ناره! ولنحظى بسخطه علينا!؛ ما قالوا ذلك؟!، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، نحن مُرادنا بهذه العبادة وبهذا الدعاء وبهذا الإلتجاء للأصنام من أجل أن تُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ!، قد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون.

«خُصُوصاً إِنَّ أَلَهْمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

أَتَوْهُ قَائِلِينَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨]، إذا تذكرت مثل هذا القصص فإنها تزيد الخوف عندك، إذا تذكرت مثل هذه القصص تزيد؛ ولهذا قال الشيخ: «خُصُوصًا إِنَّ آلِهَمَكَ اللَّهُ»: يعني عرفت واستحضرت وفهمت، «مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ» كانوا أهل صلاح وعلم، وكانوا مَصُومًا مع موسى ﷺ وصبروا على البلوى معه، «أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ» بعد أن مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مروا على قوم عندهم أصنام وهم عاكفون عليها فنظروا إليهم ومروا بهم فجاءوا إلى موسى ﷺ يُطالبون: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، كانوا أهل صلاح وأهل علم وعرفهم التوحيد وشرحه لهم وبينه لهم ويمشون مع نبي!، ثم مروا بأصنام عليها قوم عاكفون فأعجبهم هذا الأمر!؛ ولهذا طالبوا قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، مثل هذا حُذْثاء الإسلام في قصة حديث أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْرٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ - (سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكُبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(١)، ولعلك هنا تدرك أن المرور على عبَاد الأصنام والأوثان والأضرحة والقباب قد يؤثر على الإنسان الذي عنده شيء من العلم بالتوحيد، وقد يؤثر عليه ويلوث قلبه ويدخل عليه شيئًا من الشبهة، وهكذا الحال فيمن يمر من خلال المواقع الانترنت والقنوات الفضائية على مثل هذه الأعمال والصنائع،

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

وربما زُخرف الأمر وزُيِّن وأظهرت المحاسن والثمار المُدَّعات فينصرف قلب الإنسان عن التوحيد إلى مثل هذه الأعمال الشركية والعياذ بالله، وكم من إنسان حصل له مثل ذلك أو شيء منه بسبب مثل هذه المخاطرة؛ ولهذا يجب على كل إنسان ناصح لنفسه أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن يغلق على نفسه باب خطورة القنوات ومواقع الانترنت على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وأن يكون من ذلك على حيلة وحذر، قال: «فَحَيْثُ يَعْظُمُ خَوْفُكَ» إذا استحضرت مثل هذه الأمور «يَعْظُمُ خَوْفُكَ» أي: على توحيدك وعلى إيمانك، قال: «وَحِرْصُكَ» أي: يعظم حرصك؛ لأنه كلما زاد الخوف على الشيء الثمين زاد الحرص عليه، وكلما رَخِصَتْ قيمة الشيء الثمين في نفس الإنسان قلَّ حرصه عليه، قال: «يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ»، وهنا ينبه الشيخ أنك لا تكتفي بمجرد الخوف؛ بل ينبغي أن يكون لهذا الخوف ثمرة وهي: الحرص، وينبغي أن يكون لهذا الحرص ثمرة وهي: بذل الأسباب في كل ما يخلصك من هذه الأمور وينجيك منها؛ ولهذا أقول: ينبغي عليك أن يكون أحرص ما ينبغي أن تحرص عليه في هذه الدنيا التوحيد، وأخوف ما ينبغي أن تخاف منه في هذه الحياة الدنيا الشرك، فليكن التوحيد أعظم أمر تحرص عليه، وليكن الشرك أعظم أمر تخاف منه؛ لأن صلاحك في دنياك وأخراك في التوحيد، وخسران الإنسان في دنياه وأخراه: الشرك بالله، قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الإنفطار: ١٤-١٣] أي: في دورهم الثلاثة في الدنيا والقبر ويوم القيامة^(١).

(١) كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط؛ بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار

[المتن]

قال: «وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ.»

[الشرح]

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً»، وهذه مسألة مهمة وعظيمة في هذا الباب ينبغي على طالب العلم وطالب الهدى والحق أن يَعِيَهَا وَأَنْ يَفْهَمَهَا، لم يبعث الله نبيًّا في هذا التوحيد إلا جعل له أعداءً، ليس جَعَلَ الأعداءَ للأنبياء من هَوَانِ الأنبياء عند الله؛ ولكن لِيَتَلَيَّ أنبياءه ولتعلوا مقاماتهم عند الله -ﷻ- وترتفع درجاتهم بصبرهم على دين الله وصبرهم على الدعوة إلى توحيده ومكابدتهم في هذا الأمر، وبذلهم الجهود المتواصلة والتضحيات البالغة والجهد العظيم في نصرة التوحيد وحماية حماه والسعي في نشره، ورد الشرك بما يكون لهم علو المرتبة ورفعة الدرجة وعلو المنزلة.

الله -ﷻ- ابتلاهم بتسليط الأعداء عليهم من أجل رفعة درجاتهم عند الله وذلك بالصبر والمصابرة؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾

الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهو لاء في نعيم، وهو لاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب؟» «الجواب الكافي» (ص ٥١).

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يَنْبَغِي عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً، وَكَلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَعَ لَهُمْ وَأَلْزَمَ لَطَرِيْقَهُمْ أَصِيبَ مِنْ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ بِقَرِيبٍ مِمَّا أَصِيبَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَأَعْظَمَ النَّاسُ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ.

قال: «كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]»، قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ هذا فيه أن ما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء، من هم أعداؤه؟ قال رب العالمين: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال بعض أهل العلم: «قُدِّمَ ذِكْرُ شَيْطَانِ الْإِنْسِ عَلَى شَيْطَانِ الْجِنِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ لِأَنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ يَأْتِي بِهَيْئَةٍ وَاضِحَةٍ بِهَيْئَةٍ ظَاهِرَةٍ هَيْئَةُ النَّاصِحِ الْمَشْفُقِ الْمُحِبِّ لِلْإِنْسَانِ الْخَيْرِ، مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا لَانْخِدَاعِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ»، أليس فرعون قال لقومه وهو الذي يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؟، أليس قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؟، حتى إن أحد الوُعَاظِ ذَكَرَ أَنَّهُ عَلِقَتْ فِي ذَهْنِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقال للناس وهو يعظهم: «لا أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!»: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، عَلِقَتْ فِي ذَهْنِهِ وَرَوَدَهَا فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ كَلِمَةٌ جَمِيلَةٌ وَلَا يَقُولُهَا إِلَّا إِنْسَانٌ صَالِحٌ نَاصِحٌ؛ لَكِنَّهُ نَسِيَ وَهُوَ يُورِدُهَا لِلنَّاسِ أَنَّهَا مِنْ قَوْلِ الطَّاعِيَةِ فَرَعُونَ!، يَذْكُرُ أَنَّهَا فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا

سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿[غافر: ٢٩]، من الذي يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿إلا الإنسان الصالح الناصح، ولهذا هذا الواعظ علق في ذهنه ورودها في القرآن فقال للناس في موعظته لهم: «ما أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!»: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾»، فشياطين الإنس يأتون بمثل هذه الهيئة، ولهذا قال الله عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، يستخف الناس بمثل هذه الكلمات؛ بمثل هذه الألفاظ؛ بمثل هذه الزخرفة - كما سيأتي في تمام الآية - قال: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]» هذه بضاعتهم؛ بضاعة مُبْطِلَةٌ في كل زمان وأوان الزخرفة؛ زخرفة الباطل، والزخرفة هي تزيين الشيء وتنميقه وهي إظهاره بالصورة الجميلة، وزخرفة الباطل: بأن يُظْهَرَ للناس في صورة الحق وبالصورة الطيبة الجميلة.

قال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿أي: الذي يَغُرُّ الإنسان ويوقعه في الهلكة بسبب ما احتَفَّ به من تزيين وزخرفة وتنميق وتجميل؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص على الحق وأن يحذر من الباطل وإن زخرفه المبطلون.



[المتن]

قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿فَلَمَّا جَاءَ تَهُمُّ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]».

[الشرح]

قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ»، وهذه أيضاً مسألة ينبه عليها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مهمة، فقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، فليس من الضروري أن تلقى في من يعادي التوحيد أناساً لا علم عندهم؛ بل ربما تلقى من يعادي التوحيد من هو صاحب علم: إما علم باللغة وأساليبها ودراية وعلماً بها أو بالبلاغة والفصاحة وما إلى ذلك، أو يكون عنده علوم عصرية وأمور من ظاهر الحياة الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أو يكون عنده شيء من العلم الذي جاء به المرسلين، كأن يكون عنده علم بالقرآن أو علم ببعض الأحاديث؛ ولكنه ليس من أهلها؛ وإنما حفظها وقرأها ودرسها ليُشَبِّهَ على أهلها، حتى قيل في بعض المستشرقين أنه من شدة حرصه على التلبس على أهل الإيمان حفظ القرآن! حتى يكون مستحضرًا له ويحاول أن يثير على طريقة أهل الزيغ كما ستأتي الآية عند المصنف: «﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾» [آل عمران: ٧]» ولهذا ينبه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على ذلك يقول: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ» - مثل ما أشرت إليه - إما: علم اللغة، أو علم أمور ظاهرة من هذه الحياة الدنيا، أو أيضاً علم بأشياء من الوحي يتعلمها من أجل أن يلبس على الناس أو يشكك الناس في دينهم، «عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ»، أحد

السلف يقول في الحذير من صاحب البدعة يقول: «لَا تُجَالِسْ ذَا بِدْعَةٍ، فَيَمْرُضَ قَلْبَكَ، وَلَا تُجَالِسْ مَفْتُونًا، فَإِنَّهُ مُلَقِّنٌ حُجَّتَهُ»^(١).

بمعني أنه يأتي مُحَمَّلًا بالشبهات العاصفة والشبهات الجارفة، فقد يأتي ومعه شيء من الكتب أو العلوم أو الحُجَج التي يُدلي بها؛ ولكن هذه التي يحملها هؤلاء في ميزان التحقيق وعند أهل البصيرة في دين الله والرسوخ حقيقتها: ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]؛ ولكنها عند الجهال وقليلي العلم قد تُخْلِل وتُلَبِّس وتُحَرِّف وتُغَيِّر وتُبَدِّل.

قال - رحمه الله -: «كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]»، وهذا هو الشاهد من الآية: ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي عندهم علم!، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، قد يكون عنده علم يُجادل به ويُحَاج ويُخَاصِم.



(١) رواه ابن بطّة في «الإبانة» (٣٩١).

[المتن]

قال: «إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سَلَاَحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدِّمُهُمْ لِرَبِّكَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦ ثُمَّ لَا تَتِينَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ١٧ [الأعراف: ١٦-١٧]؛ وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَضْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فَجُنْدُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ.

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

قال -رحمه الله-: «إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ» أي: ما قدَّم الشيخ -رحمه الله- ذكره وتقريره، «وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ

فَصَاحَةٌ وَعِلْمٌ وَحُبٌّ»، نعود إلى المثال السابق الذي أشرت إليه قريباً: لو كان بيدك كنز ثمين جداً وأنت تمشي بهذا الكنز وتعلم أن الطريق الذي تسير فيه وتحمل هذا الكنز فيه أعداء كثيرون، وكل واحد منهم يريد أن ينهبه منك وأن يخطفه منك وأن لا يبقيه في يدك لحظة!، تمشي وأنت مخاطر بها وإلا تكون شديد الحرص؟، فتوحيد الإنسان أثنى شيء، وأمامه أعداء كثر يريدون خطف هذا التوحيد منه؛ بل قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: «وإذا أردت لذلك مثالا مطابقا: فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك وبينه لحم أو خبز وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك فأنت تزجره وتصيح عليه وهوي يأبى إلا التحوم عليك والغارة على ما بين يديك فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فراك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر»^(١)، والأعداء الذين يريدون خطف التوحيد من الإنسان منهم: أعداء ظاهرون، وأعداء أخفياء، كما قال بعض السلف: «عدو يراك ولا تراه شديد المؤنة» أي الشيطان، فإذا عرف الإنسان أن هناك أعداء يمكرون به وقاعدون له في طريقه، قال ﷺ: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ))^(٢)، قاعدٌ لهم في طريقه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٢٦٢).

(٢) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

جَزْؤُا الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

قال: «وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ»، العدو إذا كان مدجج بالسلاح أخطر من العدو الذي ليس معه سلاح، إذا كان عدوك الذي يريد خطف الإيمان منك والتوحيد صاحب فصاحة وعلم وحجج فإن هذا أخطر من الإنسان العادي الذي لا علم عنده ولا حجة، والناس يخافون من العدو المحمل بالسلاح أكثر من خوفهم من العدو الذي لا سلاح معه فهذا مما يزيد الحذر والحيطة، قال: «أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ».

ثم قال - رحمه الله تعالى - ناصحًا ومحذرًا قال: «فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ»، هذه نصيحة عظيمة جداً من هذا الإمام - رحمه الله تعالى -: «أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ»؛ لكن إذا مشيت بدون سلاح فأنت على خطر، لاسيما أن طريقك مليء بالأعداء، وسلاحك الذي يشير إليه الشيخ هنا: العلم، العلم: قال الله قال رسوله، تعرف التوحيد وأن تفهمه أن تحفظ أدلته وأن تعتني بدراسته، ودَعَاَ ممن يهونون من شأن التوحيد ومن دروس التوحيد، دَعَاَ منهم، أعط من وقتك التوحيد الشيء الكثير، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ ﴿سُورَةِ الْبَقَرَةِ﴾ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»^(١)، قراءتك للآيتين من ﴿سورة البقرة﴾ ولاسيما الآية الأولى منهما تجديد للإيمان، استذكَّارًا له كل ليلة، قراءتك ﴿آية الكرسي﴾ مرات وكرات هذا تجديد للإيمان والتوحيد، فلا يزال المسلم يجدد إيمانه ويجدد توحيده.

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت: أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا»^(١)، فيحتاج الإنسان إلى تجديد إيمانه والسعي في تحقيق توحيده وتكميله وتقويته، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(٢).

والشيخ رحمه الله ينصحك أن تكون ذا عناية عظيمة جدًا بأمر التوحيد والفقه فيه، وقد جاء في «الصحيحين» من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٣)، وقوله ﷺ: ((فِي الدِّينِ)) يشمل الفقه في التوحيد الذي هو الفقه الأكبر والفقه أيضًا في الأحكام، قال: «فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ» أي: شياطين الإنس والجن الذين مرَّ الإشارة إليهم في الآية، «الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ -عَزَّ وَجَلَّ- : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾»^(٤) ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٤).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٠).

ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة لطيفة بعنوان: «تجديد الإيمان».

(٣) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وتأمل هنا قول عدو الله الذي ذكره الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو أين يقعد وأين يحرص في قعوده؟ في الصراط المستقيم، ولهذا قيل لابن عباس -رضي الله عنه-: أن اليهود تزعم أن الشياطين لا توسوس لهم في صلاتهم، لا تأتيتهم وسوس في صلاتهم!، فقال -رضي الله عنه-: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟!»، فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإذا كان الإنسان ماضياً على الصراط أو تائباً مقبلاً على الصراط مثل: الكافر يريد أن يسلم أو العاصي يريد أن يتوب؛ يقعد له ليثنيه عن الدخول فيه إن كان يريد الدخول أو ليثنيه عن الاستمرار فيه إن كان من أهله.

قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ... ﴿١٧﴾ وهذا فيه أن مجيئ الشيطان للإنسان ودخوله عليه من كل جهاته، فأنت على خطر من جميع الجهات، وينبغي أن تكون على حذر وحيطة في كل الأوقات، عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَوْلَاءَ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^(٢)، قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ وهذا فيه أن أكثر الناس يكونون صرعى لمكر الشيطان وكيده ووساوسه، ويسلم

(١) ذكره الإمام ابن القيم -رحمته الله- في «الوابل الصيب» (ص ٤٠).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٢١).

منهم القليل ممن كتب الله - تبارك وتعالى - لهم السلامة وكتب لهم النجاة، جعلنا جميعاً منهم.

قال: «وَلَكِنْ» واسمع هذه الوصية العظيمة: «وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»، «إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» بقلبك وقالبك صادقاً مع ربك - سبحانه وتعالى - ترجو رحمته وتخاف عذابه وتسلم أمرك إليه وتفوض أمرك إليه وترجو نجاتك وسلامتك منه - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

«إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» - سبحانه وتعالى - صادقاً «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ» جمع لك في هذه الوصية - رحمه الله - في قوله: «أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ» جمع لك ما جاء في قوله: ((أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْزُ))^(١)، «أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» أي مستعيناً به متوكلاً عليه ملتجئاً إليه طالباً مده وعونه وهدايته وتوفيقه، «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ» أي: بذلت الأسباب التي هي تعلم العلم الشرعي ودراسة العلم الشرعي والفقه في دين الله وملازمة القرآن والسنة علماً وتعلماً تلاوةً واستذكاًراً ومدارسةً، «فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ» الخوف والحزن إذا جُمعا فإن: الحزن يتعلق بالشيء الماضي، والخوف يتعلق بالشيء المستقبل، فأنت إذا كنت على هذا الطريق ماضياً مستعيناً بالله - ﷻ - ومقبلاً على حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، وهذا هو شأن أهل الاستقامة الذين نُفِيَ عنهم الخوف والحزن في آيتين من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿[الأحقاف: ١٣]، إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] أي: أن أهل الإقبال على الله وحسن الالتجاء إليه وملازمة كتابه وسنة نبيه - ﷺ - لا سبيل للشيطان عليهم، ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أُسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهمْ وَمَا يَعِدْهمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [٦٤] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [٦٥] [الإسراء: ٦٤-٦٥].

قال: «وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوحِدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفُ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ»، «الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوحِدِينَ» الذي عرف التوحيد ولزمه «يَغْلِبُ الْأَلْفُ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ»، قد كانوا قديماً يلقنون العوام في المساجد التوحيد، ويلتزم إمام المسجد تلقين العوام توحيد الله، يلقنونهم التوحيد بحيث أن الإمام في كثير من الصلوات يسأل، يلتفت إلى أحدهم يقول: «اقرأ الدين»، فيبدأ يقرأ، يلقنونه، وإذا وجدوه غير حافظٍ يُعاودونه، كانوا يحفظونهم هذا في الصغر، يحفظونه العوام، فتجد أمور الدين؛ الأصول الثابتة التي جمعها الشيخ -رحمة الله عليه- في كتاب سماه: (ثلاثة الأصول)، وكتبها بعدة صيغ: صيغة للأطفال وصيغة للعوام وصيغة لطلبة العلم، حتى إن الصيغة التي كتبها للعوام كتبها باللفظة العامية: «إِذَا قِيلَ لَكَ وَشْ رَبِّكَ؟ قل: رَبِّيَ اللهُ» بهذ الصيغة مكتوبة، ويحفظونها العوام؛ لكنهم يفهمون الدين، والذي حفظه في الصغر يكون في عمره الكبير ضابطاً له.

جَدِّي -رحمة الله عليه- كنت عنده قبل وفاته بأكثر من شهر، فقال: «الطواغيت

كثيرون» وهو كبير في فراشه في فراش المرض، قال: «الطواغيت كثيرون - لا أكثرهم الله - ورؤوسهم خمسة: أولهم إبليس - عليه لعنة الله -، وثانيهم كذا وبدأ يعد، قال لي الخامس: نسيت، ذكرني إياه»، قلت له: «من عُبد من دون الله وهو راضٍ»، قال: «نعم، هذا طاغوت مُدَلِّدٌ»، طاغوت مدلدل يعني مكشوف، الشيء المدلدل: مكشوف من جميع الجهات واضح للناس من جميع الجهات، الحفظ هذا الذي في الصغر وتلقينه للعوام وغيرهم يبقى معه حتى وهو كبير، حتى إذا خُرف وكَبُر تبقى هذه المحفوظات معه دين ثابت، دين ثابت يبقى معه؛ لكن إذا كان مُهْمَلًا لا يَعْلَم ولا يُلَقِّن ولا يُدَرِّس تجد قلبه خاويًا من هذه الأشياء وفارغا منها، بينما إذا حُفِّظَ لها وَلُقِّنَ إياها وضبطها فمثل هؤلاء العوام - بإذن الله - يُحَفِّظُونَ بحفظ الله - تبارك وتعالى - من ضلالات المشركين؛ لأن معه دين يحفظه ويضبطه من صغره، ثابت عنده لا يُساوَم فيه ولا يُنَازَع؛ فأَيُّ أشياء ثابتة يحفظها ويحفظ شيء من أدلتها ولا يُنَازَع فيها، يمشي عليها حياته كلها.

فهنا يقول: «**الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ**» العوام الذين حفظوا الدين بتوفيق الله - ﷻ - وضبطوه وأصبح دينًا ثابتًا عندهم لا يُساوَمون عليه، إذا جاءه أحد من علماء المشركين ويُزِين له عبادة قبر أو توجهاً إلى ضريح، يقول له: «هذا من الطواغيت: من عُبد من دون الله وهو راضٍ، العبادة لله»؛ لكن إذا كان جاهلاً وَلُبَّسَ عليه ببعض الشبهات حرفته - والعياذ بالله - عن دين الله - ﷻ -.

قال: «**وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا**

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [الصافات: ١٧٣] وهنا ينبغي أن يلاحظ أيضاً تأييد الله لعبده المؤمن ونصره له من كان صادقاً في إيمانه وفي توحيده وفي عقيدته، فإنه يحظى - بإذن الله تبارك وتعالى - بتأييد الله له وحفظه له ونصره، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، فيؤيده الله وينصره ويحفظه، قال: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]؛ لأن وليهم الله، وأعداء الدين وليهم الشيطان، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطَاعُوا يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن كان الله وليه كفاه وأيده ونصره ووقاه.

قال: «فَجُنِدُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّانِ»؛ لأن معهم نصر الله وتأييد الله - ﷻ - وحفظه - سبحانه -.

قال مُحَذَّرًا - رحمه الله تعالى - : «وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ»، إذا العامي إذا حَفِظَ الدين ولو شيء مختصر مثل: (الأصول الثلاثة) التي كتبها - رحمه الله عليه - بلهجة مبسطة وبكلمات مختصرة، إذا حَفِظَ وكرّرت معه وأصبحت ثابتة عنده معها شيء من الأدلة - فإذن الله تبارك وتعالى - تكون سبب لحفظه وسلامته، «وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ» فهذا فيه تحذير من التخلي عن العلم الذي هو السلاح، «وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، ونلاحظ هنا ملاحظة مهمة جداً: خصوم الشيخ - رحمه الله - وأعداؤه يزعمون ويدّعون كثيراً أنه جاء بدين خامس وبمذهب جديد واخترع إلى آخره، ونحن

نلاحظ الشيخ -رحمة الله عليه- في كل كتاباته لم يربط الناس بشيء اخترعه، ولم يربطهم بشيء أنشأه؛ وإنما كل ربطه لهم بالكتاب والسنة، الآن لما أكد على مسألة السلاح وأن الإنسان معه يكون سلاح، رأساً ربط بالقرآن، ليكون معك سلاح، ما قال: «حافظ على مبادئنا -مثل بعض الطرق-، ولا تضع كلام أسياننا، ولا تخرج عن (رسومنا)» إلى آخره هكذا يقول دعاة البدع، ما قال ذلك؛ لأنه ليس عنده شيء أنشأه هو، أما أولئك الأشياء التي عندهم هم أنشئوها أو أسيانهم؛ ولهذا وصاياهم ربط برسومهم وطرائقهم وأسيانهم ومبادئهم إلى غير ذلك، فالشيخ هنا لما أوصى بحمل السلاح، لو كان يحمل مبدئاً أو يحمل أمراً هو أنشأه أو اخترعه لقال في مثل هذا الموضع لما أوصى بحمل السلاح أوصى به؛ لكن قال: «وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا -لما أوصى بالسلاح- بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، أي: فحافظ على كتاب الله وحافظ على سنته نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولهذا رأيت في هذا الكتاب وفي عامة كتبه لا يذكر شيئاً إلا ويَتَّبِعُهُ بِالْآيَةِ وَالْحَدِيثِ.

قال: «فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا»، وهذا قاعدة وتأسيس من هذا العالم المبارك: «لَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا»، ما هناك شبهة تُثار يُناقض بها التوحيد أو يُشَوِّش بها على أهل التوحيد إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها؛ لكن هل كل أحد يستحضر ذلك؟ حتى في الأشياء الواضحة، لا فقد لا يستحضرها الإنسان.

أضرب لكم مثلاً: لقيت بعض الطلبة قديماً قبل أكثر من عشر سنوات في

الجمهوريات الإسلامية؛ إذ ربيجان والمناطق التي هناك، فكنتم معهم في بعض الدروس فذكرت لهم فائدة وقفت عليها في كتاب (الحُجَّة) للتمي؛ وهي «قيل: إن بعض الملحدة قال يوماً: أنا أخلق، فقيل: فأرنا خلقك فأخذ لحمًا فشرحه، ثم جعل بينه روثًا ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلى من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً فقال: هذا خلقي، فقال له بعض من حضر: فكم عدده، فلم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث. وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء فقال له: الخالق الذي أحصى كل ما خلق عدداً وعرف الذكر والأنثى ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره»^(١)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] هذا في القرآن، فالخالق يعلم، من لوازم الخلق أن يعلم بمخلوقاته، أما يخلق ولا يعلم ما يمكن!، فأبِن لنا ذلك؟ كم عدد مخلوقاتك؟ السؤال الأول، كم عدد الذكور من الإناث؟ كل واحدة من هذه الدود متى تموت؟ كل واحدة من هذه الدود ما هي أرزاقها وأقواتها؟ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾!.

وهذا موضع الشاهد: ذكرت هذه الفائدة في أحد الدروس، فجاءني أحد الطلبة يُعظِّم هذه الفائدة تعظيماً ما سمعته! تعظيم شديد، «سبحان الله ما أعظم هذا الكلام!» قال: «هذا أحد الشيوعيين فعله عندنا في الفصل!» يقول: «ونحن نعرف أنه خطأ؛ لكن ما نعرف هذا الكلام، ما هدينا لهذا، ثم يقول: «ليتني عرفت هذا الكلام حتى أقوله!»، إذا الحجة موجودة، فقد تكون تحفظ أنت الآية حفظاً متقناً؛ لكن ما يحضرك الاستدلال بها، ومعرفة دلالتها، لذلك يقول الشيخ: ﴿فَلَا يَأْنِي

(١) «الحجة في بيان المحجة» (ص ١٤٣).

صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا» و الشيخ لا يذكر شيئاً إلا بدليله، فقال: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]» ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحُجَّةٍ أو بشبهةٍ أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله -: «فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه»^(١)، وهذا كله في كتاب الله -ﷻ- قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجةٍ أو بشبهةٍ أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢).

فإذا القرآن الكريم كفيل بإبطال شبهات المبطلين وأضاليل المضلين، وهذا يقوله الشيخ -رحمه الله- لك حتى تعني بالقرآن، ليس المراد بالعناية بالقرآن: حفظ حروفه فقط؛ بل المراد مع الحفاظ الفهم؛ فهم معانيه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال أهل العلم: «لا يكون تالياً له حق التلاوة إلا بالحفظ والفهم والعمل»، بهذه الأمور الثلاثة.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٣٠).

(٢) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُتَجَمِّعاً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) [الفرقان: ٣٢، ٣٣]، ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغبي والرشاد، والحلال والحرام» «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٩٢).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فمثلاً: شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - التزم مع خصومه؛ ومع أعداء التوحيد وأعداء الإيمان أن لا يحتجوا على باطلهم بآية من القرآن إلا ويرد عليهم بالآية نفسها التي احتجوا بها!، وقال: «أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله»^(١)، أي: غير الآيات الأخرى الكثيرة!؛ لكن التزم التزاماً أن أي مُبطل يحتج بآية على باطله بآية من القرآن أن يرد عليه بالآية نفسها، وأن يبين بطلان ما هو عليه بالآية نفسها.

ومن تطبيقه العملي لهذا الأمر في صغره - رحمه الله - أنه لقي أحد المتصوفة، وقال ذاك المتصوف: «إن من أسماء الله (هُوَ)! هذا اسم من أسماء الله»، قال: «دليل ذلك في القرآن قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]»، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا مَا قَالَهُ: لِي مَرَّةً شَخْصٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغَالِطِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قَالَ الْمَعْنَى وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ (هُوَ أَيْ اسْمُ «هُوَ» الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: «هُوَ هُوَ» وَصَنَّفَ ابْنُ عَرَبٍ كِتَابًا فِي «الهُوَ» فَقُلْتُ لَهُ - وَأَنَا إِذْ ذَاكَ صَغِيرٌ جَدًّا - لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: لَكُنْتُ فِي الْمُضْحَفِ مَفْصُولَةً تَأْوِيلُ هُوَ وَلَمْ تُكْتَبْ مَوْصُولَةً وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالْاضْطِرَارِ، وَإِنَّمَا كَثِيرٌ مِنْ غَالِطِي الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مِثْلُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»^(٢)؛ لأن هذا رسمها، (هو): هكذا تُرْسَمُ: ها - واو، قال: «لو كان الأمر كما تقول لرسمت بالواو»، فأبطل قوله بالآية نفسها، وهو ملتزم - رحمه الله - هذا الإلتزام أنه لا يستدل مبطل على باطله

(١) نفعه عنه تلميذه الإمام ابن القيم في كتابه «الروح» (ص ٢٠٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٥٦٠).

بآية من القرآن إلا يُرد عليه بالآية نفسها، فضلاً عن الآيات الأخرى، ثم إنه فيما بعد التزم التزاماً آخر مع المتكلمين أنهم لا يحتاجون على باطلهم بحجة عقلية إلا ردّ عليهم باطلهم بالحجة نفسها، والتزم هذا الالتزام؛ لأن العقل الصحيح لا يدل إلا على حق، فإذا قالوا شيئاً يحتاجون عليه بالعقل يُبين لهم بالعقل من خلال الاحتجاج نفسه أنه أمرٌ باطل ولا يستقيم.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.»

ثم بعد ذلك دخل -رحمه الله تعالى- في أساس الموضوع بعد أن مهّد بهذه التمهيدات، دخل في أساس الموضوع وهو (كشف الشبهات).

وكان في طريقته -رحمه الله تعالى- في كشف الشبهات أن ذكر أولاً إجابة مُجملّة في رد كل شبهة، ثم ضرب أمثلة لبعض الشبه التفصيلية وأجاب عنها تفصيلاً، ويكون الكتاب -بإذن الله تبارك وتعالى- سلاحاً عظيماً لطالب العلم في باب الشبهات، ولا يكون هذا سلاحاً لك إلا إذا ضبطت هذه المقدمات التي انتهت ضبطاً مُتقناً وعرفتها وعرفت دلائلها، ثم عرفت الجواب المُجمل، وتضبطه ضبطاً جيداً، ثم بعد ذلك الأجوبة التفصيلية، وهذه كثيرة جداً قد لا يتهيأ لك العلم بكل التفاصيل؛ لكنك إذا أخذت أمثلة من التفاصيل وطريقة أهل العلم في الإجابة عليها تُصبح معك سلاح -بإذن الله تبارك وتعالى- تقطع به دابر كل مبطل، جعلكم الله أجمعين من أنصار دينه وحماة التوحيد.

[المتن]

قال: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا.

فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجْمَلٍ، ومفَصَّلٍ.

أما المَجْمَلُ: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

وقد صح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابهه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)).

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - بعد مقدماتٍ تمهيدية عظيمة صدرَ بها كتابه المبارك (كشف الشبهات)، بعد تلك المقدمات التي لا بد منها في هذا الباب شرع في مقصود الكتاب وهو كشف الشبهات، بأن يذكر الشبهة ويبيِّن ما يكشفها ويُعَرِّيها ويبيِّن زيفها ووهاءها، وأنها لا تقوم إلا على الباطل، ولا تفضي إلا إلى الباطل.

ولعلك أيها الأخ الموفق عرفتَ بتلك المقدمات التي بدأ بها الشيخ أن الجانب التأصيلي في طالب العلم - أعني فهمه للعقيدة ودلائلها وبراهينها من كتاب الله

-وعليه- ووضوح أمرها عنده- هو الأساس الذي لا بد منه، وإن لم يكن عند طالب العلم أصول ثابتة وأمور راسخة يقوم عليها دينه وإيمانه وتوحيده فإن الشبهات تؤثر عليه وتدخل عليه، وربما أثرت في نفسه؛ ولهذا كان كتاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- الذي عنوانه (كشف الشبهات).

ولعلك لو كنت تقرأ هذا الكتاب لأول مرة تتوقع أن مُصنّفه من أول ما يبدأ في كتابه يُعدد الشبهات ويوجب عليها، وتظن أن هذا الذي سيصادفك في الكتاب من أول وهلة؛ ولكنّ الشيخ -رحمة الله تعالى عليه- لحصافة علمه وحُسن نصحه وتمام بيانه وحسن درايته في هذا الباب العظيم ودخوله في المُعترك مع خصوم التوحيد وأعداء العقيدة؛ قرّر لك في بداية الكتاب جملةً من الأصول والقواعد والأسس التي لا بد من ضبطها، وكان يُنبّه -رحمة الله تعالى عليه- على أن هذه الأمور لا بد أن تعرفها معرفة قلب، ولعلك تنبهت لنصحه الذي تكرر معك فيما تقدم من كتابه -رحمه الله-، حيث يقول تارة: «إذا تحققت من ذلك»، وتارة يقول: «إذا عرفته معرفة قلبٍ» إلى غير ذلك من أنواع التأكيدات وصيغ العناية والإهتمام التي مرّت معنا في مقدمة هذا الكتاب، كل ذلكم يُؤكّد أن طالب العلم لا بد له في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل أن يكون على قدرٍ من الإلمام بأصول الدين وقواعده ودلائله؛ فيبدأ مؤصّلاً نفسه بفهم الحق وضبطه ومعرفة دلائله وحُججه وبراهينه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلةٍ أخرى تتعلق بكشف الشبهة وبيان عوارها، وعندما يدخل طالب العلم دخولاً أولياً في باب الشبهات والنظر فيها ومحاولة كشفها فإنّه يُضُرُّ بنفسه من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر!، وليست هذه هي

جادة أهل العلم.

ثم إنَّ الشيخ - رحمه الله - لمَّا بدأ بموضوع الكتاب ألا وهو (كشف الشبهات) ودخل في صميم الموضوع؛ بدأ بقوله هنا: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا» وهذا أيضاً من دقَّة الشيخ - رحمه الله -، فالاهتمام كما تلاحظ بـ«القرآن»، والاحتفاء بالقرآن وأدلة القرآن لا بالشبهات.

ولعلك تتصور والموضوع في كشف الشبهات أنه إذا بدأ في صميم الموضوع أن يقول لك: «وأنا أذكر لك بعض الشبهات وأذكر جوابها من القرآن» لم يقل ذلك، وهذا من دقَّة علمه وحسن التفاته إلى كتاب الله - ﷻ - واحتفائه بالأدلة وعنايته بها، ففرقٌ بين العبارتين، فرقٌ بين قوله - رحمه الله تعالى عليه - «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا». فرقٌ بين هذه العبارة وبين أن يقول القائل: «وأنا أذكر لك شبهاتٍ قالها المشركون في زماننا وأذكر لك أدلة من القرآن تكشف زيفها أو تُبين وهاءها»، فرقٌ بين العبارتين، والشيخ - رحمه الله تعالى عليه - لمَّا ذكر لك هذا البدء بهذا الأسلوب يُنبهك تنبيهاً في غاية الأهمية ألا وهو أن يكون اهتمامك من حيث الضبط والإتقان هو بالأجوبة التي هي من كتاب الله - ﷻ - وسنة نبيه - ﷺ -، فهذه التي عليك أن تعتني بضبطها وإتقانها والاهتمام بها، أما الشبهة إياك أن تحاول أن تُمكنها من قلبك؛ لأنها قد تتمكّن من القلب ولا تخرج، فإذا نظرت في الشبهة أو اضطرت إلى النظر في الشبهة لا تجعل قلبك يمتص الشبهة، ولهذا يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - «وقال

لي شيخ الاسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد: لاتجعل قلبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات، أو كما قال^(١)، ومن المعلوم أن الإسفنجة تشرب الماء وتمتصه ويكون الماء واصلاً إلى كل جزء من أجزائها، بينما المرآة تعكس الشيء ولا تمتصه ولا يصل إلى داخلها وإنما تعكسه عكساً مباشراً، فقال: اجعل قلبك للشبهة كالمرآة، ولا تجعل قلبك للشبهة كالإسفنجة.

وهذا البدء من الشيخ -رحمة الله عليه- هنا ينبهك إلى أن الاهتمام هو بضبط الأدلة، فأنت الآن وأنت تقرأ ما سيأتي اهتم من حيث الضبط والإتقان والعناية والاهتمام بالأدلة، وليكن نظرك لهذه الشبهات النظر السريع الذي تعرف وجه بطلانه؛ لأنك قد تحتاج يوماً من الأيام بأن تثار في مجلس تكون أنت حاضره أو في موطن أنت لك شأن فيه أو نحو ذلك فتحتاج إلى هذه الأجوبة.

قال: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه»، وتقديم الـ(كتاب) هنا من باب تقديم ما حقه التقديم وما حقه العناية والإهتمام، وهذا -كما قدّمت- من حصافة علمه وجميل نصحه وحسن بيانه -رحمه الله وغفر له وأسكنه الجنة-.

قال: «جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا»، الشيخ -رحمة الله عليه- لمّا انتدب -بعون الله ومدّه وتوفيقه- لنصرة التوحيد وبيانه تصدى له عباد القبور

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

وأهل الشرك والضلال وأخذوا يصفونه بالصفات ويتهمونه بالاتهامات ويثيرون حوله الدعايات المغرضة حتى لا يسمع له أحد، وهذه الطريقة التي صنعها أعداء التوحيد معه هي صنيع أعداء التوحيد وأعداء الأنبياء في قديم الزمان، فكانت طريقتهم إثارة الدعايات والاتهامات وإلقاء الكلام جُزأفاً.

نبينا ﷺ أفضل عباد الله أتتهم بأنه ساحر وبأنه كاهن وبأنه شاعر وبأنه مجنون، وكان الغرض من إثارة هذه الاتهامات حتى ينفض الناس عنه ولا يسمعوإلى كلامه، فالشيخ -رحمة الله عليه- في زمانه بُلي بأعداء كانوا يُشككون في دعوته ويثيرون شبهات حول أدلة التوحيد التي يُبرزها ويُبَيِّنُها ويدعو إليها -رحمة الله عليه-، وكان حصيلة دخوله هذا المُعترك والخصومة مع أعداء التوحيد والمناقشات والردود أن أعطاك هذه العُصارة والخلاصة العظيمة التي هي أعظم سلاحٍ لطالب العلم في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل؛ وذلك لأن الشبهات التي أجاب عنها الشيخ -رحمة الله عليه- بالأجوبة المُسددة في هذا الكتاب المبارك هي أبرز الشبهات التي أُثيرت ولا تزال تُثار من أهل البدع والأهواء.

وأريد أن أنبهك على أمرٍ ألا وهو أنك إذا ضبطت أجوبة الشيخ -رحمة الله عليه- الآتية، سواء منها الجواب المجمل وهو الأهم والأعظم، ثم الأجوبة التفصيلية، فإنه -بإذن الله تبارك وتعالى- سيكون ما بعد هذه الشبهات أمرها أيسر، وسيكون في الأجوبة التي تمر عليك تقعيدياً لك في رد كل شبهة -بإذن الله تبارك وتعالى-، أقول ذلك استدعاءً لاهتمامك بأجوبة الشيخ -رحمة الله عليه- المُسددة الآتية في هذا الكتاب المبارك.

قال - رحمه الله - : « فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجْمَلٍ، ومَفْصَلٍ، »

جواب أهل الباطل: أي فيما يُروونه من شبهاتٍ على التوحيد والدعوة إليه والتحذير من الشرك والخرافة والباطل؛ من طريقين: طريقٍ مجمل، وطريقٍ مفصل.

ويعني - رحمه الله - بالجواب المُجْمَل: ذكر تقعيدٍ عام وتأصيلٍ كليّ يفيدك في الجواب على أي شبهة تُثار ضد التوحيد، هذا هو الجواب المجمل؛ ولهذا أكّد الشيخ - رحمه الله - تأكيداً قوياً على ضبط الجواب المجمل والعناية به وحسن فهمه؛ لأنه بمثابة التأصيل العام والتقعيد الكليّ الذي إذا ضبطته فإنك - بإذن الله تبارك وتعالى - تستطيع أن تُجيب به على أي شبهة يُثيرها مُشرك.

بدأ بالجواب المجمل وأكّد على الاهتمام به لقوله: «فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها»، لمن عقلها، فمن عقل هذه الإجابة المُجْمَلَة التي تصلح جواباً لكل شبهة تُثار ضد التوحيد فهي الفائدة الكبيرة والعظيمة بالنسبة له.

قال: «وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]»، سيأتي تقرير الشيخ للجواب في ضوء هذه الآية؛ لكن أُبين أولاً شيئاً من معاني هذه الآية المباركة ودلالاتها، قال الله - ﷻ -: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قَسَمَ - تبارك وتعالى - دلالات آي الكتاب؛ أي القرآن إلى قسمين، قَسَمَ الأدلة السمعية إلى قسمين: مُحْكَم، ومُتَشَابِه.

فأخبر - ﷻ - أن كتابه القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾، والمراد بالإحكام

هنا: الوضوح؛ وضوح الدلالة وظهورها وبيانها وعدم خفائها، ﴿ءَايَتٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: بَيِّنَات واضحة جليّات دلالاتها ظاهرات، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأم الشيء أصله الذي عليه يُبنى وإليه يُرجع وعليه يُعوّل، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات المحكمات هنّ أم الكتاب، أي: هنّ الأصل وهنّ المرجع وعليهنّ المعوّل، قال: ﴿مِنْهُ ءَايَتٌ مُّحْكَمَةٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، والآيات المحكمات واجبتنا نحوها أن نؤمن بها وأنها من عند الله -عزّ وجلّ- وأن نفهمها ونعجّ دلالاتها وأن نعمل بها، هذا واجبتنا نحوها.

قال: ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ﴾، ﴿وَأُخْرُ﴾ أي: من آيات القرآن شأنها أنها متشابهة، والتشابه المراد به: خفاء المعنى وعدم ظهوره لكل أحد، هذا هو المراد بالتشابه هنا، أي: أن المعنى فيها ليس ظاهرًا بيّنًا؛ بل فيه شيء من الخفاء وعدم الظهور، ولهذا فإنّ المتشابه -تشابه المعنى- من آيات الكتاب لا يظهر معناه واضحًا إلا للراسخين في العلم الذين طريقتهم ومن رسوخهم في العلم ردّوا متشابه آي القرآن إلى مُحْكَمِهِ، لهذا قال الله -تبارك وتعالى- في تمام الآية: ﴿مِنْهُ ءَايَتٌ مُّحْكَمَةٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

والمراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على قول لأهل العلم وهو على قراءة الوصل في الآية: أي لا يعلم معناه وتفسيره إلا الله والراسخون في العلم؛ أي: أن الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه لرسوخهم في العلم، ولهذا جاء عن ابن

عباسٍ - رضي الله عنه - أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»^(١) أي: تأويل المتشابه، وعليه فإن قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ التشابه هنا في المعنى، وهو ليس تشابهاً مُطلقاً كلياً بحيث لا أحد يفهمه؛ حاشا أن يكون كلام الله - سبحانه - وتعالى - فيه طلاس لا تفهم وأمور لا يُدرى ما هي؛ بل المتشابه هنا هو التشابه النسبي وليس المُطلق في المعنى.

أما إذا أُريدَ بالتشابه من حيث الحقيقة وهذا في قول في تفسير الآية من حيث الحقيقة والكيفية فهو تشابه كلي لا يعلمه إلا الله، في كفيات الأمور المُغيبّة لا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى -، وهنا يلزم الوقف في القراءة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ تقف هنا، إذا كان المراد بالتشابه: التشابه من حيث الحقيقة والكيفية فهذا أمر لا يعلمها إلا الله.

أما من حيث المعنى؛ معاني القرآن فإن الآيات المتشابهات يعلم الراسخون في العلم معانيها، وقد قال مُجاهد رحمته الله: «عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرَضَاتٍ، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»^(٢).

﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الآيات المتشابهات ماهو واجبنا نحوها نحن طلاب العلم؟ ما وجابنا نحو الآيات المتشابهات؟ وقد عرفنا قريباً الواجب نحو الآيات المُحَكَّمات.

الآيات المتشابهات يجب علينا نحوها أمران:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٥٠).

الأمر الأول: أن تؤمن أنها من عند الله، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، تؤمن أنها من عند الله وأنها كلامه وتنزيله - تبارك وتعالى -.

والأمر الثاني: أن تتبع المُحَكَّم من أي القرآن الكريم ونرد إليه ما تشابه علينا من أي القرآن، تتبع المُحَكَّم ونرد إليه ما تشابه علينا من أي القرآن، فتكون الطريقة نحو الآيات المتشابهات:

أولاً: أن تؤمن بها وأنها من عند الله وأنها تنزيله وكلامه، تؤمن بذلك.

والأمر الثاني: أن نرد ما تشابه علينا من أي القرآن إلى المحكم، لأن الله قال عن الآيات المحكمات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وأم الشيء أصله الذي إليه يُرجع وعليه يُعَوَّل، فنرد ما تشابه من أي القرآن علينا إلى المحكم من أي القرآن، وبهذا يكون الاهتداء، وهذه طريقة أهل الحق وأهل العلم مع الآيات المتشابهات، إذا تشابهت على الإنسان آية في كتاب الله - ﷻ - رأساً يُعيدها إلى الآية المُحَكَّمة، رأساً يُعيدها إلى الآية المُحَكَّمة والنصوص المُحَكَّمة التي ظاهرٌ دلالتها وظاهرُ الحُكم منها ومتقرَّرٌ واضحٌ بين، فإذا تشابه عند الإنسان شيءٌ من الآيات أعاده للمحكم وحينئذٍ يتبين الأمر.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في رد المتشابه إلى المُحَكَّم فيزول الالتباس ويذهب الاشتباه ويتضح الأمر، وأضرب على ذلك مثلاً من خلال قصةٍ حصلت من أحد رؤوس المعتزلة وكبارهم، قال ابن قتيبة رحمه الله: «حدثنا قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة فأقوم بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلت ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ

مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴿[النساء: ٩٣]﴾، قلت له: وما في البيت أصغر مني أرايت إن قال لك: قد قلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿[النساء: ٤٨]﴾ من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر؟ قال: فما استطاع أن يرد علي^(١)، إلى هذا الحد عندما يطرح مثل هذا الكلام على عوام الناس وجُهاً لهم تؤثر فيهم، مثل إثارة هذا المعنى في مثل هذه الآية التي يشتهب معناها على كثير من الناس، ولما كان المعنى مشتبهاً على كثير من الناس ولم يُوفِّقوا الردها إلى المحكم من أي القرآن تجد أن هذه الآية أبرز ما يحتج به الخوارج والمعتزلة في عقيدتهم، والسبب إتباع المتشابه وترك المحكم، فكان في المجلس شاب اسمهم أنس وهو أصغر من في المجلس فقال وأجرى الله -ﷻ- الجواب المُسدد على لسانه، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿[النساء: ٤٨]﴾ وقد شئت أن أغفر له، فماذا تقول؟»، لاحظتم الجواب، رد هذه الآية المتشابه معناها إلى الآية المحكمة، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿[النساء: ٤٨]﴾ يعني دون الشرك، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿لأن الله -ﷻ- جعل كل أمرٍ دون الشرك تحت مشيئته، قال: «وإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿[النساء: ٤٨، ١١٦]﴾ وقد شئت أن أغفر له، فماذا تقول؟» فبُهِت! ولم يجد جواباً!، وفي هذه الآية التي هي مَثَارُ الشبهة عند القوم وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص ٨٣).

﴿سورة النساء: ٩٣﴾ هي في ﴿سورة النساء﴾ مؤمناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴿﴾ [النساء: ٩٣] هي في ﴿سورة النساء﴾ ومسبوقة وملحوقه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ [النساء: ٤٨]، جاء في ﴿سورة النساء﴾ قبل هذه الآية بآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ [النساء: ٤٨]، وجاء بعدها بآيات في ﴿سورة النساء﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ [النساء: ١١٦]، ويأتي هؤلاء الخوارج والمعتزلة إلى هذه الآية في أثناء السورة ويتركون ما قبلها وما بعدها من الآي المحكم الذي يوضح معناها مما يدل على أنهم أصحاب أهواء، وإلا لو كان صاحب حق لمرّ في طريقه وهو يقرأ ﴿سورة النساء﴾ قبل أن يصل إلى هذه الآية إلى آية مُحْكَمَةٍ في الباب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ﴿﴾ [النساء: ٤٨]، وإذا فرغ من قراءة هذه الآية التي ثارت عنده الشبهة فيها سيأتي بعدها بآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ [النساء: ١١٦]، أليس واضحاً بيّناً قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً﴾ داخل تحت قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أو ليس واضحاً؟ واضح؛ لأنه دون الشرك وما دون الشرك جعله رب العالمين تحت المشيئة، فلماذا نجزم نحن في أمر جعله الله رب العالمين تحت المشيئة نجزم جزماً أنه ليس تحت المشيئة وأنه لا بد من الخلود؟!.

وبهذا يتضح لك أنّ ما تشابه على الإنسان من الآيات أو من الأحاديث مثل حديث أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ شَرِبَ سُماً فَقَتَلَ نَفْسَهُ

فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^(١).

هذا الحديث ترده إلى المحكم من القرآن الكريم يتضح لك الأمر ويستبين. فإذا ن طريقة أهل العلم هي: رد ما تشابه من النصوص إلى المحكم منها فيزول الاشتباه.

وطريقة أهل الزيغ اتباع المتشابه وترك المحكم، يتركون المحكم ولا يلتفتون إليه ولا يُعَوِّلون عليه ويتبعون المتشابه.

قال: ﴿وَأَخْرُ مُتَشَبِهَةً﴾، ثم ذكر - جل وعلا - منهجين للناس، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: انحراف، الزيغ هو الانحراف والعدول عن الجادة السوية والسَّنن القويم، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾، ﴿مِنْهُ﴾ أي: القرآن، ﴿مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: من آيات القرآن، فيتَّبِعُونَ الآيات المتشابهات، لماذا؟، ما السبب؟، لأجل ماذا؟، قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: طلباً لإثارة الفتنة على الناس في دينهم وعقائدهم وإيمانهم وتوحيدهم، تشكيكاً وإثارة للشبهات والشكوك تليساً على الناس، ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: فتنة الناس في دينهم وإيمانهم.

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: تأويل القرآن بصرفه عن معناه ومقصود القرآن ومراده إلى أهوائهم وعقائدهم وآرائهم وتصوراتهم، ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: صرفه عن ظاهره إلى ما يريدونه وما تقرر عندهم بسبب الأهواء؛ ولهذا قالوا عن أهل البدع والأهواء

(١) رواه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

أنهم أولاً يعتقدون ثم يستدلون، وعندما يعتقد أولاً ثم يستدل ثانياً يبدأ بهذه الطريقة يتبني تأويل القرآن، بحيث يكون موافقاً لما يهوى، وموافقاً لما يعتقد بالبحث عن مُستكره التأويلات وغريب اللغات وَوَحْشِيَّ اللغات؛ حتى يجعل آيات القرآن أو يُطَوِّع آيات القرآن لتكون دالة على ما يعتقد، هذه طريقة أهل الزيغ.

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾، ما المراد بتأويله هنا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾؟، ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ هنا على ما سبق تحتمل أحد أمرين:

- ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ أي: معناه، وهذا إذا قُصِدَ بالمتشابه -فيما تقدم- أي من حيث المعني، وعليه فإنه يجوز الوصل، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون معناه، قد نقلت لكم كلام ابن عباس -رضي الله عنهما- ترجمان القرآن وَحَبْرُ الأمة في هذا الأمر.

- ويحتمل أن ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ المراد به: حقيقة ما يؤول إليه، حقيقته وما يؤول إليه، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله.

إذا أُريدَ بالمتشابه: الحقيقة والكنه والكيفية، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله.

والتأويل: تارة يُراد به التفسير، وتارة يُراد به حقيقة الشيء وما يؤول إليه.

قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على القول الأول: لا يعلم معناه -أي معنى المتشابه- إلا الله والراسخون في العلم، أي: الراسخون في العلم يعلمون معناه.

وطريقة الراسخين في العلم تجاه المتشابه أنهم يؤمنون به أنه من عند الله، ويردونه

إلى المُحَكَّم، على خلاف طريقة أهل الزيغ، قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، كله حق، وكله من الله، وليس في القرآن تناقض ولا اضطراب، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يستقيم الأمر للإنسان في هذا الباب إلا إذا كان على هذا النهج، يرد المتشابه من آي القرآن إلى المُحَكَّم.

أما إذا كان بمعزلٍ عن آيات القرآن ودلالاته، ويجتز من النصوص أشياء يُشَبِّه بها على الناس؛ فهذه طريقة أهل الزيغ، مثل طريقة الجهمية الذين يقولون أن الله في كل مكان، يقرؤون مستدلين على قولهم «إن الله في كل مكان»، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

والإمام ابن القيم - رحمه الله - يقول:

يَا قَوْمَنَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا أَفْأُ تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَفْأَن

يعني الآيات التي في القرآن والأحاديث التي بالسنة التي تدل على علو الله ليست مئة ولا مئات ولا ألف؛ بل بالآلاف، تُتْرَكُ هذه الآيات الواضحات البيِّنات المُحَكَّمات والأحاديث الواضحات ثم يأتي إلى جزء من آية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ويحتج به على أن الله في كل مكان، هل هذه طريقة أهل العلم؟، حاشا والله.

ولهذا الإمام أحمد - رحمه الله - لما أراد أن يردَّ عليهم، قال: «بدأ الله الخبر بالعلم وختم الخبر بالعلم»، يعني هذا السياق في العلم؛ لكنَّ القوم لا يقرؤون النصوص كاملة؛ بل يجتزؤون من وسط النصوص آية، أو من وسط الآية جزء آية، ولعله ظهر لكم مثالان على ذلك، إما أن يجتزأ من وسط الآية جزء آية، أو يجتزأ

من الآيات آية مع أن السياق بتمامه يُوضح المعنى ويُبينه.

فإذاً طريقة أهل الرسوخ وأهل العلم رد المتشابه إلى المُحكم.

فموضوع توحيد العبادة مثلاً، الشيخ يُنبهك هنا - كما سيأتي في كلامه - رحمه الله - أنه يجب أن يكون راسخاً في قلبك ثابتاً عندك أن العبادة حق لله، وأن الله خلقك لتوحيده؛ لتُفردَه بالعبادة، واحفظ على هذا الأصل جزءً من أو طرفاً من الأدلة، وهذا أمرٌ مُحكم، العبادة حق لله، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]،

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]،

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تجعل الأمر مُحكمًا بينًا ظاهراً عندك أن العبادة حق لله، ليس لله - تبارك وتعالى - شريك فيها، فإذا رسخ الأمر وضبطه بأدلتها، إذا جاءك إنسان بآية أو بحديث يُريد من خلاله أن يُقرر لك أنه يسوِّغ أن يدعى غير الله، فهذا الآن يُنازعك في أصل راسخ، ويأتيك بأمرٍ قد يكون مشتبهاً عليك ولا يكون مشتبهاً على أهل العلم؛ لكن إذا ضبطت هذا الأصل

المُحَكَّم وأتقنته فإذا أثار عندك شيئاً من هذه الشبهات أعدته إلى المُحَكَّم، وإذا لم يكن عندك جوابٌ حاضر تفصيلي على الآية المُعَيَّنَة التي ذكرها أو الحديث المُعَيَّن الذي ذكره تكتفي بجوابه المُجَمَّل وإعادته إلى المُحَكَّم، وتقول له: «أما جوابك التفصيلي على شبهتك هذه فتجده عند أهل العلم الراسخين، أما أنا لا أقبل كلامك، وأعتقد تماماً أن كلامك باطل، وأنت على ضلال، وهذا هو المُحَكَّم من آيات القرآن تدل على بطلان هذا الأمر الذي أنت عليه»، فرددت ما تشابه عليك وعليه أو ما تشابه عليه وواضح لك ولكن لا تعرف عليه جواباً تفصيلياً رددته إلى المُحَكَّم.

فإذا الجواب المُجَمَّل أن يكون راسخاً عندك في هذا الباب، الأمر المُحَكَّم في أمور الاعتقاد بأدلتها، فإذا ما أُثِرَت شبهة رددت المتشابهة إلى المُحَكَّم، وبهذا يكون الجواب الإجمالي على تفاصيلٍ فيه يأتي تقريرها عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

لما أورد -رحمه الله- الآية قال بعدها: «وقد صح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: ((إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ))»، انتبه هنا -رعاك الله- إلى قول نبينا ﷺ: ((إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ))^(١)، وهذا آية من آيات النبوة، أنه سيوجد في أمتة ﷺ أقوامٌ شأنهم اتباع المتشابه، وفي الوقت نفسه نصح ﷺ وهو الناصح الأمين -صلوات الله وسلامه عليه- في الطريقة التي ينبغي أن يكون عليه الإنسان نحو هؤلاء، قال: ((إِذَا رَأَيْتُمُ)) يعني: إذا ابتليتكم بمن هذا شأنهم، ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَحَذِّرُوهُمْ)): سماهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغٌ﴾، بهذا سماهم الله، قال: ، ((فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ)) أي: في هذه الآية، قال: ((فَأَحَذِّرُوهُمْ)) أي: إياكم وإياهم، اجتنبواهم، ابتعدوا عنهم، هنا قال: ((فَأَحَذِّرُوهُمْ)) أي: ابتعدوا عنهم، احذروا من الإصغاء إليهم، والركون إلى شبهاتهم، واستماع زخرفاتهم للقول وتزيين العبارات وتنميق الكلمات، احذروهم. وإن لم يعمل المسلم بهذه النصيحة التي نصح بها النبي ﷺ يورط نفسه، قال: ((فَأَحَذِّرُوهُمْ)) أي: كونوا منهم على حذر.

ومراد الشيخ -رحمه الله تبارك وتعالى- بذكر الحديث بعد الآية أن ينبهك -يا طالب العلم- لتكون على حذر من أهل الشبهات.

والآن في زماننا وقد عاينتُ من هذا الصنف كثيراً من الشباب ومن تلوث بعضهم ببعض الأفكار السيئة والشبهات المُرَدِّية، والسبب عدم عملهم بهذه النصيحة النبوية: ((فَأَحَذِّرُوهُمْ))، تجد الشاب خلو من العلم ثم من باب ما يُسمى حب الإطلاع والفضول يبدأ يدخل على ما يقوله الجهمية وما يقوله الرافضة وما يقوله المتصوفة، يقول: «أريد أن أرى ماذا عندهم»، ويدخل في المواقع، ويدخل في القنوات، ويدخل ثم يُفاجأ بعد فترة من الزمان وإذا عقله وفكره مُلَوَّث، ويود أن يتخلص من تلك الشبهات فلم يستطع؛ بل بعضهم يكون لا علم عنده ويأتي عند بعض كبار هؤلاء المُبْطِلَةِ وهو بزعمه يريد أن يناقشه وينظره ويطل ما عليه من باطل!، ثم يُفاجأ أنه خرج وقد ابتلي ببعض الشبهات التي استقرت في قلبه، ومتى يتخلص منها؟!، فهذه نصيحة مهمة وعظيمة يجب أن تكون عند طالب العلم الذي

يريد حفظ إيمانه ودينه، قال: ((ذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاخْذَرُوهُمْ)) أي: كونوا منهم على حذر.

وكأني بالشيخ - رحمه الله تعالى - يريد أن يؤكد عليك ألا تحتفي بالشبهات، احتفاؤك بالقرآن؛ بالآيات؛ بالأدلة؛ بالحجج؛ بالبراهين؛ بكلام أهل العلم الراسخين، والشبهة إذا عرضت لك دون طلب منك لها وبحثٍ عنها فردّها إن كنت ذا علمٍ تفصيلي بجوابٍ تفصيلي، وإن كنت لست على علمٍ تفصيلي فردّها بالجواب المُحكّم وبالجواب المُجمل مباشرةً ولا تقف مع تفاصيل صاحب الشبهة.

قال: «**مثال ذلك**»، قوله: «**مثال ذلك**» الإشارة في «ذلك» إلى الجواب المجمل، «**مثال ذلك**»: أي مثال الإجابة المُجملّة لبعض شبهات المشركين، قال: «**إذا قال لك بعض المشركين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**» [يونس: ٦٢]، يقولون لك: «لا تؤمنون بالأولياء، بمكانة الأولياء؟»، هذه آية في كتاب الله - ﷻ -، فيها ثناء الله على أوليائه، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا يدل على مكانة الأولياء، أنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا مكانة الأولياء، ولا ما خصّ الله - ﷻ - به أوليائه من الفضائل، ويريدون أن يصلوا بك من خلال هذه الآية إلى تعظيم الأولياء تعظيماً لا يليق إلا برب الأولياء - سبحانه جل وعلا -، فيبدأ من خلال هذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وربما استشهد كثيرٌ منهم بقصص يخلقونها، «نحن نعرف السيد فلان، والولي الفلاني عنده قدرة على التأثير، وعنده كذا، وعنده كذا،

وشاهدنا، وعائناً، وجربنا... إلى آخره، فأنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا تعرفون مكانة الأولياء، ولا تعرفون منزلة الأولياء، وجاههم عند الله، والأولياء من شأنهم ومن شأنهم»، وهكذا يُثير هؤلاء هذه الشبهة.

فقال: «إذا قال لك بعض المشركين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]»، أمر آخر أيضاً: «أو أن الشفاعة حق»، يقول لك: «هل تنكر الشفاعة؟»، النبي -ﷺ- في الحديث الصحيح قال: ((وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ))^(١)، كيف تنكرونها؟!، الشفاعة حق وثابتة، والأدلة عليها كثيرة، والنبي -ﷺ- الشافع المُشَفَّع، والأدلة في القرآن وفي السنة على ثبوتها كثيرة، هل تنكرون الشفاعة؟، لا تؤمنون بها؟»، وإذا أيضاً قال لك أو قال لك: «أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله»، الله -ﷻ- قال عن عيسى: ﴿وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ونبينا -ﷺ- خاتم النبيين جاؤه عند الله أعظم جاؤه، ومنزلته أعظم منزلة، ألا تؤمنون بذلك؟، وهذه الآيات واضحة تدل على ذلك، ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ألا تؤمنون بجاؤه الأنبياء وأن لهم جاه عند الله؟!.

«أو ذكر لك كلاماً للنبي -ﷺ- يستدل به على شيء من باطله»، وهم عندما يذكرون كلاماً للنبي -ﷺ-، يعني عندما يذكرون أحاديث النبي ﷺ تارةً يذكرون أحاديث تكون صحيحة، وتارةً يذكرون أحاديث تكون ضعيفة أو موضوعة، وإذا ذكر لك حديثاً صحيحاً أو حديثاً لا تعرف صحته من ضعفه وشبهه عليك الأمر

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

مثل أن يقول لك: «وأنت لا تعرف»، ولأول مرة تسمع لو قال لك: «النبى - ﷺ - قال: (توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم)!!»، وأنت أول مرة تسمع بهذا، وهو يريد أن يصل من خلال هذا الحديث معك إلى أن يُشبه عليك بجواز طلب الشفاعة من الأنبياء وطلب الإلتجاء إلى الأنبياء في أن يشفعوا عند الله، وأن يتوجه إليهم متذللًا طالبًا راجيًا، «يا رسول الله اشفع لي»!، «يا رسول الله خذ بيدي»!، «يا رسول الله أدركني»!

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ونحو ذلك، فيأتي لك بأحاديث إما صحيحة: ((أُعْطِيتِ الشفاعة))، أو أحاديث غير صحيحة لا أصل لها، فإذا أعطالك مثل هذه الأشياء وأنت لا تعرف جوابًا تفصيليًا على هذه الأشياء التي ذكر لك، الحديث لا تدري أهو صحيح أو ضعيف، ما هو بيان أهل العلم، ما معناه عند أهل العلم، والآية أيضًا ما تعرف معناها، ما تستذكر تفسيرها، ما وقفت على تفسيرها، كيف تجيب؟، رأسًا تُعيد المتشابه إلى المُحَكَّم، يُفترض أن تكون ضابطا للتوحيد بأدلتها، فإذا أتاكَ بشبهة تُناقض التوحيد وتصادم أصل الإيمان تردها بالمُحَكَّم.

فكيف تردها بالمُحَكَّم؟، تابع الجواب.

يقول الشيخ: «وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك»، انتبه لهذه النقطة، «وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك»، وهذا يحصل لكثير من الطلبة عندما يُبتلى برأس من رؤوس أهل البدع يُشير له كلاما، ما يدري ماذا يقول!، يأتي له بآيات ويأتي له بأحاديث، وما يدري [أيش يقول]، وربما بعضهم التبس عليهم الأمر

وقال: «والله صحيح كلامك!، كلام واضح!، كيف العلماء ما ردُّوا!، هذا فعلاً كلام...!!»، بعضهم عوام أهل السنة يصل بهم الأمر إلى مثل هذا المَوْصِل، وهو يَنْمُ عن جهله هو، وعدم علمه، وعدم وجود أصول راسخة ثابتة عنده يعيد إليها مثل هذه الأمور المتشابهة، إذاً كيف تجيب وأنت لا تفهم هذه الأشياء التفصيلية التي ذكر لك؟، إن كان آية لا تعرف تفسيرها وعناها عند أهل العلم الراسخين، وإن كان حديثاً لا تدري هل هو صحيح أو ضعيف، ولا تدري معناه ولا دلالة، ماذا تصنع؟، رأساً تجيبه بالنقاط التي ذكرها الشيخ.

وهنا أنبهك -والشيخ يذكر لك الجواب المُجمل- أن تتابع مع الشيخ بدقة أجوبته؛ لأن هي عبارة عن نقاط، تقريباً أربع نقاط ذكرها الشيخ -رحمه الله-، لا بد أن تتابعها بدقة وتضبطها ضبطاً دقيقاً حتى يتسنى لك من خلالها إبطال كل شبهة يعرضها مَنْ يُناقض التوحيد بإثارته لشبهته، وهي سهلة وميسرة:

قال: «فجابه بقولك: **إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَيْغٌ يَتْرَكُونَ الْمُحْكَمَ وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ**»، نبهك الشيخ على الآية والأصل الذي ذكره الله -سبحانه وتعالى- فيها والمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب الحق، وأنت إذا بدأت بهذه البداية وبهذه الآية وَضَّحْتَ لخصمك ومن أمامك أن آيات القرآن أخبر ربنا أنها على قسمين: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وأنت بعد قليل ستذكر له الآيات المُحكَّمات الواضحات البيِّنات في هذا الباب، ستذكرها له، بحيث تقطع عليه الطريق؛ لكن تبدأ بالآية، تقول له: «إن ربنا -سبحانه وتعالى- ذكر في كتابه أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَيْغٌ يَتْرَكُونَ الْمُحْكَمَ

وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ»، أقرأ عليه الآية، وقل: «الله -عز وجل- ذكر في القرآن أن الآيات منها ﴿ءَايَاتٌ مُّحْكَمَةٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ﴾، وأن أهل الحق يُعيدون المتشابه إلى المحكم، وأهل الزيغ يتبعون المتشابه، وأنت الآن تأتين بأشياء متشابهة تريد أن تقرر الشرك وعبادة غير الله - سبحانه وتعالى -، مع أن القرآن إنما أنزل لأجل: ﴿أَفَقَدْ أُمِرَ اللَّهُ فَلََّا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ١ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ٢ ﴿[النحل: ١-٢]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، القرآن والرُّسل والكتب كلها أنزلت لأجل أن نعبد الله وأن نخلص العبادة لله، فكيف تأتيني بآية مُتشابهة وتطالبني أن أتبع المتشابه، وأترك هذا المُحَكَّم الذي أنزل القرآن لأجله، وهو واضح في آيات القرآن ودلالاته، فهذه النقطة الأولى التي تبدأ بها معه بأن تذكر الآية الكريمة التي ذكر الشيخ وأن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المُحَكَّم ويتبعون المُتَشَابِهَ.

ثم تنتقل له إلى نقطة ثانية في الجواب على شبهته: وهي في قوله -رحمه الله-: «وما ذكرته لك» أي: ياطالب العلم، «من أن المشركين يقرُّون بالربوبية وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»، يُشير إلى الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فأيات القرآن فيها تقرير أن المشركين الذين بُعِثَ

فيهم النبي ﷺ يُقَرُّونَ بالربوبية وأن الرب الخالق الرازق النافع الضار المُعْطِي المانع إلى آخره هو الله لا شريك له، يُقَرُّونَ بذلك، وقد مر معنا سياق الشيخ -رحمة الله عليه- لجملة من الآيات الدالة على ذلك، وأيضاً آيات القرآن دلت على أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وليس الأولياء فقط، ففي الآية التي ذكر ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ويشير الآية يريد أن يطلب التعلُّق بالأولياء، فأنت تقول: «الله -ﷻ-» ذكر أن المشركين في آيات كثيرة يقرون بأنه الرب الخالق الرازق المُنْعِم، وفي الوقت نفسه ذكر -سبحانه وتعالى- عنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وأيضاً ذكر أنهم يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فأيش الفرق بين الذي تقول أنت وتطالبني به وبين ما ذمَّ الله -ﷻ- المشركين عليه في آيات كثيرة في القرآن الكريم؟!، هذا شيء مُحْكَم واضح في القرآن، وهذا هو الذي بُعث النبي -ﷺ- لأجل إنكاره وإبطاله على المُشْرِكِينَ، فأيش الفرق بين ما تُحدِثني عنه الآن وأنت تريد أن تصل إليه من خلال ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وبين ما بُعث النبي -ﷺ- لإبطاله على المُشْرِكِينَ، فالمشركون أخبر الله عنهم أنهم يُقَرُّونَ بأن الله الخالق الرازق المُنْعِم المُتَصَرِّف المُدَبِّر إلى آخره، وأيضاً أخبر عنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وأنت الآن عندما تقول لي: «هل تنكرون الشفاعة؟»، الله -ﷻ- ذكر عن المشركين هذا الأمر وذمهم عليهم، وأنت تطالبنا أن نتوجه إلى الأولياء ونعلّق قلوبنا بهم ونجعل التجاءنا إلى

الأولياء بأمرٍ أنكره الله - سبحانه وتعالى - على المشركين؟!، فإذاً هذه نقطة ثانية في الجواب، تقول له: «هذا أمر مُحْكَمٌ بَيْنَ لا يقدر أحد أن يُغير معناه».

فقوله رَحِمَهُ اللهُ: «هذا أمر مُحْكَمٌ بَيْنَ لا يقدر أحد أن يُغير معناه»، فالأمر المُحْكَمُ البَيْنُ، هو بيان الله لحال المشكرين وذمهم على تلك الحال وتحذيرهم من تلك الحال، فكيف تطالبني بعمل أنما أنزل القرآن وُبُعِثَ الأنبياء لأجل إبطاله وهدمه؟!، والنبى - ﷺ - إنما قاتل المشركين لأجله، فكيف تُطالبني بأمر وتسوق لي هذه الأدلة وتقول لي أنها تدل على جواز الالتجاء إليهم أو طلب الشفاعة منهم أو التعلق بهم أو نحو ذلك من معان؟!.

فعدنا آيات مُحْكَمَةٌ كثيرة واضحة بيّنة في القرآن الكريم تدل على هذا الأمر الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، قال: «هذا أمر مُحْكَمٌ بَيْنَ لا يقدر أحد أن يُغير معناه»، أنت هكذا تقول له، بعد أن تذكر له هذا الأمر وتسوق بعض الأدلة عليه، والأدلة على ذلك مرت قريباً عند الشيخ - رحمه الله -، تقول: «هذا أمر مُحْكَمٌ بَيْنَ لا يقدر أحد أن يُغير معناه»، فأنت الآن أعدته إلى المُحْكَمِ.

أيضاً تذكر له نقطة ثالثة تتعلق بالشيء الذي أثاره، الشيء المُعَيَّن أو الشبهة المُعَيَّنة التي أثارها: تقول: «وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي - ﷺ - لا أعرف معناه»، لا أعرف معناه، أيش مقصودك لأعرف معناه؟، أي: لا أعرف له جواباً تفصيلياً، إن كانت آية ما يحضرني تفسيرها، أو لم أقف على تفسيرها، أو ما أطلعت على تفسير الآية؛ لكن لها معنى حق صحيح لا يناقض هذا المحكم يعرفه أهل العلم فتقول له: هذا الذي احتججت به من القرآن أو كلام

النبي ﷺ لا أعرف معناه والمراد بعدم معرفة معناه أي بما يستدل به الآن هذا المشرك أو المُبَسِّس يستدل به على الشرك وأنت عندك يقين راسخ في قلبك أخذته من الآيات المحكمات أن الآية لا تدل على هذا الأمر الذي احتج عليها به عندك يقين بذلك.

لكن الجواب التفصيلي ليس عندك لأنه ليس عندك رسوخ في العلم ولا عندك معرفه تفصيليه فتقول له بإجابة مجملة: وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولا تلام في كونك ليس عندك أجوبة تفصيلية على كل ما يذكر أو يحتج به المحتج على باطله.

هذا أمر يكون لأهل الرسوخ وأهل التتبع وأهل الدراية والبصيرة والاستقراء للنصوص والأدلة وهذا لا يتسنى لكل أحد. وهذا يبين لك قيمة الجواب المحكم وشدة احتياج كل طالب علم إليه.

النقطة الرابعة في جوابك له أن تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ.

أقطع أنا بذلك أنا عندي يقين وجزم أن كلام الله لا يتناقض.

وهذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، لو كانت دليلاً كما يزعمه هؤلاء الزاعمون أنه يجوز أن نقول: مدد ياشيخ فلان الحقني ياشيخ فلان أدركني ياشيخ فلان لأصبح الكلام في القرآن متناقضاً والعياذ بالله، لأن الله ﷻ يقول في الآيات المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، ويقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ

اللَّهُ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ❊، ويقول: ❊ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ❊.

فالآيات كثيرة جداً تحذر من دعاء غير الله أيّاً كان ومهما كان.

فهل قوله: ❊ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❊ [يونس: ٦٢] تدل على جواز التعلق بالأولياء والالتجاء إليهم والطلب منهم؟ هل تدل على ذلك؟

إن قيل: نعم؛ أصبح في القرآن آيات متناقضة وآيات تدعو إلى عدم التعلق بغير الله وعدم الالتجاء إلى غير الله وآيات تدعو إلى الالتجاء إلى غير الله والتوكل على غير الله ودعاء غير الله كما يزعم هؤلاء.

فأنت تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأنت عندما تقول له هذه الكلمة تريد أن تبين له أنك على يقين أن ما احتج به من آية أو حديث لا يدل على جواز التعلق بغير الله ولو كنت لست على علم بجواب تفصيلي على الآية والحديث يكفيك أنت أن تخبره هذا الإخبار وأن تبين له هذا الأمر.

قال: «ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي - ﷺ - لا يخالف كلام الله» وحاشاه ﷺ أن يأتي بكلام يناقض كلام رب العالمين ❊ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ❊.

فهذه أربعة نقاط ذكرها الشيخ رحمه الله في الجواب.

النقطة الأولى: مستفادة من الآية التي ذكرها: ❊ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ❊ [آل عمران: ٧] فتقول للمخالف: إن طريقة أهل الزيغ الذين ذمهم

الله أنهم يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ثم تمهد له بهذا التمهيد.

وتقول له: انتبه أنا أحذرك الله ﷻ قال في آية عظيمة جداً في ﴿سورة آل عمران﴾: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] احذر أن تكون من هؤلاء الذين حذرنا الله منهم لا تتبع المتشابه لا تترك المحكم وتذهب تتبع المتشابه.

ربما أنت إذا قلت له هذا الكلام وكان فيه شيء من الخوف ربما تحرك فيه شيء من الخوف وقال لك: فما المحكم في هذا الباب؟

فتبدأ تنتقل للخطوة الثانية التي يذكرها لك الشيخ وهي أن تقول له:

ما قرره الشيخ سابقاً عندما بين دين المرسلين ودين المشركين، فأنت تبين له دين المرسلين ودين المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ وأنهم كانوا يعتقدون أن الله الخالق الرازق المنعم المتصرف وأنهم أيضاً كانوا يتعلقون بالملائكة وبالأنبياء وبالأولياء وأيضاً يقولون ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ تذكر له هذه التأصيلات التي سبقت أن مرت. فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ يعيدك إلى التأصيل السابق لكي تضبطه وتبدأ بعرضه مع المخالف خطوة خطوة حسب ما مر عليك حتى تبين له الأصول الثابتة الراسخة عندك.

بعد ذلك تنتقل للنقطة الثالثة تقول له: وما ذكرته لي من آية أو من حديث أنا لا أعرف معناه أو جوابه التفصيلي، وما عندي جواب لكن الذي ذكرته، وتطالب أن

نفعه مستدلاً على الآية به أو الحديث بهمُصادم لهذه الآيات المحكمات

فما هي الطريقة التي أرشدنا ربنا إليها ويجب أن نكون عليها؟

هل نتبع المتشابه الذي تُريده أو الآيات المحكمات التي ذُكرت لك، وُيُنت

لك؟

ثم تذكر له أمراً رابعاً تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ منبها إياه أن هناك أجوبة تفصيلية على هذا الذي أثرته لكنك ستجدها عند أهل العلم الراسخين، لكن حذنا الآن أن نكف عن هذا الأمر ونحقق التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأن ندع هذه الأمور المشتبه علينا وأن نعمل بالأشياء المحكمة الواضحة التي ذكرت لك ويتتهي حديثك وإياه عند هذا الحد تقول: أتريد أجوبة تفصيلية؟ انتهينا هذا حدي معك، وإذا كنت تريد أجوبة تفصيلية فلنرجه لأهل العلم المعبرين.

قال الشيخ رحمه الله مؤكداً على ما مضى قال: (وهذا جواب جيد سديد).

أي: هذا الجواب الذي عرضته لك وأبنته لك هذا جواب جيد سديد ولكن مع ما قدم الشيخ وبين قال: (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى)، ولهذا هذه الكلمات القليلة التي مرت معك في أسطر أو في صفحات قلائل يؤكد لك الشيخ أنه ليس كل أحد يفهمها ولكن لا يفهمها إلا من وفقه الله ولهذا الجأ إلى الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هذه الكلمات التأصيلات القوية المتينة إن لم يوفقك الله ﷻ لضبطها قد تبلى في يوم من الأيام بمن يثير عليك هذه الشبهات، والله المستعان.

فإذا كتب الله لك التوفيق وأمدك بالعون هديت إلى صراطه المستقيم ولهذا ما

أجمل بيان الشيخ رحمة الله عليه وهو يقول لك هنا (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى) فالجأ إلى الله تبارك وتعالى واسأله بصدق وإلحاح أن يوفقك ولا تستهن به ولا تقول هذه والله أشياء معروفة واضحة وبينه «فلا تستهن به» لأن هذه أشياء عظيمة وأصول مهمة وهذه أساس ما خلقت لأجله ووجدت لتحقيقه وأساس ما أوجدت للانتصار له والذب عنه والحماية له هذا هو الأساس وأكثر الناس ظلوا عنه وانحرفوا عنه.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تستهن بهذا الأمر ولهذا ما سبق أعدده مرات وكرات واسأل الله ﷻ أن يوفقك لضبطه لفهمه لإتقانه وراجعه مراجعة تلو الأخرى.

قال رحمه الله: (إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهن به فإنه) أي: هذا الأمر الذي ذكرته لك منزلته كمنزلة الدفع بالتي هي أحسن لأن لما أقول لك مذكرا لك بالآية الكريمة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لما تأتي للناحية التطبيقية العملية للدفع بالتي هي أحسن أين حظك من الآية؟ ولما تأتي في معترك الناس والاحتكاك بهمثم تحتاج إلى الدفع بالتي هي أحسن فماذا يكون؟

لأن بعض الناس في أدنى احتكاك بينه وبين شخص من الأشخاص يفعل ويغضب وقد يكون حافظا للآية والله ﷻ قال: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

فالدفع بالتي هي أحسن في الناحية النظرية وأنت تدرس سهل، فأى أحد يخاصمه شخص ما لا يتخاصم معه، بل يكلمه بهدوء، ولكن لما تأتي الناحية التطبيقية فكثير

من الناس لا يلقى هذا الأمر ولا يُوفق له ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وكان الشيخ رحمة الله عليه ينبه إلى أنه ينبغي الصبر للطلب بالصبر لضبط هذه الأمور، والإتقان لها، وحسن ضبطها وسؤال الله ﷻ التوفيق، وأن يكون المرء من أهل هذا الحظ العظيم والخير الكبير وهو ضبط هذه الأصول، حتى تكون سلاحاً للمسلم وهي أعظم سلاح.

وهذا الذي ذكره الشيخ في هذه الصفحات أعظم ما يحتاج إليه كل مسلم هذه المقدمات التي بدأها الشيخ خاصة في زماننا هذا والناس ابتلوا ابتلاءات كثيرة بشبهات أهل الضلال فهذه الأشياء التي سبق وقررها الشيخ لا تستهن بها، فهذه وصية الشيخ لا تستهن بها ولا تقل هذه أشياء هينة معروفة لا داعي لضبطها وتكرارها.

ولتكن سلاحاً معك وزاداً مستمسكاً به محافظاً عليه فهذا أعظم ما يكون وأعظم أمر ينبغي أن تعني به فلا تستهن بها فإنه كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ:

فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ. فَبَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ».

[الشرح]

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ)؛ عرفنا أَنَّ الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- استهْلَ هذا الكتاب النافع بمقدمة بيَّن فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين، وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله، ونبذ الشرك والتحذير من حال أهلِه، ودعوة الناس إلى كلمةٍ سواءٍ قائمةٍ على كلمةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). وبيَّن أيضًا -رَحِمَهُ اللهُ- حقيقة دين المشركين وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والأولياء والشركاء والوسطاء، زاعمين أن تلك الأنداد تقربهم إلى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- زُفَى، ويعتقدون أن تلك الأنداد لا تَخْلُقُ ولا تَرْزُقُ ولا تحيي ولا تميت ولا تُعْطِي ولا تمنع؛ بل ذلك كله بيد الله؛ لكنهم اتخذوها وسطاء وشفعاء بينهم، وبيَّن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿[الزمر: ٣]﴾، لم يقولوا ما نعبدهم إلا لآنّا نعتقد أنهم يملكون نفعاً وعطاءً ودفعاً ورفعاً وحياةً وموتاً ونشوراً، لم يقولوا ذلك؛ بل هم يُقرون أن تلك الأنداد لا تملك من ذلك من شيء، وأن المالك لذلك كله هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فبدأ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- كتابه (كشف الشبهات) بمقدمة قرر فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين وما كانوا يدعون إليه من التوحيد، وبيّن أيضاً فيها حقيقة دين المشركين، وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والوسطاء والشفعاء والأولياء، يصرفون لهم من العبادة والذل والخضوع ما لا يُصرف إلا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وهذا هو أساس ضلال المشركين؛ ثم على هذا الضلال بنوا كثيراً من الشبهات التي ضلوا، وأضلوا بها كثيراً عن سواء السبيل.

ولا تزال شبهات هؤلاء متكررة عبر التاريخ وبامتداد الزمان؛ فترى الشبهة التي قيلت في قديم الزمان تعاد من المشركين عبدة غير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ولهذا قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فما عند أولئك.. عند هؤلاء، وما عند هؤلاء من الأعمال عند أولئك، وما عند هؤلاء من الشبهات عند أولئك، اللهم إلا أن العبارة أحياناً تتغير، أما الحقيقة والمضمون فواحد.

ثم بعد أن بيّن -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- في هذه المقدمة هاتين الحقيقتين: حقيقة دين الأنبياء وحقيقة دين المشركين؛ بدأ يبين -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- كيف أن المشرك يحاول أن يجمع لنفسه ما ينصر به دينه الباطل وضلاله الممين، وأن مثل هذه

الشبهات ينبغي أن يكون كل مسلم على حيطَةٍ وحذر منها، يحذر منها في نفسه ويحذر منها من يُخشى عليه أن يتضرر بتلك الشبهات؛ فبدأ -رَحِمَهُ اللهُ- بموضوع الكتاب والإجابة على الشبهات أو كشفها وبيان زيفها ووهائها، وقرّر أن كشف شبهات هؤلاء من طريقتين:

طريق مُجمل؛ وهو ما سماه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- **(الجوابُ المُجملُ)** أي: الجواب الصالح لكشف كل شبهة أيّاً كانت في العقيدة أو في العبادة أو في أي باب من أبواب الدين؛ فهي بمثابة القاعدة الكلية في باب كشف الشبهات، صالحة لأن يردّ بها المسلم كل شبهة تُثار.

فالجواب المجمل؛ أي: الجواب الذي لا يختصُّ بكشف شبهة معينة؛ بل هو جواب لكل الشبهات.

وأيضاً نبّه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في مضامين كتابه إلى ضرورة التدرج في هذا الباب خلافاً لما عليه بعض الناس من خطأ في هذا الباب وعدم الإتيان للأمور من أبوابها؛ فمن الخطأ بمكان أن يدخل الإنسان غمار الشبهات بدون قاعدة.

ومما يُقَعَّد لطالب العلم في هذا الباب:

أولاً: معرفة حقيقة دين الأنبياء بالأدلة والبراهين، ثم يعرف حقيقة دين المشركين بالأدلة والبراهين؛ وعندما نقول بالأدلة والبراهين؛ أي: من كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، ثم بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الأخرى وهي معرفة الجواب المجمل الصالح لكشف كل شبهة يثيرها مشرك أو مبتدع، ثم بعد ذلك يدخل في الأجوبة التفصيلية؛ والأجوبة التفصيلية هي التي تختص بالإجابة عن الشبهات

تفصيلاً، وما من شك أن المشركين لهم شبهات كثيرة؛ فمعرفة الإجابة التفصيلية عن تلك الشبهات تأتي مرحلةً ثالثةً في هذا الباب، كما هو التدرج الواضح في تقرير هذا الأمر وتثبيت هذا المنهج في هذا الكتاب المبارك؛ كتاب: (كشف الشبهات)؛ ولهذا بدأ هنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بقوله: **(وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ).**

ولمَّا كانت الشبهات -شبهات المشركين- التي يثيرونها لتقرير باطنهم لا خطام لها ولا زمام، وهي متعددة ومتنوعة، وكثيرة وليست بقليلة، لمَّا كانت كذلك؛ أراد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن يُبين لطالب العلم طريقة الإجابة على شبهات هؤلاء بذكر أبرز وأهم ما عندهم من شبهات، ومن ثمَّ الإجابة عليها بإجابة مختصرة كافية وافية بالمقصود؛ فإذا عرف طالب العلم طريقة كشف الشبهات والمنهج العلمي الرصين في بيان زيفها؛ أصبح الأمر بعد ذلك عليه يسيراً بتيسير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ولهذا أؤكد أننا ينبغي أن نراعي هذه المنهجية الدقيقة المتينة التي قررها -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في كتابه (كشف الشبهات) لبيان المسلك الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في هذا الباب.

قال: **(وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسْلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ).**

(عَنْهُ)؛ أي: عن دين المرسلين؛ إذا كان الأمر كذلك فإنَّ أول ما ينبغي أن يُعنى به طالب الحق في هذا الباب أن يعرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة، فإذا عرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة فإنَّ ما سواه باطل، وكل شبهة تُثار لتقرير خلافه فهي باطلة، وهذه قاعدة في ردِّ كلِّ باطل؛ أن يعرف دين المرسلين؛ أما

من كان لا يعرف دين المرسلين أو معرفته بدينهم فيها ضعف؛ فإنه يُخترق بشبهات أهل الباطل.

قال: **(لَهُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ).**

هذه الشبهات لو أمعنا الناظر فيها لوجدناها لا تخرج إلا من هو: إما سيئ فهم أو سيئ قصد أو شخص جامع بين السوءين؛ أما مع سلامة الفهم وسلامة القصد فإن مثل هذه الشبهات لا تثار بإذن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -.

بدأ بعد ذلك - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يذكر أمثلة تفصيلية لشبهات هؤلاء، بدأها - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بثلاث شبهات صدر بها الكلام على الأجوبة التفصيلية لشبهات هؤلاء، ونبه في خاتمتها أن هذه الشبهات الثلاث هي أكبر ما عندهم، ونبه أيضاً طالب العلم أنك إذا عرفت هذه الشبهات واتضح لك كشفها وفهمتها فهماً جيداً؛ فما بعدها أيسر منها، وهذا تنبيه من الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى الاهتمام بالأمر؛ فأكثر ما عند هؤلاء القوم من الشبهات، هذه الشبهات الثلاثة التفصيلية التي يبدأ بها - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كشفه لشبهات هؤلاء تفصيلاً.

بدأ بالأولى منها؛ قال: **(مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ)** يتبرؤون ويتنصّلون من الشرك، وهذه حال صاحب كل باطل؛ ليس هناك صاحب باطل يقول عن نفسه أنا صاحب باطل، أو يقول أنا صاحب بدعة، أو يقول أنا صاحب إلحاد أو أنا صاحب شرك؛ بل:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَضْلاً بِلَيْلَى وَلَيْلَى لَا تُقَرِّ لَهُمْ بِذَاكَ

فكل يدعي أن ما عنده هو الحق؛ فليس هناك صاحب باطل يقول إنني صاحب

باطل أو داعية ضلال؛ فرعون كان يقول لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ما قال: «وما أهداكم إلا سبيل الضلال»، وهو أكبر دعاة الضلال. إبليس ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِيَّيَ لَكُمْ لَئِنْ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ما قال: «من المضلين»؛ قال: ﴿لَئِنْ النَّاصِحِينَ﴾، وهكذا صاحب كل باطل يدعي لنفسه أنه داعية حق وينفي عن نفسه أنه من أهل الباطل؛ ولهذا لاحظ كيف يبدأ هؤلاء بنفي ذلك عنهم؛ قالوا: (نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ) تراه متلطخاً بالشرك، متلوثاً به، صريعاً لشبهاته؛ ثم يقول: لا أنا لست من أهل الشرك.

يقولون: (نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ)، عبد القادر -أي: الجيلاني- وهو من علماء المسلمين ومن الأئمة المصلحين - كان معروفاً بحسن السيرة وحسن العقيدة؛ لكن كثيراً من أتباعه والمنتسبين إليه انحرفوا انحرفاً مبيهاً، وضلوا ضلالاً كبيراً، واتخذوا عبد القادر ولياً من دون الله، يُنزلون به من الحاجات والرغبات والطلبات ما لا يُنزل إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ونسبوا إليه كذباً وزوراً أنه يدعو إلى ذلك وأنه يرضى بذلك ويرغب بذلك، وحاكوا حول ذلك كثيراً من الأكاذيب والقصص والتجارب المُدَّعات، وأنواعاً من المنامات والخوارق التي أضلوا بها كثيراً من الناس عن سواء السبيل؛ فأصبح يُدعى من دون الله ويُذبح له من دون الله، ويُتَقَرَّبُ إليه بأنواع من التقربات التي لا تكون إلا إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- والعياذ بالله.

فيقولون نحن نعتقد (أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ

القَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ)، (فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ)؛ أي: فضلاً عن من دون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام من الصالحين والأولياء، أو أيضاً من الطالحين الذين لا يُعرفون بصلاح أو استقامة ممن اتَّخَذُوا أُنْدَادًا من دون الله.

قال: **(وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ)؛ أي:**
أعتقد أن هؤلاء أهل صلاح وأهل مكانة عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ولهذا لا أطلب من الله مباشرة؛ وإنما أطلب من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بواسطة هؤلاء، فأخذهم شفعا لي عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهذا عين ما ذكره الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عن المشركين الأول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسطاء لنا عند الله؛ فإذا قال لك هذا الكلام، وانتبه لتبيين الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أن هذه أكبر ما عندهم من الشبهات، نحن ما نشرك ونحن نعتقد أن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله، ونعتقد أن النبي ﷺ وعموم الأولياء والصالحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؛ ولكننا ندعوهم ونستغيث بهم ونلتجئ إليهم ونطلب منهم المدد والعون والعافية والشفاء وغير ذلك؛ لأن لهم جاهاً عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ومكانة عليّة عنده؛ فنحن نطلب من الله بهم -أي: بواسطة هؤلاء- فنجعلهم بيننا وبين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- شفعا ووسطاء؛ فكيف تجيبه إذا ذكر لك هذه الشبهة؟

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: **(فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ)؛ أي: بما تقدم معك في هذا الكتاب من تقرير لحقيقة دين المشركين، وقرأ عليه الآيات التي قررت حقيقة**

دين المشركين، وأن المشركين لا يعتقدون في الأصنام المتخذة من دون الله أنها تنفع وتضر وتمنع وتخفّض وترفع؛ بل يعتقدون أن ذلك كله بيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومَرَّ معنا آيات عديدة ساقها المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-؛ مثل قول الله -جَلَّ وَعَلَا- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ماذا يقول المشركون إذا سئِلوا هذه السؤالات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: سيقولون هذه الأمور كلها بيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، لا يقولون إنها بيد الأصنام.

وإذا سئِلَ المشركون الأول لِمَ تعبدون هؤلاء وأنتم تعتقدون أنها لا تنفع ولا تعطي؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فتقول لهم: ما الفرق بين حقيقة دين المشركين التي بينها الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في القرآن، وبين هذا الأمر؟ وضّحوا لي الفرق، بعد أن تبين لهم أن هذا الذي ذكره هو نفس الكلام الذي قرّره الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في كتابه عن المشركين الأول، واقرأ عليهم الآيات التي تبين حقيقة دين المشركين.

قال: (فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقَرَّرُونَ بِمَا ذَكَرْتَ) عرفت أنت ما المراد بقوله: (مُقَرَّرُونَ بِمَا ذَكَرْتَ)؛ أي: من أن الخالق الرزق المنعم المدبر هو الله، وأن الأنبياء والأولياء لا يملكون نفعا ولا دفعا ولا عطاء ولا منعا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا.

(وَمُقَرَّرُونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ)؛ أي: المشركون

الأُولُ إنما أرادوا بتلك الأصنام الجاه والشفاعة.

(واقرأ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ)، وَضَّحَهُ لَهُ؛ يعني اقرأ عليه الآيات التي قرر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فيها حقيقة دين المشركين ووضح له هذه الآيات حتى يعرف معناها، ثم قل له: ما الفرق بين هذا الذي تقول وبين الذي كان عليه هؤلاء الذين بين الله -عَزَّ وَجَلَّ- حقيقة دينهم في القرآن الكريم؟! هنا تنتهي الشبهة الأولى بجوابها.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيْمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِنْ قَصْدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ؛ فَادَّكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية. [الإسراء: ٥٧].

وَيَدْعُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴿[المائدة ٧٦: ٧٥]

وَادَّكُرْ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿[سبأ: ٤٠، ٤١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].
فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيُّضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ،

وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ.

[الشرح]

ثمَّ بعد ذلك انتقل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إلى ذكر الشبهة الثانية والجواب عليه؛ لكن قبل ذلك فيما يتعلق بالشبهة الأولى والجواب عليها أريد أن تنبّه إلى أن قول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- في تمام جوابه على الشبهة الأولى: **(وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ)** أراد -رَحِمَهُ اللهُ- أن تقرأ عليه نوعين من الآيات:

النوع الأول: الآيات التي تُقرر أن المشركين يُقرون بأنَّ الخالق الرازق المنعم المعطي المحيي المميت هو الله لا شريك له، وهي كثيرة، وأنهم لا يعتقدوا فيمن اتخذوهم من دون الله أولياء شيئاً من ذلك، فهم لا يعتقدون في الأنداد أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتعطي وتمنع، لا يعتقدون فيها ذلك، فاقراً عليه الآيات التي تبين هذا الأمر.

النوع الثاني من الآيات: أن تقرأ عليه الآيات التي تبين أن عبادة المشركين للأصنام والأوثان واتخاذهم للأنداد؛ إنما هو من أجل أن تقرّبهم إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، فتقرأ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، تقرأ عليه الآيات في هذا الموضوع، والآيات التي تقرر أن العبادة حق لله -سبحانه وتعالى- ليس مع الله فيها شريك كائناً من كان.

بعد ذلك ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الشبهة الثانية؛ قال: **(فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ)**، متى يقول لك من اتخذ مع الله شركاء هذه الكلمة؟

(هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ) تسمعها منه إذا تلوت عليه الآيات؛ ولهذا من لا يعتني بالآيات وتلاوتها في مقام الجواب على المشركين لم يصبح مؤهلاً لدعوتهم وكشف شبهاتهم؛ لأن أساس كشف شبهات المشركين تلاوة آي القرآن الكريم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]؛ فإذا تليت عليه هذه الآيات سيقول لك -في الغالب-: هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، أي: هذه الآيات التي تتلوها عليّ نزلت فيمن يعبد الأصنام، نزلت فيمن يدعو اللات والعزى ومناة، ومن يعبد أحجاراً وصخوراً، (كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟) وهذه طريقة عند هؤلاء للتشنيع على أهل الحق وإثارة الشوشرة على أصحاب الحق؛ (كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟) نحن لم ندعُ اللات -يقولون- ولا العزى ولا مناة ولا غيرها من الأصنام، نحن دعونا الأنبياء ودعونا الأولياء ودعونا من لهم مكانة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فكيف تقرأون علينا الآيات التي أخبر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بها حال من يعبدون الأصنام؟! فهذه الآيات لا علاقة بها بموضوعنا وبأمرنا لا من قريب ولا من بعيد، لأنها تتعلق بقوم كانوا فبانوا، نزلت في أقوام يعبدون الأصنام وحاربهم النبي ﷺ وانتهى أمرهم، أما نحن مالنا ولهؤلاء وما أبعد حالنا عن حال هؤلاء؟ نحن ندعو الأنبياء وندعو الأولياء وندعو الصالحين ممن لهم المكانة العلية عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فكيف تتلون في حقنا آيات إنما

نزلت فيمن يعبد الأصنام؟

هكذا سيقول، فكيف يُجاب عن هذه الشبهة؟ أحبُّ أن أنبهك أنَّ الشيخ -رحمة الله عليه- عندما يبين لك مثل هذه الشبهات والأجوبة عنها، بيَّنَّا بعد أن دخل معتركا طويلاً مع خصوم كثر مشافهة ومكاتبة وجاهد في الله جهاداً عظيماً في تقرير التوحيد ونصرته وإبطال الشرك وبيان زيفه؛ فنفع الله -سبحانه وتعالى- بما كتب نفعا عظيماً، ولهذا يعطيك عُصارة عن خبرة وتجربة واسعة جداً في هذا الباب العظيم، وإذا خضت هذا الغمار نفعا لعباد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- سترى أنه أحسن في صنيعه أيما إحسان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

قال: **(فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ)** لازلنا باقين مع الأساس الذي يُبنى عليه الموضوع **(فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ)** بما تقدم في صدر الكتاب من تقرير لحقيقة دين الأنبياء، وحقيقة دين المشركين، وأنَّ الأنبياء دعاة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وإخلاص التوحيد له، وأنَّ المشركين دعاة لاتخاذ الأنداد والأولياء من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وتذكر له أنَّ المشركين الأول كانوا يقرون بالربوبية ويقرون أنَّ الله هو الخالق الرازق النافع الضار المعطي المانع، وأنَّ هذه الأصنام التي اتخذوها من دون الله لم يتخذوها إلا لغرض أن تقرَّبهم إلى الله؛ لأنها بزعمهم لها مكانة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فهم اتخذوها من أجل أن تقرَّبهم إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- زلفى.

(فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّا قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ)؛ يعني: إذا كان يُقرُّ لك بأنَّ المشركين الأول يقرون بالربوبية، وأنَّ الربوبية أمرها لله وحده وليست بيد

الأصنام والأوثان شيئاً من ذلك، ولكنه أراد أن يفرق بين فعله وهو دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين وبين فعل أولئك الذين يتخذون الأصنام الأحجار من دون الله، فماذا تصنع معه حينئذ؟ إذا أراد أن يفرق بين الآيات التي تلوتها عليه وبين صنيعه بأن الآيات التي تلوتها عليه إنما هي مُنْصَبَةٌ في حق من دعا صنماً من حجر أو شجر أو نحو ذلك، وأنها لا تشمل من دعا نبياً أو دعا ولياً، يقول الشيخ: إذا أراد ذلك (فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]؛ منهم من يعبد الأصنام، منهم من يعبد الشمس، منهم من يعبد القمر، منهم من يعبد الأحجار والأشجار، (وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ) القرآن دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، قل له: القرآن دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا خُصُومًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَوْلِيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ ذَلِكَ، وقل له: عِنْدِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ ذَمَّ اللَّهُ بِاطْلَاهُمْ وَضَلَالِهِمْ فِي الْقُرْآنِ لَيْسُوا فَقَطْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْأَحْجَارَ وَالْأَصْنَامَ؛ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَوْلِيَاءَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، هَكَذَا قُلْ لَهُ؛ فَإِذَا قَالَ لَكَ: أَعْطِنِ الْآيَاتِ، هَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَوْلِيَاءَ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، هَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، اقْرَأْ عَلَيْهِ الْآيَاتِ.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حال المدعوين هؤلاء؟ فتأمل في حال المدعوين من دون الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حالهم؟ أصنام؟ أحجار؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْنِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هؤلاء أولياء الله من أرفع وأعظم أولياء الله ﴿يَدْعُونَ يَبْنِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

بل عندهم أساس الولاية التي عليه تبنى وهو أن يكون مُحبًّا لله - سبحانه وتعالى - متقربًا إليه وحده، راجيًا رحمته، خائفًا من عذابه، وهذه أركان التعبد القلبية الثلاثة؛ فهؤلاء عباد الله من أولياء الله المقربين وكانوا يُدْعُونَ من دون الله، وقد قيل في معنى هذه الآية: إنها نزلت في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم هؤلاء الجن وصلحت حالهم مع الله، واستمر أولئك على عبادتهم لهم من دون الله، وقيل: إنها كانت نزلت فيمن يدعو العزير وعيسى من دون الله - عز وجل -.

فإذن هذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْنِعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ نزلت فيمن يعبد وليًا من الأولياء أو نبيًا من الأنبياء؛ على قولين: إما أنه في الأولياء أو في الأنبياء، وهي على كلا القولين حجة على أولئك القائلين أن أولئك إنما كانوا يعبدون الأحجار والأصنام.

(وَيَدْعُونَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ) أيضًا؛ قل لهم: من المشركين من كان يدعو الأنبياء والأولياء، عيسى نبي وأمه وليّة من أولياء الله، ليست من الأنبياء، الأنبياء

ليسوا إلا رجلاً، فهي من أولياء الله، أمه من أولياء الله، وعيسى نبي من أنبياء الله ومن الرسل المقربين، عبد من دون الله، وأمّه عبدت من دون الله، هو نبي وأمّه وليّة، وعُبدًا من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ؛ إذن المشركين الأول لم تكن عبادتهم مختصة بعبادة الأصنام، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، والآيات جمعت لك الأمرين، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ الآية.

هذا السياق الآن إنكار على من عبد صنماً من الأصنام؟ أم هو إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء أو ولياً من الأولياء؟ هذا السياق إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء وولياً من الأولياء، عيسى -عليه السلام- نبي وأمّه وليّة من الأولياء وعُبدًا من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وأنكر الله -سبحانه وتعالى- ذلك على من فعله ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ولو قرأت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ربما قال لك هذه نزلت في من عبد صنماً، قل له: اقرأ ما قبلها، فيمن عبد عيسى وأمّه.

قال: (وَإِذْ كُرِّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتْنَا مِن دُونِهِمْ

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]
 هذه الآية تدل على أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ عَبدَ الملائكة من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ولهذا الملائكة تتبرأ يوم القيامة من هؤلاء وأَنهم لا يرضون بذلك.

(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦])
 إذن هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أَنَّ المشركين الأول الذين ذمَّ الله شركهم في القرآن الكريم، منهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد النبي، ومنهم من يعبد الولي، ومنهم من يعبد المَلَك، ومنهم من يعبد غير ذلك؛ فيكون بذلك اتضح جواب هذه الشبهة؛ عندما يقول: هذه الآيات إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام، نحن فقط اتخذنا الأنبياء والأولياء وسطاء لنا عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ففرق بيننا وبين هؤلاء، ففي مثل هذه الحال تقرأ عليه هذه الآيات.

قال الشيخ: (فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتُ أَنَّ اللَّهَ كَفَرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ) نبينا ﷺ لم يفرق بين كُفر من عبد صنم وكُفر من عبد نبياً أو ولياً؛ بل كُفر هؤلاء باب واحد كله شركٌ بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- واتخاذ للأنداد والأولياء والوسطاء يصرفون لهم من العبادة ما لا يُصرف إلا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الصَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ؛ فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَرُ: ٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يُونُسُ: ١٨]. وَاعْلَمْ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهَمْتَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هنا شبهة هؤلاء الثالثة.

قال: (فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ)؛ إِنْ قَالَ الْكُفَّارُ؛ أَيِ: الْكُفَّارِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، وَنَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ، قَدْ مَرَّ مَعْنَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَتَكُونُ أَنْتَ أَيْضًا قَدْ تَلَوْتَ شَيْئًا مِنْهَا، فَإِذَا قَالَ لَكَ: (الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ) يريدون من هؤلاء؛ أَيِ: يَقْصِدُونَهُمْ رَاجِينَ مِنْهُمْ طَالِبِينَ مِنْهُمْ حُظُوظًا وَحَاجَاتٍ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً، (وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الصَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ)؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَكَ: أَنَا مَجْرَدٌ اتَّخَذْتُ هَؤُلَاءِ وَسَائِطَ، أَنَا لَا أُرِيدُ مِنْهُمْ ابْتِدَاءً؛ وَإِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ شَفَاعَةَ وَوَاسِطَةَ عِنْدَ اللَّهِ، فَأَنَا أُرِيدُ مِنَ اللَّهِ؛ لَكِنْ هَؤُلَاءِ جَعَلْتَهُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ وَاسِطَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْرِبُونِي إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنِّي مُذْنِبٌ وَمَقْصِرٌ وَهُمْ لَهُمْ مَكَانَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَهُ، فَأَنَا لَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مَبَاشَرَةً وَلَا أَطْلُبُ مِنْهُمْ

مباشرة؛ لأنهم لا يملكون من ذلك شيئاً؛ لكنني أريد أن يكونوا واسطة بيني وبين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

(فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ) فهذا الكلام الذي يقوله هو الآن، هل تجد بينه وبين عمل المشركين الأول فرقا؟ المشركون يقولون: نحن لا نريد إلا من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وهذه لا تنفع ولا تعطي ولا ترفع ولا تملك، والآيات مرت معنا -غير مرة- دالة على ذلك، إذن لماذا تدعونهم وتطلبون منهم؟ قالوا: من أجل أن يقربونا إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ويكونون وسطاء بيننا وبينه -سبحانه-، ولهذا قال الشيخ: (فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بَسَوَاءٍ)؛ أي: شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً، هذا نفس العمل الذي عمله الكفار الأول وهذا نفس قول الكفار الأول، حتى إنهم عندما يُسألون يجيبون بذلك؛ قال الله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ما قالوا: ما نعبدهم إلا لكوننا نعتقد فيهم أنه ينفعونا أو يدفعونا أو يرفعون أو غير ذلك، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

قال: (فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بَسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وأيضاً قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾) الآية من أولها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسائط بيننا وبين الله -تبارك وتعالى-، اقرأ عليه مثل هذه الآيات.

وبهذا يكون الشيخ قد أجاب باختصار عن أكبر الشبهات هؤلاء، ولا تزال هذه الشبهات هي أكبر ما عند القوم وتكرر منهم عند أي انتقاد يكون منهم على ما هم عليه من شرك وضلال وباطل.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: (وَاعْلَمَ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبَّةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ)؛ أي: أكبر ما يحتاج به هؤلاء هذه الشبه الثلاث.

وتأكيداً لما سبق، فإن الشيخ -رحمة الله عليه- عندما يقول لك: إن هذه أكبر ما عندهم؛ يقوله عن بصيرة وعلم بحال هؤلاء، ودخل معهم معتركا طويلاً في حياة مديدة في الجهاد والنصح بدين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فهذه أكبر ما عندهم، فأكثر الشبهات التي واجهت الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- وواجهت أيضاً المصلحين دعاة التوحيد والحق أكبر الشبهات التي يثيرها هؤلاء هي هذه الشبهات الثلاث.

قال: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَّحَهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهَّمْتَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا) إذا كان أكبر ما عند القوم أطيح به بهذه السهولة واليسر من خلال كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفهم القرآن والسنة؛ فما بعدها من شبهات القوم أيسر من ذلك.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدَعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ.

فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟، فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: بَيْنَ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ.

فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَيَبَيِّنُهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً لِلَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، وَالِدَعَاءُ مُنَحُّ الْعِبَادَةِ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقَرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ جَنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَلَاتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالْإِلْتِجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَهُمْ مُقَرَّنُونَ أَنَّهُمْ عِبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأُمْرَ؛ وَلَكِنْ

دَعَوْهُمْ، وَالتَّجَنُّوا إِلَيْهِمْ لِلجَّاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا.

[الشرح]

هذه شبهة يطرحها المُشَبَّه الذي ابتلي بغير عبادة الله -تبارك وتعالى- من حجر أو شجر أو ولي أو غير ذلك، وسبق أن ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى- ثلاث شُبُه، ذكر أنها أكبر ما عند القوم من الشبهات التي يطرحونها مخاصمةً منهم للتوحيد ومعاندةً منهم للحق، والشبه الثلاثة التي بدأ -رحمه الله- بذكرها والإجابة عنها تتلخص في:

الشبهة الأولى: هي حصرهم أو ادعاؤهم أو زعمهم انتفاء الشرك مع إقرار توحيد الربوبية، الشبهة الأولى: زعمهم انتفاء الشرك مع الإقرار بتوحيد الربوبية، وسبق أن أجاب الشيخ -رحمه الله- عن هذه الشبهة ووجه -رحمه الله- أن يُتلى عليهم من آي القرآن ما يكشف ذلك ويزيله، وسبق أيضا البيان أن الآيات التي تتلى عليه في هذا الباب نوعان من الآيات:

أولاً: الآيات التي تُبَيِّن أنَّ المشركين كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، وأن هذا التوحيد وحده والإقرار به لا يكفي ولا يُنْجِي، لا يكفي في حصول التوحيد، ولا ينجي من عذاب الله -تبارك وتعالى- يوم القيامة.

والنوع الثاني: من الآيات التي تتلى عليهم هي الآيات التي تقرر توحيد العبادة وإخلاص الدين لله -تبارك وتعالى-.

والشبهة الثانية: حصرهم الشرك في عبادة الأصنام، عندما يُخَاصِّمُونَ أو يُنْتَقَدُونَ في عبادتهم لغير الله -سبحانه وتعالى- يزعم بعضهم أن الشرك محصور في عبادة

الأصنام، وسبق أيضا جواب الشيخ على ذلك، ومن أجوبته على ذلك أن تتلوا عليهم آيات التي تقرّر أنّ المشركين الأوّل منهم من عبد الأصنام ومنهم من عبد الملائكة ومنهم من عبد الأنبياء ومنهم من عبد الأولياء ومنهم من عبد غير ذلك.

والشبهة الثالثة: زعمهم أن الكفار الأوّل كانوا يريدون ممّن يدعونهم وأنه لا يريد منهم إلا الشفاعة، ومضى أيضًا الجواب على هذه الشبهة وأن هذا هو عين فعل المشركين، فإنهم كانوا يتخذون الأنداد والوسطاء لا يريدون منهم إلا الشفاعة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فهذا ملخص ما مرّ معنا من شبهات ثلاث وأجوبة الشيخ - رحمه الله - عن ذلك مختصرا.

ثم ذكر هذه الشبهة لهم وأجاب عنها من وجهين: أجاب عنها أولاً: بجواب وافٍ كافٍ في الإقناع وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك ذكر جواباً آخر عن هذه الشبهة وهو جواب قوي، وهذه أيضاً من طريقة الشيخ - رحمه الله - في هذا الكتاب، من طريقته - رحمه الله تعالى - في هذا الكتاب أنه يجيب على الشبهة بما هو كافٍ في كشفها وبيان زيفها ووهائها، ثم يعيد الكرة بجواب آخر، وهو يشير بهذا إلى أن شبه القوم يمكن كشف زيفها من وجوه كثيرة، فيكون ذكره للوجه أو الوجهين أو الثلاثة في هذا المختصر تنبيهاً منه - رحمه الله - أن كشف مثل هذه الشبهات يكون من وجوه عديدة وبأجوبة متنوعة سديدة.

قال - رحمه الله -: «إِن قَال: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدَعَاؤُهُمْ

لَيْسَ بِعِبَادَةٍ، هذه الشبهة، إذا قال أنا لا أعبد إلا الله، معنى **«لا أعبدُ إلا الله»** أي: أن عبادتي كلها لله خالصة، لا أجعل معه شريكاً في شيءٍ منها، هذا زعمٌ يزعمه، ودعوى يدّعيها، والدعوى لا بد أن يُقام عليها البيّنة، فمن يدّعي أنه لا يعبد إلا الله فإنه يجب عليه أن يكون كذلك حقاً وصدقاً، وقول القائل: لا إله إلا الله هذه معاهدةٌ وعهدٌ وميثاقٌ، أن يُوحّد الله - سبحانه وتعالى - في العبادة وأن يُخلص الله - تبارك وتعالى - الدين، لا أعبد إلا الله؛ أي: أخلص الدين كله لله ولا أجعل مع الله شريكاً في شيء من ذلك، وهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ لكن بعض من يقول هذه الكلمة لا إله إلا الله أو أيضاً يقولها: بهذا اللفظ الذي ساقه الشيخ عنهم: «أنا لا أعبد إلا الله»، يقولها ولا يعرف حقيقة معناها، فبعضهم يقول: لا إله إلا الله، وهو لا يعرف ما نفتته هذه الكلمة ولا يعرف ما أثبتته، لا يعرف الشرك الذي نفتته هذه الكلمة، ولا يعرف أيضاً الإخلاص والتوحيد الذي أثبتته هذه الكلمة؛ ولهذا بعضهم يقول: «لا إله إلا الله» ويثبت ما نفت وينفي ما أثبتت مناقضاً لهذه الكلمة ومُراعماً لما دلت عليه من التوحيد والبراءة من الشرك والخُلوص منه، فإذا قول القائل من هؤلاء: «أنا لا أعبد إلا الله» هذه دعوى لا تكفي بحد ذاتها حتى يقيم عليها برهاناً من حاله وواقع أمره بأن يقيم وجهه لله - تبارك وتعالى - مخلصاً، فلا يجعل مع الله - تبارك وتعالى - شريكاً في شيءٍ من العبادة.

ومن يقول: لا أعبد إلا الله يُفترض لكي يكون صادقاً في دعواه: أن يكون على علم بحقيقة العبادة التي قال عن نفسه أنه لا يصرفها لغير الله، «لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئاً من العبادة لغير الله - تبارك وتعالى -، فإذا كان من يقول: «لا أعبد إلا

الله» يصرف شيئاً من العبادة لغير الله؛ فيكون بحثك معه وكشفك لخطئه بالطريقة التي ستأتي عند المصنف - رحمه الله - في جوابه لهذه الشبهة: ألا وهو أن تبحث معه في حقيقة العبادة، وأن تعرّفه بحقيقتها؛ ليتضح له أن في أفعاله ما هو مناقض لقوله ودعواه بسبب عدم فهمه لحقيقة العبادة التي ادعى بقوله أنه لا يصرف شيئاً منها لغير الله - تبارك وتعالى -، يقول: «أنا لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئاً من العبادة إلا لله - تبارك وتعالى -، هذا الكلام توحيد، «لا أعبد إلا الله» لا أصرف شيئاً من العبادة إلا لله هذا توحيد؛ لكنها من هؤلاء دعوى لا يصدقها واقع حال هؤلاء؛ ولهذا أنظر ماذا يقول بعد قوله أنا لا أعبد إلا الله: **«وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ»**، إذن هو يلتجئ لغير الله ويدعو غير الله، ويُخرج الإلتجاء لغير الله ودعاء غير الله - تبارك وتعالى - يخرج من مفهوم العبادة، ويزعم أنه ليس داخلا في العبادة.

فمثل هذه الشبهة إذا طرحها أحد هؤلاء كيف يكون جوابك له وكشفك لشبهته؟، يقول الشيخ - رحمه الله تعالى -: **«فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقْرَأُ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟»**، تقر بذلك؟ ماذا سيقول؟

هو بين أحد جوابين:

إما أن يقول: نعم، أنا أقرّ بإخلاص العبادة لله - تبارك وتعالى -، ولل كلام معه حينئذ مجال.

أو أن يقول: لا، أنا لا أقرّ بإخلاص العبادة لله - تبارك وتعالى -، وأنه يجوز أن يُصرف شيء من العبادة لغيره - تبارك وتعالى -، فهذا أيضا للكلام معه مجال آخر:

وهو أن عدم إقراره لإخلاص العبادة لله نقض لقوله: «أنا لا أعبد إلا الله».

فيقول: إذا قال نعم، إذا قلت له أنت تقر أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله فإذا قال: نعم، أي: نعم أنا أقر بأن الله افترض عليّ إخلاص العبادة له ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ويقول جل و علا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ومعنى الخالص الصافي النقي، ومعنى إخلاص العبادة لله أن يفرد وحده تبارك و تعالى بالعبادة فلا يجعل معه شريك في شيء منها ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو معنى الإخلاص في العبادة أن تجعل العبادة كلها لله، والخالص هو الصافي النقي فتكون العبادة من العابد صافية نقية لم يرد بها ولا بشيء منها إلا الله سبحانه و تعالى فتبدأ معه الحديث بقولك: هل تقر بأن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله؟ ويمكن أن تتلو عليه بعض الآيات السابقة، أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ تقر بذلك؟ أن العبادة حق لله و أنها يجب أن تخلص له تبارك و تعالى و أن لا يصرف شيء منها لغيره، تقر بذلك؟ فإذا قال لك: نعم، فتنتقل معه لبيان حقيقة العبادة، ونلاحظ هنا أن الشيخ رحمه الله يقرر طريقة بديعة جدا في مناقشة الخصم و إلزامه إلزامات قوية لا مفر لها منها، فهنا أتى الشيخ رحمه الله في جوابه للخصم من شيء يقر به، فإذا قال لك: نعم؛ معناه فيه قاعدة يقر بها الخصم و تكون منطلق لك في مناقشته، وهذا الذي طرحه الشيخ لا يمكن للخصم أن يرفضه أو ينفيه، فعندما تقول له: هل تقر أن العبادة يجب أن تخلص لله و أن الله افترض علينا إخلاصها له؟ و تقرأ عليه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فما يقول لك: أنا لا أقر بذلك، بل في الغالب -

والله تعالى أعلم - أنه سيقول: نعم أنا أقر، فإذا أصبح بينك وبينه أمر يقر به فتنتلق من خلاله لإقامة الحجة عليه وإزالة الشبهة عنه، فقل له: بين لي هذا الذي فرضه الله عليك، وهو إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك، فطالبه أن يبين لك هذه العبادة التي هو يقر بأن الله افترض عليه أن يخلصها له سبحانه، قل له: إن عرفت العبادة وبيّنت لي حقيقتها فمعرفتك بها وبحقيقتها هو الذي في ضوئه يمكن أن نعرف إمكانية الإخلاص من عدمه لأن فاقده الشيء لا يعطيه وكيف يتحقق منه أن يخلص لله وهو لا يعرف هذا الشيء الذي سوف يخلصه أو يجعله خالصا لله فإذا تبحت معه حيثئذ في حقيقة العبادة.

قال: فقل له بين لي هذا الذي فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة لله، وهو حقه عليك.

فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة، هذا دليله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو حقه عليك» دليله: حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(١)، ومنه سمي رحمه الله تعالى كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها»، لو قلت له بين لي العبادة، عرّف العبادة، ما هي العبادة؟ ستجد أنه لا يعرف العبادة، إمّا أن يعرفها تعريفا

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

خاطئاً أو أن يعرفها تعريفا ناقصاً أو أنه سوف يخرج في تعريفه لها ما هو داخل في حقيقتها مثل ما هو واضح في كلامه كلام الخصم، أنا لا أعبد إلا الله و الإلتجاء ليس عبادة فسترى فيه خللاً في هذا الجانب وهو فهم معنى العبادة، فما هي الطريقة التي تناقشه فيها من أجل إلزامه لأنه قال لك أنا ألتجأ إلى غير الله، أدعو غير الله وهذا الإلتجاء وهذا الدعاء ليس عبادة، فأنت من خلال هذا عرفت أن مفهوم العبادة عنده فيه خلل،

فتبدأ تبحث معه بهذه الطريقة، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «**فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبين له بقولك قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ نَضِرَعا وَخُفِيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**».

أتى الشيخ بهذه الآية لأنها دليل صريح واضح بين أن الدعاء عبادة، لأن الخصم يرى أن دعاءه ليس بعبادة، فأنت تأتي بآيات صريحة في أن الدعاء عبادة، وهذه الآية واضحة أن الدعاء عبادة من جهة أمر الله سبحانه وتعالى به ودلالة الآية على حبه لأهل الدعاء المخلصين له ورضاه عنهم قال: «**إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**» فمفهوم الآية أن من يدعو الله مخلصاً له سبحانه وتعالى يحبه الله جل وعلا لأنه يقوم بطاعة عظيمة وفي الحديث: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ**»^(١) وفي الحديث الآخر: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»^(٢) فالله سبحانه وتعالى يحب

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٨٦).

الدعاء و يحب عباده الداعين، «الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»^(١)، و لك أيضا أن تتلو عليه آيات أخرى في الباب مثل قول الله سبحانه و تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ سمي الله عز و جل الدعاء عبادة، و عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).

أيضا قول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾، فسمى تبارك و الدعاء عبادة، و الأدلة على هذا المعنى كثيرة، فأتت أورد له الآيات و كلما جمعت له أكبر قدر من الآيات فهذا فيه شفاء بإذن الله تبارك و تعالى، و لهذا تحرص على أن تأتي له بعدد من الآيات التي تقرر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴿٥٧﴾ و قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ١٣ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ ﴿٥٨﴾ سمي جل و علا صرف الدعاء لغيره شركا أيضا في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ و قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، فآيات كثيرة في هذا المعنى اقرأ عليه ما يتيسر لك من الآيات التي تحفظها في هذا

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، و الترمذي (٢٩٦٩)، و ابن ماجه (٣٨٢٨)، و صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٦).

ولا أنسى قصةً مرّت عليّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادّاً يديه يدعو، ثمّ ازداد في اجتهاده بالدعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثر فيّ خشوعه، ثمّ رفع صوته قليلاً في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللاً: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثاً مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أولاً بسؤاله عن صحته وعن بلده وعن أولاده وعن سفره وعن أمور عديدة، ثمّ لما اطمأنّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أهميّة الدعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنّه كان يدعو، ثمّ التفت إليّ وكأنّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبيكي يريد من الرسول عليه الصّلاة والسّلام أن يكشفها عنه ويجليّها، ثمّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبين فيه أنّ الدعاء حقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، وأنّ هذه المسألة بيّنت في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْبُئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ** [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) [الإسراء].

وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُّنَّةِ وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة من أدعية النَّبِيِّ ﷺ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

وكان إذا خرج ﷺ من بيته قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(٢).

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلًا فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(٣).

وذكرت له نماذج واضحة لا لبس فيها يفهمها العامي فضلاً عن غيره، أُنْهِيتُ وهو يسمع بكلِّ إصغاء وإنصاتٍ، فأحببتُ أن أطمئنَّ هل فهم الرجل أم لا؟ وهل

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرح عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليّ آيات وأحاديث؟!!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجبية: أنا من بلد كذا وكذا - سمى لي بلده - ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درساً أيضاً عرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتاباً من الكتب التي حوله تعرض عليه كذلك، ثمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد التي هي واضحة حُجبت وغيّبت عنه، وحُذِر أيضاً من فهمها بقواعد باطلة.

فيقول الشيخ رحمه الله: «فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فإذا أعلمته بهذا»، أي: إذا بينت له وفهمته ووضحت له أن الدعاء عبادة وأنه حق لله وتلوت عليه من الآيات ما تقيم عليه بها الحجة واحدة من هذه الآيات كافية في ذلك مثل ما قرر الشيخ رحمه الله اكتفى بآية واحدة، فإذا أعلمته بهذا «فقل له: هل علمت هذا عبادة الله؟» أي: الدعاء عبادة لله، ويجب إخلاصها له وأن لا يجعل معه شريك فيها، «فلا بد أن يقول: نعم»، لا بد أن يقول: نعم، وإن قال لك: لا، في هذا المقام فقله: لا في هذا المقام مصادمة صريحة لكلام الله سبحانه وتعالى وللآيات البينات والحجج الواضحات، «فلا بد أن يقول: نعم. والدعاء مخ العبادة» أي: خالصها، كما قال نبينا ﷺ ((الدُّعَاءُ هُوَ

الْعِبَادَةُ»^(١)، أي: خالص العبادة ولبها، «فقل له: إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعاً ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول: نعم»، فلو قلت له مثلاً: لو أقررت أن السجود عبادة و سجدت لله و أقمت السجود لله و حصل منك السجود في الليل و النهار، لكنك سجدت أيضاً لغير الله، ماذا يكون عملك هذا؟ فإذا أقررت أن الدعاء عبادة و أن العبادة حق خالص لله و دعوت الله ليلا و نهاراً ثم دعوت مع الله غيره تكون بذلك جعلت مع الله شريكاً، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا تجعلوا مع الله شريكاً، «إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهاراً خوفاً وطمعاً ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول: نعم» فلا بد أن يقول: نعم، هذا الآن تعريف للعبادة و استدلال على هذا التعريف بالقرآن بذكر فرد من أفرادها فلا بد أن يقول نعم، ولك حينئذ أن تتلو عليه بعض الآيات التي تنهى عن الشرك: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ما دمت تقر أن الدعاء عبادة و أنها حق لله فلا تجعل إلهين، لا تتخذ معبودين، الله ﷻ تدعوه أيضاً نبياً أو ولياً أو غير ذلك تدعوه مع الله جل و علا ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: معبود واحد، يجب أن يصرف له وحده تبارك و تعالى العبادة بجميع أنواعها.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعريف للعبادة آخر بذكر فرد من أفرادها وهو النحر، و

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٦).

النحر عبادة و قربى لله كما يدل على ذلك الآية التي ذكر و أيضا قول الله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال رحمه الله: «فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم»، فقرأ عليه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ إقرأ عليه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقل له لو اشتريت إليك ذبيحة و جئت و قلت باسم الله و ذبحتها متقربا بها إلى الله و أكلت منها و تصدقت، هذا العمل عبادة أو ليس عبادة؟ و الله أمرك به فقال ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي: لربك، و ضم ذكر النحر إلى الصلاة، فكما أنه لا تجوز أن تصلي إلا لله لا تسجد و لا تركع إلا له فكذلك لا يجوز أن تذبح أو تنحر إلا له تبارك و تعالى، و النحر أعظم العبادات المالية ^(١)، قال فإذا عملت بقول الله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ و أطعت الله و نحرت له هل هذه عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإن نحرت إلى مخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ لا بد أن يقر و يقول: نعم، إن لم يقل: نعم، فقد ناقض هذه الآيات البينات، أيضا العبادات الأخرى، و نضرب بمثال ثالث إضافة إلى ما ذكر الشيخ و هي عبادة الالتجاء، لأن السائل أو المخالف يقول و هذا الإلتجاء إليهم و دعاؤهم ليس عبادة، الإلتجاء: هو طلب عون من الله، واللجوء إلى الله عبادة يطلب فيها عونه سبحانه و تعالى، وهو فرار إلى الله تعالى، و هذه عبادة،

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَأَجَلُ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَةِ النَّحْرُ وَأَجَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ» «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٣٢).

ثبت في «الصحيحين» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُمْ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ»، قال: فَرَدَدْتُهِنَّ لَأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: أَمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: «لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

فهذا توحيد لا ملجأ إلا إلى الله أي: أنه ليس هناك من يلجأ إليه ويعتمد عليه ويتوكل إليه ويفوض الأمر إليه إلا الله، فقلوه لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك هذا توحيد، وضده ما هو؟

هذا الذي يقوله القائل و اللجوء ليس عبادة هذا مناقضة لقول النبي ﷺ المتكرر كل ليلة عندما يأوي إلى فراشه: ((لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ)) و إذا كان يلتجئ إلى النبي ﷺ لك أن تقول له هذا الذي تلتجئ إليه كل ليلة إذا أوى إلى فراشه يقول ((لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ)) يخلص اللجوء إلى الله، فكيف تجعل من يخلص لجوءه إلى الله ندا لله تلجأ إليه؟! فاللجوء عبادة ولا يجوز أن يصرف إلا لله تبارك وتعالى، ولهذا ينبغي أن تلاحظ في مثل هذه الأجوبة أن تكون مرتبطة بالقرآن و الحديث التي تكشف ضلال هؤلاء و تبين زيف شبهاتهم، فهذا الجواب الذي مضى مقنع و كاف في إزالة الشبهة لكن أعاد الكرة بجواب آخر مسدد في كشفها، وهو ينبّه طالب العلم أن كشف الشبهات متيسر و متهيو لمن

ارتبط بالقرآن من خلال وجوه كثيرة و أجوبة عديدة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وقل له أيضا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم».

قل له: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا؛ فماذا تفعل؟ يقول الشيخ: لا بد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا؛ لم يكونوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين فتقرأ عليه الآيات التي ذكرها الشيخ رحمه الله قريبا وتقرر أن المشركين الأول منهم من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الأنبياء ومنهم من كان يعبد الصالحين، فيقول الشيخ قل له: «هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ لا بد أن يقول نعم»، فقل له حينئذ: «وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح، والالتجاء ونحو ذلك؟» هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره»، افرض أنك قلت له هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وقال لا لم تكن عبادتهم في الدعاء ماذا تصنع؟ تقرأ عليه الآيات التي تدل دلالة واضحة صريحة أن عبادتهم لهم كانت في الدعاء وكانت أيضا في الذبح وكانت أيضا في الالتجاء، مثل ما مر معنا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذه الآيات صريحة

أن من ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الدعاء، ومن ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الذبح، فكانوا يذبحون لله و يذبحون لغير الله ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ فكانوا يذبحون لله و يذبحون أيضا لغير الله و لهذا قال ﷺ ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ))^(١) فتقرأ عليه الآيات التي تدل أن هؤلاء كانوا يعبدون غير الله بالدعاء و يعبدون غير الله بالذبح و يعبدون غير الله بالالتجاء، يقول الشيخ فقل له: «هل كانت عبادتهم إياهم إلا بالدعاء و الذبح و الالتجاء و نحو ذلك؟» فهو رَحِمَهُ اللَّهُ بين لك أن الخصم إما أن يقول لك: نعم أو يقول: لا، فإن قال: نعم؛ خصمته بذلك و كشفت باطله، و إن قال: لا؛ فإنك تقرأ عليه من الآيات ما أشرت إلى بعضها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره» أي: المشركون الأول مقرون أنهم عبيده، لأن العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته و عبودية لألوهيته، فقلوه أنهم مقرون أنهم عبيده أي: لربوبية الله بمعنى أنه ربهم خالقهم رازقهم محييهم مميتهم، والمتصرف فيهم، مقرون بذلك، أي: ممالك له، بل يقرون أن من يعبدونهم من دون الله أيضا ممالك لله و عبيد له مثل ما في تلييتهم (ليك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك)، تملكه أي: مملوك لك تحت قهرك و تصرفك و تدبيرك، فيقرون أنهم عبيد لله و تحت قهر الله و يقرون أن من يدعوهم من دون الله أيضا كذلك عبيد لله و تحت قهره جل و علا، والعبودية هنا للربوبية و ليس المراد بها العبودية الألوهية في مثل قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ و إنما

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).

المراد بعبيده هنا في مثل قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي: ذليلاً خاضعاً لله.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجؤوا إليهم للجاء والشفاعة وهذا ظاهر جداً».

هذا الإقرار هو توحيد الربوبية الذي كان يقر به المشركون لكنه لا يكفي و لا ينجي: لا يكفي في كون العبد موحداً، و لا ينجي، أي: من النار و عذاب الله سبحانه و تعالى، فهو لا يكفي ليكون به العبد موحداً و لا ينجي أيضاً من عذاب الله جل و علا يوم القيامة، «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره و أن الله هو الذي يدبر الأمر و لكن دعوهم و التجؤوا إليهم للجاء و الشفاعة، ولكن دعوهم» أي: المشركون الأول، «والتجؤوا إليهم»، دعوا هذه الأصنام و لتجؤوا إليها من أجل ماذا «للجاء و الشفاعة و هذا ظاهر جداً» من حالهم، فإذا ما الفرق بين حال هذا الذي يقول أنا لا أعبد إلا الله و هذا الالتجاء إليهم و دعاؤهم ليس بعبادة ما الفرق بين حاله و بين حال المشركين الأول، فإذا بهذين الجوابين انكشفت هذه الشبهة و زال و ظهر عوارها.



[المتن]

قال رحمه الله تعالى: «فإن قال أنكر شفاعَةَ رسولِ الله ﷺ وتبرأ منها؟

فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها. بل هو الشافع المشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعَة كلها لله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ولا يُشفع في أحدٍ إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فإذا كانت الشفاعَة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد؛ تبين لك: أن الشفاعَة كلها لله، وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفّعه في، وأمثال هذا».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله تعالى شبهه أخرى لهؤلاء: «فإن قال: أنكر شفاعَة رسول الله ﷺ وتبرأ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو الشافع المشفع، وأرجو شفاعته».

هذه الآن شبهه أخرى للقوم، وأريد التنبيه قبل الدخول في هذه الشبهه والجواب عليها إلى أمرين:

الأمر الأول: الشيخ رحمه الله يذكر لك هذه الشبهات بعد المقدمات التي نفّعك

الله سبحانه وتعالى بها، على افتراض أن تطرح عليك أو يطرح عليك قريب منها لكن لا يلزم أن يطرح عليك كل واحد من هؤلاء المبتلين بهذا الباطل مثل هذه الشبهات.

فكثير منهم يكون دخل في الباطل وليس في ذهنه عندما دخل هذا الباطل إلا شبهة أو شبهتين أدخلته في الباطل، وبعضهم ممتلئ بالشبهات ولهذا من يقع في هذا الباطل بعضهم عنده شبهة وبعضهم بعض الشبهات فأدخلته في الباطل فإذا كشفتها عنه زال عنه الاشتباه بإذن الله، وبعضهم قد يكون ممتلئاً بالشبهات الكثيرة فمثل هذا ربما يستمر معك في المناقشة الوقت الطويل إلى أن ينقطع، أما بعض هؤلاء فبعض الأجوبة مما مر كاف بإذن الله إلى الحصول على الاقتناع والرجوع إلى الحق والهدى.

لكن طالب العلم يحتاج أن يكون مسلحاً بهذا العلم الرصين والكلام المتين في أي حال من الأحوال فيكون عنده نفس في كشف شبهات القوم، وإذا ضبطت هذا الكتاب ضبطاً متقناً تستطيع بإذن الله أن تجيب على جُل الشبهات التي يطرحها هؤلاء القوم لأنها إما أن يكون وضعها مجرد اختلاف العبارة وطريقة الطرح، أو أشياء من هذا القبيل، فالشيخ يذكر لك هذه الأنواع ويجب عليها لتكون سلاحاً لك، ولا يلزم من ذلك أن كل من تلقاه ممن يقع في هذا الشرك أن يكون على معرفة بهذه الشبهات.

وبعضهم قد يكون معانداً ومكابراً يعرف أن الذي عندك هو الحق لكنه لا يقبله منك، إما خشية ضياع رئاسة أو ضياع جاه أو ضياع أشياء من هذا القبيل، ولا يلزم

من ذلك أن يكون الأمر مشتبها عليه.

الامر الثاني مما انبه إليه هو: ارتباط الشيخ رحمه الله الواضح بالقرآن الكريم وبكتاب الله ﷻ وبسنة النبي ﷺ ولهذا تراه في كشف الشبهات كلما أقدم على كشف شبهة يذكر الآيات القرآنية، آية أو آيتان فهي كافية في إزالة الشبهة وهذا من علاج الأمراض التي قد تكون في بعض الناس فشفأوها بالقرآن، والله ﷻ وصف القرآن بأنه شفاء، شفاء لكل الأمراض، وأعظم الأمراض الشرك، ولهذا يحتاج هؤلاء إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم، فتقرأ عليهم آيات وتبين لهم معانيها، وتوضح تفسيرها، ولعل الله سبحانه وتعالى يجعل فيها شفاء لأمراض هؤلاء.

قال رحمه الله: (فإن قال: أتنكر شفاعه النبي - ﷺ - وتبرأ منها؟) وهذه طريقه معروفة عند هؤلاء أنهم يحاولون إظهار الشناعة على أهل التوحيد والتشنيع عليهم فيأتي في مثل هذا المقام ويقول: أنت تنكر شفاعه النبي ﷺ! أو ربما قال لك: أنت تنكر جاهه ومكانته عند الله! أو ربما قال لك: أنت تنكر فضل الأولياء! ومكانة الأولياء عند الله، ومنزلة الأولياء عند الله!

ربما يقول لك هذا الكلام فيماذا تجيبه؟ قال رحمه الله: «فقل: لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو - ﷺ - الشافع المشفع وأرجو شفاعته» معنى تبرأ منها: تقول إنني أبرأ من كون النبي ﷺ شفيعا.

ولا ينكر الشفاعه إلا ضلال الخلق ولا ينكر أن النبي ﷺ إلا الكفار من اليهود والنصارى أو ضلال الفرق المبطله من أهل البدع والضلال.

قل: لا أنكرها وإذا تريد أن أقرأ عليك من الآيات والأحاديث التي تقرر كونه

شفيعاً قرأت عليك مما تعرفه وما لا تعرفه تريد أن أذكر لك من الآيات التي ثبت أنه ﷺ أعطي الشفاعة؟ وأنه الشافع المشفع هذا أمر لا ينكره من يعرف القرآن والسنة ولا يتبرأ منه من يعرف القرآن والسنة وحاشا أن ننكر ذلك.

والمخالفون فعلهم هذا نوع من المغالطة لإظهار الشناعة على أهل الحق، فهو عندما يقول لك تنكر الشفاعة؟ يقولها لأن مفهومه للشفاعة خاطئ. ولما رآك لا تفهم الشفاعة على فهمه أظهر الشناعة بقوله تنكر الشفاعة!

ما الذي يفهمه هو من الشفاعة؟ يفهم من الشفاعة المعنى الذي أنكره الله على المشركين ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الذي يفهمه من الشفاعة هو هذا المعنى اتخاذ الأنداد من الأنبياء أو الأولياء أو الملائكة ودعائهم وسؤالهم وإذا قيل له لماذا؟ يقول: هؤلاء شفعاء لنا عند الله وسطاء لنا عند الله يقربونا إلى الله سبحانه وتعالى.

فلما كان مفهومه للشفاعة مغلوطة قال هذه المقالة قال: (تنكر الشفاعة وتبرأ منها) فقل له: أنا لا أنكر الشفاعة ولا أتبرأ منها بل الشفاعة ثابتة وحق وأثبتها الله سبحانه وتعالى في القرآن وأثبتها النبي ﷺ في السنة وهو ﷺ أعطي الشفاعة وهو أعظم شافع ﷺ وهو الشافع المشفع صلوات الله وسلامه عليه فلا أنكر ذلك وله الشفاعة العظمى يوم القيامة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وله شفاعات اختص بها يشفع لأهل الجنة في أن يدخلوا الجنة وله شفاعات يشاركه فيها الأنبياء والملائكة والصالحين لا أنكر ذلك.

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ) هذا للتكثير. ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] فالشفاعة ثابتة لا أنكرها ولا أتبرأ منها «بل هو - ﷺ - الشافع المشفع وأرجو شفاعته» وأرجو: أي: من الله سبحانه وتعالى، لأن شفاعته ﷺ لمن يشفع له بإذن الله ويبد الله وهي ملك لله سبحانه وتعالى. «وأرجوا شفاعته»: أي أسأل الله ﷻ أن يجعله شفيعا لي يوم القيامة.

فبهذه الكلمتين «لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو - ﷺ - الشافع المشفع وأرجو شفاعته» تكون قد أزلت ما أراحه من الشناعة على صاحب الحق، ولو قال لك: تنكر جاهه ﷺ؟، فتقول له: أبرأ الى الله أن انكر جاهه من ذا الذي ينكر هذا؟! فإذا كان الله سبحانه وتعالى قال عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال عن عيسى ﷺ: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] ونبينا ﷺ جاهه عند الله اعظم جاه ومكانته عند الله أعظم مكانة ومنزلته عند الله أعظم منزلة.

من الذي ينكر مكانه وجاهه ومنزلته؟!، «ولكن الشفاعة كلها لله». - انظر الى التوحيد - ما معنى الشفاعة كلها لله؟ أي: ملك لله، الشفاعة كلها لله ملك لله. نبينا ﷺ لما قال في الحديث: ((وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ))^(١) من الذي أعطاه إياها؟ مالکها رب العالمين سبحانه وتعالى.

«أعطيت الشفاعة»: يعني أعطاني الله ﷻ الشفاعة.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

كُلُّ نَبِيٍّ دَعَوْتُهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١)

فقله رحمه الله: «ولكن الشفاعة كلها لله» ضع عليها رقم واحد لأنه سيأتي أجوبه متسلسلة مترابطة بمجموعها هي تعري شبهه هؤلاء، وكل واحدة مبنية على ما قبلها.

«ولكن الشفاعة كلها لله» أمر أول تبيينه له الشفاعة كلها لله كلها أيا كانت ولمن كانت لله سبحانه تعالى ومعنى لله أي: ملك له كما قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وباتفاق المفسرين من أهل الحق والبصيرة بكتاب الله اللام لام الملك لله الشفاعة جميعا أي: ملك لله مثل قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: هو المالك سبحانه وتعالى لما في السموات والأرض فكل ما في السموات والأرض ملكه. فله الشفاعة جميعا أي: الشفاعة كلها ملك لله هذا واحد، الدليل ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] هذه الآية وردت في سياق قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ٤٣ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ الآن المقام إبطال ما عليه المشركين من اتخاذ الشفعاء والأنداد ففي هذا السياق قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أي: الشفاعة كلها ملك لله سبحانه وتعالى قال الله جل وعلا ذلك في إبطال دعوى المشركين في اتخاذ الأنداد مع الله زاعمين أنهم شفعاء لهم عند الله

فأبطل الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

فمن اتخذ ندا مع الله تعالى يدعوهُ ويلتجئُ إليه أيا كان هذا الند ثم قال: أنا أريد بذلك أن يكون شفيعاً لي عند الله، فاقراً عليه قول الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]: أي: الشفاعة كلها ملك لله هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني قل له: «ولا تكون إلا من بعد إذن الله» أي: لا يمكن لأحد كائناً من كان أن يشفع عند الله ابتداءً لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي ولا غيرهم؛ بل لا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له ولهذا نبينا ﷺ كما في «الصحيحين»، قال النبي ﷺ: «فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ازْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ»^(١). فهل يشفع ابتداءً؟ لا؛ ليس لأحد أن يشفع عند الله حتى أكرم الشفعاء وأعظمهم نبينا ﷺ لا يشفع عند الله إلا من بعد إذن الله.

قال رَسُولُ اللَّهِ: «ولا تكون إلا من بعد إذن الله، كما قال - ﷺ -: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة: ٢٥٥]» هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: «ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه»؛ بعد أن يأذن الله فيه: أي في هذا المشفوع له؛ والمراد أن يرضى الله عنه أن يرضى الله عن المشفوع له قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

إذا مر علينا أمور ثلاثة في الشفاعة:

الشفاعة ملك لله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

ولا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الأمر الثالث: أنه لا أحد يُشفع له عند الله إلا إذا رضي الله عنه رضاه سبحانه وتعالى عن المشفوع له ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].
وجمع الله سبحانه وتعالى بين الإذن والرضا في قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].
يأذن الله: أي للشافع ويرضى: أي عن المشفوع له.

الأمر الرابع: قال رَحِمَهُ اللهُ: «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]: الصحابة رَضُوا بِاللهِ كانوا يدركون هذه الحقيقة في باب الشفاعة وأن شفاعَةَ النبي ﷺ لا ينالها كل أحد. ولهذا جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١)، لأن التوحيد أساس لا بد منه ليكون العبد بذلك مؤهلاً لأن يشفع له الشفعاء يوم القيامة ومن يأتي يوم القيامة مشركاً متخذاً الأنداد والشركاء بأي اسم كان، وبأي صفة كانت ليس أهلاً لأن يشفع له، لأن الله لم يرض قوله ولا عمله.

والأدلة دلت أن الله سبحانه وتعالى «لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والدليل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل

عمران: [٨٥].

كذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ واعتبر في هذا الباب من قصة ابراهيم الخليل عليه السلام في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَزَرٌ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلِكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١). فالشاهد أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فكيف تطلب الشفاعة بفعل ما يناقضها ويضادها؟

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]».

قال رحمه الله: «إِذَا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ - ﷺ - وَلَا غَيْرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ، وَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ».

هذا تلخيص لما سبق يقول الشيخ: فإذا كانت الشفاعة كلها لله: هذا واحد ولا تكون إلا من بعد إذنه: اثنين، ولا يشفع النبي صلى الله عليه وآله ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه هذا الثالث والرابع ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد.

النتيجة: «تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلُّهَا لِلَّهِ فَأَطْلُبْهَا مِنْهُ»: فلا يلجؤ في طلبها إلا من الله

وبهذا يظهر فساد شبهة الخصم.

فهذا حال الموحّد تقول له: (واطلبها منه فأقول) وهذا من دقة بيان الشيخ رحمه الله لأنه يبين حال الموحّد الذي يمشي على المنهج الصحيح والنهج السديد في باب الشفاعة أنا لا أنكر الشفاعة ثم تبين له حقيقة الشفاعة ثم تبين له حالك يا من وفقك الله في هذا الباب بعيدا عن ضلال أولئك تقول: «**أطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعة، اللهم شفعه في، وأمثال هذا:**» أما من لم يفهم هذه النقاط المبيّنة في القرآن والسنة فيقول: (يا رسول الله اشفع لي) فيكون قد طلبها من غير المالك والمالك هو الله سبحانه وتعالى وهي ملك لله والنبي ﷺ لا يشفع لأحد إلا إذا أذن الله له ولا يشفع إلا لمن رضي الله قوله والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فالذي يريد الشفاعة يطلبها من المالك ولهذا يقول: (أطلبها منه فأقول)، لم يقل له: (تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه) وإنما قال (تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه) ؛ أي هذا حال الموحّد الذي يفهم هذه الحقيقة فإن فهمت هذه الحقيقة واستقرت في قلبك كنت من أهل التوحيد

«**أطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعة، اللهم شفعه في، وأمثال هذا:**» أي: أمثال ذلك من العبارات التي تصدر من أهل التوحيد الذين لا يلجؤون إلا إلى الله سبحانه وتعالى لا يدعون إلا الله تعالى ولا يطلبون إلا من الله سبحانه وتعالى.



[المتن:]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فَأَطِيعُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ. وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

[الشرح]

هنا ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ شبهة أخرى من الشبه التي يتعلق بها من يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويلتجئ إلى غير الله، وذكر رَحِمَهُ اللهُ هذه الشبهة بعد شبهة أخرى، قبل هذه الشبهة تتعلق بالباب نفسه (باب الشفاعة)، حيث ذكر قول هؤلاء عن الموحد، قولهم: (أَتُنَكِّرُ الشَّفَاعَةَ وَتَتَبَرُّ مِنْهَا؟)، وأجاب رَحِمَهُ اللهُ عن ذلك بأن أهل الإيمان والتوحيد ليسوا منكرين للشفاعة؛ بل هم مؤمنون بها، وأن شفاعة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- حق، وشفاعة الملائكة حق، وشفاعة الصالحين حق، كل ذلك يؤمنون به؛ لكن دلت دلائل الكتاب والسنة على أمور بينها رَحِمَهُ اللهُ هي تُعد ركائز في باب الشفاعة لا بد من ضبطها:

الأولى: أن الشفاعة ملك لله، والثانية: أنها لا تكون إلا بإذن الله، والثالثة: لا تكون إلا برضا الله عن المشفوع عنه، والرابعة: أنه -جل وعلا- لا يرضى إلا عن أهل

التوحيد: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾
[آل عمران: ٨٥].

فلما ذكر ذلك، انتقل إلى ذكر شبهة أخرى، قال: (فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ؟)، النبي ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وهذا حق كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الصحيح: ((وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ))^(١) ومعنى أُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ أي: أعطاني الله الشَّفَاعَةَ؛ لأن الشَّفَاعَةَ ملك لله ولا سبيل لأحد أن يشفع عند الله، إلا إذا أذن له المالك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قال: ((أُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ)) أي: أعطاني الله الشَّفَاعَةَ، ويوم القيامة يقول الله له: «يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلِّ تَعْطَةَ»^(٢)، فهو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وهو الشافع المشفع -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) يعني هذا شيء أعطاه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لِنبيه -ﷺ- وأنا أطلب مما أعطاه الله، «أطلبه» أي: أطلب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والطلب هنا أن يكون النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شافعاً له يوم القيامة وهذا عبادة والتجاء، والالتجاء لا يكون إلا لله والشَّفَاعَةَ ملكه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ فقلوه (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) أي: أطلب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا الطلب منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والتوجه إليه والالتجاء إليه في هذا الباب عبادة هي حق لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فبِمَ يُجَاب؟ قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

تَعَالَى - فالجواب: (أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أعطاه الشفاعة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ((أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)) (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عما عبرت عنه بقولك (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) هناك عن هذا في أي كثيرة، نهى فيها - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عن دعاء غير الله وسؤال غير الله والالتجاء إلى غير الله، ومن شفع له النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام يوم القيامة فاز فوزاً عظيماً ونجا من عذاب الله وفاز بدخول الجنان، والفوز العظيم والنجاة من النار ودخول الجنة كل ذلكم بيد الله، فلا يُطلب إلا من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فقلوه (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) هذا باطل ومناقض للتوحيد، ومناقض للإخلاص الذي أمر أن يكون عليه العبد ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الإسراء: ٥٦] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥] والآيات في هذا الباب كثيرة؛ فقلوه (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فهذا مخالفة ومناقضة للتوحيد.

قال: (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عن هذا التوجه والطلب والالتجاء إلى غير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ و﴿أَحَدًا﴾ جاءت نكرة في سياق النهي فأفادت العموم أي: أي أحد كان، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأً ولا ولياً من الأولياء، لا تدعو مع الله أحداً؛ بل ليكن دعاؤك وتوجهك والتجاؤك إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وإذا كنت تريد شفاعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام وترجو أن تكون ممن يشفع لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام فتفوز فوزاً عظيماً فاطلبها من الله المالك، قل مخلصاً موحداً ملتجئاً إلى الله: «اللهم شفع في نبيك» أو «اللهم اجعل نبيك شافعاً لي» أو «اجعلني ممن يشفع لهم نبيك ﷺ» أو نحو هذه العبارات التي يكون فيها

الالتجاء إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولا تُنال شفاعته النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا بالإخلاص، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١)، وقول هذا القائل (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) هذا مناقضة للإخلاص الذي تُنال به الشفاعته^(٢).

قال: (﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾).

(إِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ) لعل المراد - كما قال الشيخ محمد بن ابراهيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - «إذا كنت ترجو الله أن يشفع نبيه فيك»، ترجوه أو تطمع أن يكون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شفيعاً فيك أي: يوم القيامة فأطعه، إذا كنت ترجو الله أو تطمع من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعاً لك يوم القيامة فأطعه في قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، الذي أعطى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعته هو الذي قال لك في القرآن ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فإذا كنت تريد أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعاً لك يوم القيامة فلا تدعو مع الله أحداً؛ لأن الله نهاك عن ذلك وحرمه عليك وتوعد فاعله بأشد الوعيد وأشد العقاب فلا تدعو مع الله أحداً؛ بل أخلص الدعاء لله، وفي هذا الباب باب

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «طلب الشفاعته إنما هو من الله، وأنت تأخذ بالأسباب، تتقي الله، تؤمن به، توحده سبحانه، تترك الإشراك به، تتجهّد في ترك المعاصي، ومع هذا تقول: اللهم شفّع في نبيك، اللهم شفّع في عبادك الصالحين، اللهم شفّع في أفراطي، ومع هذا كله مع الطاعة والاستقامة لا تدأ بنفسك وعملك، ولا تأمن، ولا تأمن على الله، ولا تعجب بعملك..» «شرح كشف الشبهات» (ص ٦٣).

الشفاعة أخلص أيضاً الدعاء لله، قل «اللهم» لا تقل «يا نبي الله» ولا تقل «يا ملائكة الله» ولا تقل «يا أولياء الله» ولا تقل «يا ولي فلان» أو «يا شيخ فلان»؛ إنما قل: «يا الله»، «اللهم»، «يا رب اجعلني ممن يشفع لهم نبيك وملائكتك» أو نحو ذلك، ولا تتوجه لغير الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بسؤال أو طلب لأن هذا مخالفة صريحة لما نهاك الله عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، هذا جواب من الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- على هذه الشبهة وهو كاف في كشفها.

ثم زاد -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- جواباً آخر، قال: (وَأَيْضًا) أي: أيضاً في الجواب على هذه الشبهة نفسها يقالك (فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ) أي: دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن غير النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، مثل الملائكة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وأيضاً الأفرات يشفعون، وفَرَطَ الإنسان من يموت من ولده صغيراً فيسبقه إلى الدار الآخرة، يشفع لوالديه، الأفرات يشفعون. قال: (فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطُ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ)، من كان مؤمناً تقياً من أولياء الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فإنه يشفع يوم القيامة، قال: (فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطُ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُم الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟) إذا قلت له هذه الكلمة هو بين أمرين:

إما أن يقول: لا، لا أطلبها منهم، مع أنهم أعطوا الشفاعة لا أطلبها منهم؛ بل أطلبها من الله، فحينئذ ناقض نفسه وظهر فساد مذهبه من خلال كلامه وتناقضه. وإما أن يقول: بل أطلبها منهم أي: من الملائكة ومن الأفرات ومن الأولياء،

ويكون بهذا دخل في الشرك من أوسع أبوابه والعياذ بالله.

قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ) يعني إن قلت أنا أطلبها منهم أي: أطلبها من الملائكة والأولياء ومن الأفرط، ألتجئ إلى هؤلاء كلهم في طلبها، رجعت إلى عبادة الصالحين وشرك الأولين شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً، التي ذكرها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في كتابه، أي في مثل قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يعبدون من دون الله أي: يلتجئون إلى غير الله ممن لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؛ فالولي ومن فوقه ومن دونه لا يملك لأحد ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا جنة ولا ناراً ولا سعادة ولا شقاء لا يملك ذلك، لأن ذلك كله ملك الله -جل وعلا-؛ فمن طلبها من الأولياء ومن الملائكة طلبها ممن لا يملك ذلك، وجعل من لا يملك ذلك شريكاً للمالك، فرجع إلى عبادة الصالحين التي كان عليها المشركون الأول، قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذَا) أي: إن قلت أنا أطلبها منهم (رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ).

وأيضاً مما يجب به على هذه الشبهة والأجوبة كثيرة قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لفاطمة بنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّبِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»^(١).

ويجاب عنها أيضاً بقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للرجل الذي قال: «يا

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة»، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيتُه بوضوئه وحاجته فقال لي: «سَلْ» فقلتُ: أسألكَ مُرافقتك في الجنة. قال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قلتُ: هو ذاك، قال: «فَاعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

أي الله، إذا كنت تريد مرافقتي للجنة أكثر من السجود لله، وعندما يسجد الله يطلب من؟ عندما يضع جبهته لله ساجداً وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فالذي يريد مرافقة النبي عليه الصلاة والسلام في الجنة عليه أن يكثّر من السجود لله - ﷻ - أي تسجد له متذلاً له خاضعاً داعياً طالباً منه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، أرشده عليه الصلاة والسلام إلى الطريق.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا حَاشَا وَكَلَّا، وَلَكِنَّ الْإِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشْرِكٍ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا، وَتُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ؛ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي. فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟».

[الشرح]

ثم ذكر الله تعالى هذه الشبهة لهؤلاء (فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) يعني نفى عن نفسه الوقوع في الشرك كله، (لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) هذه نكرة تفيد العموم في قوله (شَيْئًا)؛ فإذا نفى عن نفسه الشرك (قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) أبرأ من الشرك ومن أن أكون من أهل الشرك أو أكون من المشركين (لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا حَاشَا وَكَلَّا) حاشا أن أكون من أهل الشرك وكلا، أي: لست منهم ولا على طريقتهم، (وَلَكِنَّ الْإِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشْرِكٍ) لا أعدّ هذا شركاً، أنا لا أشرك وأرى أن الشرك محرم، حرّمه الله وأن الله يعاقب عليه يوم القيامة أشد العقوبة، مُقر بذلك وأنا لست من أهل الشرك (وَلَكِنَّ الْإِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشْرِكٍ) الالتجاء أي: اللجوء إليهم طلباً وتذلاً وطمعاً ورجاءً ورغبة، يلجأ إليهم في نوائبه وفي حاجاته؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء في باب الالتجاء أنه عند الشدائد والكربات، لا يلجأ إلا إلى غير الله، ممن تعود الالتجاء إليهم في رخائه وسرّائه، فصار الحال عنده سواء في الشدة والرخاء والسراء والضراء، لا يلجأ إلا إلى غير الله، وبعضهم

يلجأ إلى الله ويلجأ أيضاً إلى غير الله، وقد كان المشركون الأول في مثل هذه الحال لا يلجؤون إلا إلى الله، فإن قال (وَلَكِنَّ الْاِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ)، الآن أخرج هو من الشرك ما هو داخل فيه، وما هو نوع من أنواعه فكيف تعالج هذه المشكلة؟ يقول لك: الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك؟ سواء قال لك الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك أو قال لك الدعاء ليس بشرك أو قال لك الذبح ليس بشرك أو أخرج لك نوع من أنواع الشرك من الشرك، فكيف تكون المعالجة لذلك؟ قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا وَتُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ) حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا لأنه أشد المحرمات، ولهذا في القرآن والسنة في باب النواهي يُقَدَّمُ الأشد تحريماً على ما دونه في الحرمة كما في قوله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] ثم بعدها بآيات قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ ففي باب النواهي في القرآن يُقَدَّمُ الأشد والأخطر، وهكذا في السنة: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(١) بدأ بالشرك ثم ذكر بقية المحرمات ومنها رمي المحصنات؛ أيضاً في باب الأوامر يُبَدَأُ بالأمر بالتوحيد، فالتوحيد أعظم شيء أمر الله به والشرك أعظم شيء نهى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عنه فهو أشد، أشد حرمة من الزنا ومن القتل ومن عموم المحرمات ولهذا قال الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿وَمَنْ

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

أَصْلُ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف ٥: ٦] وهذا أمر ربما بعض العوام أو الجهال لا يدركه أو لا يستشعره، ولهذا يُذكر أن أحد أهل العلم أراد أن يمتحن فهم الناس للتوحيد ومكانته، فذكر لهم حال رجل اعتدى على بيت وانتهك عرض امرأة في البيت، ومارس معها الفاحشة ووصف لهم هذه الحال فضج من حوله مستنكرين، في يوم آخر ذكر لهم حال رجل بنى بيتاً وأراد أن يسكنه فقيل له: لكي تُحفظ وتوقى في بيتك اذبح لك شاة أو دجاجة للجن أو شيئاً من هذا القبيل من أعمال أهل الشرك في التقرب إلى غير الله، فما رأى عليهم استنكاراً؛ فبعض الناس ربما يجهل ذلك وربما بعضهم لا يستشعر ذلك، يعني يتغيّظ لرؤية فاحشة لزنا وتغيظه في محله؛ ولكن لا يتغيّظ لحصول الشرك الذي هو أعظم العدوان وأظلم الظلم وأكبر الإجرام.

قال: (وَتُقَرَّرَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ) أي: كما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] أي: من مات على ذلك، أي: على الشرك فلا مطمع له في مغفرة الله، كما قال - جل وعلا - في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ﴾ [فاطر: ٣٦] يقول له الشيخ: (إِذَا كُنْتَ تُقَرَّرَنَّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشَّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا، وَتُقَرَّرَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ؟) ما هو الشرك الذي حرمه الله؟ عرّفه لي، بين لي حقيقته (فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) لماذا قال الشيخ - رحمه الله - (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي)؟ وقالها قبل أن

يَسْمَعُ الْجَوَابَ؛ لِأَن قَوْلَهُ الْمَسْبُوقُ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ، وَالِاتِّجَاءُ لِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِشَرِكٍ، هَذَا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً أَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا هُوَ الشَّرِكُ، وَلِهَذَا قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَدْرِي وَيَعْرِفُ حَقِيقَةَ الشَّرِكِ لَمَا قَالَ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، وَلِهَذَا إِذَا قُلْتَ لَهُ عَرَّفْ لِي الشَّرِكَ سَتَرَى أَنَّهُ إِمَّا لَا يَجِيبُ بِشَيْءٍ، يَعْنِي سَيَقُولُ لَكَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِلَفْظِهَا «لَا أَدْرِي» أَوْ «لَا أَعْرِفُ»، أَوْ يَجِيبُ بِأَجُوبَةٍ خَاطِئَةٍ مِنْ جِنْسِ جَوَابِهِ الْأَوَّلِ؛ قَالَ: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) يَعْنِي لَا يَدْرِي، سَتَكْتَشِفُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْجَوَابَ، قَالَ (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) أَي: لَا يَدْرِي مَا هُوَ الشَّرِكُ، وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا «كَيْفَ يَتَّقِي مَنْ لَا يَدْرِي مَا يَتَّقِي»^(١) الَّذِي لَا يَدْرِي مَا هُوَ الشَّرِكُ كَيْفَ يَتَّقِيهِ؟ وَلِهَذَا قَوْلُهُ السَّابِقُ هُوَ فَرْعٌ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِالشَّرِكِ وَبِحَقِيقَةِ الشَّرِكِ، قَالَ: ((فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي)).

قَالَ: (فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟) لَاحِظْ أَنَّكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقُولَ لَهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟) رُبَّمَا قَبْلُهَا تَمَرُّ بَعْضُ الْمَحَاوِرَاتِ مَعَهُ، حَسَبَ حَالِ الرَّجُلِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنَّهُ سَيَقُولُ لَكَ «لَا أَدْرِي» مَبَاشَرَةً أَوْ «لَا أَعْرِفُ» أَوْ أَنَّهُ سَيَبْدَأُ يَخُوضُ فِي تَعْرِيفَاتٍ خَاطِئَةٍ لِلشَّرِكِ، فَمَاذَا سَتَصْنَعُ؟ تَبَيَّنَ لَهُ الْخَطَأُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُعَرِّفُ الشَّرِكَ تُبَيَّنَ لَهُ الْخَطَأُ وَتَسْتَدِلُّ لَهُ، فِي بَيَانِكَ الْخَطَأَ تَسْتَدِلُّ مَبِينًا خَطَأَهُ بِالْدَّلِيلِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى حَالٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَرِّفَ الشَّرِكَ؛ فَحِينَئِذٍ تَقُولُ لَهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟)، (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشَّرِكِ) الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ فِي ضَوْءِ الدَّلَائِلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَعِنْدَمَا تَتَكَلَّمُ فِي تَعْرِيفِهِ تَتَكَلَّمُ بِفِكْرِ

(١) «حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ» (٩/ ٣١٦).

قاصر وفهم سيء ضعيف، ليس قائماً على دلائل كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، ف (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ).

(كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟)

هذه مشكلة أهل الضلال، حرّم الله عليهم الشرك؛ فقاموا وأتوا بالعبادة ولم يسألوا ولم يعرفوا، ولهذا ترى كثير من هؤلاء إذا سمع آيات الشرك ينفر منها ويرى نفسه ليس من أهلها، ليس من أهل هذه الخصال؛ لكن لما كان لا يعرف الشرك وحقيقته وقع فيه، ولهذا قال عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»^(١)، وأعظم الجاهلية الشرك بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، لهذا من لا يعرف الشرك يقع فيه، لهذا قيل:

عرفت الشر لا للشرك لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فلا بد من معرفة الشرك من أجل أن يُحذَر ويُتَقَى، والله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ

الْأَلَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] إذا استبان سبيل المجرمين كان الناس منها على حذر، أما إذا لم تستبين ربما وقع الناس في سبيلهم من حيث لا يشعرون ولا يدرون.

قال: (وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ)، قل مثل هذا أيضاً في حال كثير من الناس في

المحرمات الأخرى، حرّم الله - ﷻ - الربا وباع كثير من الناس واشترى ولم يسأل ولم يعرف الربا، وحرّم الله - ﷻ - أكل مال اليتيم فأكل ولم يسأل، وحرّم أموراً عديدة فتعامل بها ولم يسأل.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٠١ / ١٠)، و«الفوائد» (ص ١٠٩).

قال: (كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّه لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) هذا الكلام عظيم جداً: (أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أي: يترك أمر بيانه لعقول الناس والآراء والأفهام، يتركه دون بيان؟ حاشا وكلا، فالله -عز وجل- أمرنا بالتوحيد وببينه ونهانا عن الشرك وببينه، بينه في كتابه في أي كثيرة من القرآن، اقرأ في بيان الشرك قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، هذا بيان للشرك، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ لأن دعاء غير الله شرك، أيضاً اقرأ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، واقرأ أيضاً قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ دعاء غير الله هذا شرك، أيضاً اقرأ قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ لا شريك له، [الأنعام ١٦٢: ١٦٣] فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله اتخذ شريكاً مع الله، والشرك هو تسوية غير الله بالله، في شيء من خصائصه أو حقوقه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، والعبادة حق لله وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمن سوى غير الله بالله في هذا الحق أعني العبادة، فقد اتخذ شريكاً مع الله، من دعا غير الله أو التجأ إلى غير الله أو استعاذ بغير الله أو توكل على غير الله أو نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فقد أشرك بالله واتخذ الأنداد والشركاء مع الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

قال: (أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أيضا هذه الكلمة تحتها من التوجيه والبيان أن بيان الشرك ومعرفة حده يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، كذلك بيان التوحيد وبيان المحرمات يُرجع فيها لمعرفة حدودها إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فإن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لا يحرم عليه أمراً ويتركه دون أن يبينه. عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُم نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلُ «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر هذا الحديث: «وَمَحَالٌ مَعَ تَعْلِيمِهِمْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فِيهِ مَنَفَعَةٌ فِي الدِّينِ - وَإِنْ دَقَّتْ - أَنْ يَتْرَكَ تَعْلِيمَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَيَعْتَقِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي رَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي مَعْرِفَتُهُ غَايَةُ الْمَعَارِفِ وَعِبَادَتُهُ أَشْرَفُ الْمَقَاصِدِ وَالْوُصُولُ إِلَيْهِ غَايَةُ الْمَطَالِبِ»^(٢).

فمحال هذا، توحيد رب العالمين أعظم شيء في الدين، فمحال أن يكون علم الأمة كل شيء الآداب والأخلاق والتعاملات ودقائق الأمور بينها مفصلة صلوات الله وسلامه عليه ثم يترك التوحيد الذي هو أعظم شيء في الدين دون بيان، هذا محال، فالتوحيد بُيِّنَ في الكتاب والسنة أتم بيان وأيضا الشرك بُيِّنَ وعُرفت حقيقته في الكتاب والسنة أتم بيان، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

(١) رواه مسلم (٢٦٢).

(٢) «الفتاوى الحموية الكبرى» (ص ١٧٨)، و«مجموع الفتاوى» (٥ / ٧).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ.

فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَطُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟ فَهَذَا يَكْذِبُهُ الْقُرْآنُ.

وَإِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قَصَدِ خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بَنِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقْرُبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَّا اللَّهُ بَرَكَتَهُ وَيُعْطِينَا بَرَكَتَهُ. فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقْرَبُ أَنْ فِعْلُهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهِذَا، وَأَنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟

فَهَذَا يُرَدُّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ. فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللَّهِ؟ فَسِّرْهُ لِي.

فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ.

فَقُلْ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ.

فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؟ فَسَّرَهَا لِي.

فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيْنَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟

وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْ لَهُ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهِ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- هذه الشبهة الأخرى لهؤلاء، قال: (فَإِنْ قَالَ: الشَّرِكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ) الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يعدد هذه الشبهات لهم قد سمعها أو سمع كثيراً منها من هؤلاء وناقشهم فيها وأقام عليهم -رَحِمَهُ اللَّهُ- الحجة، وحال هؤلاء كالغريق، يُقال أن الغريق يتمسك بكل شيء حتى بالقشة، يتمسك بما لا متمسك به ويتعلق بما لا مُتعلق به، وإنما محاولة للنجاة من الغرق أو التخلص من الأمر الذي هو فيه، وهذه حال هؤلاء، يتخبطون في باب الاحتجاج ويتمسكون بأشياء واضحة تماماً أنها ليست بمُتمسك.

واقراً في هذا المعنى قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾ [الأنكبوت: ٤١] وهذا بيان لحال المشرك ومن اتخذه نداً مع الله؛ فمثل المشرك مثل العنكبوت، ومثل من اتخذه نداً مع الله -تبارك وتعالى-

كمثل بيت العنكبوت، وبيت العنكبوت - كما لا يخفى - لا يقى حرّاً ولا برداً ولا يقى من عدو ولا يقى من مطر، وهو بيت واه، متهاك ضعيف، أوهى البيوت، فمثل الذي يتعلق بغير الله التجاءً ورجاءً وطمعاً مثل العنكبوت اتخذت بيتاً، ثم إن من حكمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أن العنكبوت وبيتها موجودة في كل مكان، حتى الأماكن التي تُقصد ليعبد أهلها أو تُعبد من دون الله، فيها بيت العنكبوت وتوجد العنكبوت، لهذا أقول لو أنه هؤلاء الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يلتفتون إلى الأركان والزوايا يرون العنكبوت التي تصف حالهم وحال من تعلقوا بهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ فالمشرك المتعلق بغير الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يتخبط ويتعلق بكل شيء في تقرير باطله، صاحب الحق إذا أراد أن يستدل تجده يحسب للاستدلال ألف حساب ويتنبه ويراعي، إذا أراد أن يذكر حديثاً يتأكد، أما الذي يتعلق بغير الله، ما عنده مشكلة تسمع منه ولا يبالي، تسمع منه أن يقول لك: النبي ﷺ قال: «القبور ترياق المجريين» أو يقول النبي ﷺ قال: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه»، وقالوا ذلك، لهذا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ لما بين ضعف هذا الحديث، أنه موضوع ومكذوب عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ قال: «وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام وضعها المشركون وراجت على أشباههم من الجاهال الضلال»^(١)، ولهذا لا يبالي هؤلاء بأن يضعوا حديثاً أو يستدلوا بموضوع مكذوب عن رسول الله أو يلفقوا مناماً أو خبراً أو قصة أو تجربة أو غير

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٥).

ذلك من الأشياء التي يوردونها مستدلين بها في تقرير هذا الباطل.

قال: (فَإِنْ قَالَ: الشُّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ) أي: الذين كانوا يعبدون الأصنام (يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟) هل تعتقد ذلك؟ (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ) يعني القرآن دَلَّ في مواضع عديدة وذكر بعضها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فيما سبق أن المشركين لم يكونوا يعتقدون في الأصنام ذلك، أي: أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، لا يعتقدون فيها ذلك؛ بل يقولون الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، قل له (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ).

(وَإِنْ قَالَ) في بيان حقيقة عبادة الأصنام (إِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قِصْدِ خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بُنِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقْرُبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ وَيُعْطِينَا بِرَكَّتِهِ) إن قال لك ذلك، وهذا هو فعلاً الذي كان يفعله المشركون الأول، كانوا يقصدون الخشبة أو الحجر أو البناء الذي على القبر أو غيره، يدعون ذلك ويعكفون عنده ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، (وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ أَوْ يُعْطِينَا بِرَكَّتِهِ) إن قال لك ذلك (فَقُلْ لَهُ: صَدَقْتَ) هذا عمل المشركين الذي أنكره الله عليهم في القرآن وذمهم عليه أشد الذم وتوعدهم عليه أشد الوعيد، (فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقَرُّ أَنْ فِعْلُهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ) إذا أجاب بهذا الجواب فإنه يكون بذلك أقر أن فعلهم -أي عند القبور-

هو فعل عبادة الأصنام عند الأصنام وهو المطلوب.

قال ويقال له أيضاً: (قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ)، هذا جواب آخر غير الجواب الأول، إذا قال: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ)، قل: (هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا) أي: لا يكون شركاً إلا إذا كان توجهاً لصنم؟ لا يكون شركاً إذا توجه إلى ملك، إلى كوكب، إلى نبي، إلى ولي، هذا لا يكون من الشرك؟ يعني الشرك محصور في عبادة الأصنام؟ (هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا) أي: لا يتجاوزه ولا يتعداه؟ (وَأَنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ)، وسبق أن ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الآيات الدالة في ذلك.

(فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ).

ولاحظ أن الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في كشفه للشبهات، وهذا نهت عليه وسأؤكد عليه في كشفه للشبهات، مرتبط كلياً بالقرآن والسنة، ودائماً يكشف الشبه بالآيات والقرآن، بكلام الله.

قال: (فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ) أي: أنه يتبين أن من عبد صنماً أو عبد ولياً أو عبد ملكاً أو عبد نبياً كل ذلك شرك بالله وهذا فيه بيان لبطلان قوله: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ).

وبهذا يكون الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- كشف هذه الشبهة وبين بطلانها من

وجيهين.

ثم قال ملخصاً ما سبق: (وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ) أي: حاصل الأجوبة المتقدمة وخلاصتها (أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ، فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشُّرْكُ بِاللَّهِ؟ فَسَّرُهُ لِي) إن قال لك: أنا لا أشرك بالله قل له: فسر لي الشرك.

(فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسَّرَهَا لِي) فسر لي عبادة الأصنام؛ إن قال لك عبادة الأصنام أن يُعتقد في الأصنام أنها تخلق وترزق، قل له: لم يكن المشركون الأول يعتقدون في الأصنام ذلك، هذا أمر يكذبه القرآن، وإن قال: عبادة الأصنام هو جعلها واسطة بين العابد وبين الله تقربه إلى الله زلفى، يرجو بركتها، فقل له: هذا هو نفس الممارسة التي يمارسها من يعبد الأولياء والصالحين.

(فَسَّرَهَا لِي. فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ فَسَّرَهَا لِي) فهذه ثلاثة أمور قد يقولها وتطلب منه تفسيرها، وأخطاء هؤلاء وانحرافاتهم مبنية على جهلهم بهذه الحقائق، لا يعرف حقيقة الشرك ولا يعرف حقيقة عبادة الأصنام ولا يعرف أيضاً حقيقة إخلاص العبادة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَّهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ) يعني هذه الأشياء بما بينه القرآن فهو مطلوب، وماذا تصنع حينئذٍ؟ إذا فسر لها لك بما بينه القرآن؟ توضح له أن الحال التي يمارسها تخالف القرآن وتخالف الآيات التي استدل بها من القرآن الكريم.

(وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ) يعني لم يعرف هذه الأشياء (فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟) وفاقدا الشيء لا يعطيه.

وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْ لَهُ) تلخّص لك أن الخصم إذا قلت «فسره لي» أي: فسر لي الشرك أو فسر لي العبادة أو فسر لي معنى (لا أعبد إلا الله)، لا يخلو من ثلاث حالات كما بين لك الشيخ، لا يخلو في تفسيره لها من ثلاث حالات: إما أن يفسرها بتفسير صحيح مطابق للقرآن، هذا هو المطلوب، فإن فسرهما تفسيراً صحيحاً مطابقاً للقرآن حينئذ تبيّن له أن الحال التي يمارسها تناقض ذلك. الحالة الثانية: أن يفسر ذلك بغير معناها، يعني يفسرها بمعنى آخر، فماذا عليك في هذه الحال؟ قال: بَيَّنَّتْ لَهُ الآيات الواضحات في معنى الشرك وعبادة الأوثان. والحالة الثالثة: أن يقول لك: لا أدري أو لا أعلم أو لا أعرف؛ فأيضاً تبيّن له وتُعرفه حقيقة ذلك من خلال الآيات الواضحات.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْ لَهُ الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْهَا).

الخصوم ينكرون على أهل التوحيد من جهات عديدة: مثلاً يقولون ينكرون الشفاعة أو ينتقصون الأولياء، أو يقولون لا يعرفون مكانة الصالحين أو جاههم عند الله أو غير ذلك من أنواع الكلام الذي يقصدون به التشنيع على أهل الحق.

قال:

(وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهَا كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]) المشركون الأول لما قال لهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا))، قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾؛ بل بلغ حالهم إلى ما ذكره الله ﴿وَأَنْطَلِقُ اللَّامُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦] وأيضاً يتفاخرون يقولون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] أي: لولا أننا كنا مُتَحِلِّينَ بالصبر وإلا كاد ليضلنا عن الآلهة.

قال: يصيحون علينا كما صاح الأولون في إنكار التوحيد ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ هذا إنكار للتوحيد. وأيضاً هؤلاء لما يتعلقون بغير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم ويُنْكِرُ عليهم فيصيحون، هذا إنكار للتوحيد ومنافحة ومدافعة عن الشرك بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله، ونحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره ابن الله، والجواب: أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢)﴾ [الإخلاص (١، ٢)] والأحد: الذي لا نظير له هو الصمد: المقصود في الحوائج، فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة ثم قال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣)﴾ [الإخلاص: ٣] فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ (٩١)﴾ [المؤمنون: ٩١]، ففرق بين النوعين جعل كلاهما كفراً مستقلاً وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ۝ (١٠٠)﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففرق بين الكافرين والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك، وكذلك العلماء أيضاً وجميع المذاهب الأربعة، يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن الله ولداً فهو مرتد، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح، وإن قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فقل: هذا هو الحق ولكن لا يُعبدون، ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم،

ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين،
وهدى بين ضاللتين، وحق بين باطلين».

[الشرح]

ثم ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ هذه الشبهة التي يثيرها المشبهو الممراد بالمشبه: أي الذي يثير الشبهات التي يناقض بها التوحيد، ويخالف فيها أو بها الحق والهدى يقال: «فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله» إن قال -أي المشبه- الذي يبرر لأعماله الشركية وأفعاله الكفرية، ويقرر أن ما يعمل من الشرك لا تنزل عليه آي القرآن التي نزلت في ذم المشركين بحمله شرك المشركين وتكفير الله -تبارك وتعالى- لهم لأنهم ادعوا لله الولد وأن الملائكة بنات الله، وأن الله -سبحانه وتعالى- إنما كفرهم بذلك، ولهذا ربما يقول بعضهم أنهم -أي المشركون الأول- لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، أي: لم يكن كفرهم وشركهم لكونهم دعوا الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله و«إنما» هذه من أدوات الحصر، وقوله: «إنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله»، حصر بكلامه هذا الكفر في هذا الجانب وحده، وهو أن الذي يكفر إنما هو من يدعي لله الولد أو يقول الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله، أو المسيح ابن الله، قال: «وإنما كفروا -أي المشركون الأول- لما قالوا الملائكة بنات الله» أي: أن هذا هو الأمر الذي كفروا به، ونحن لم نقل ذلك قال: «ونحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره ابن لله»، قال: «لم نقل أن عبد القادر» لأنهم يعبدون عبد القادر الذي هو الجيلاني فيعبدونه من دون الله، ويذبحون له وينذرون

ويستغيثون به، وإليه يلتجئون بالملهمات والحاجات والنوازل والطلبات، فيقول: «نحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره» أي: من الأولياء والصالحين ومن ندعوهم من دون الله لم نقل أنهم أبناء الله، فإذن يعني مرادهم بذلك أن الآيات التي نزلت في ذم المشركين، وتقبيح أفعالهم وصنائعهم لا تنزل علينا، لأن المشركين يقولون بأن الملائكة بنات الله، ونحن لا نقول ذلك فيمن ندعوهم أو نسألهم، فهذه شبهة ربما أثارها بعض المشبهة من هؤلاء؛ فما الجواب؟ قال - رحمه الله -: «فالجواب» وأجاب عن هذه الشبهة بأربعة بأربعة أجوبة مسددة، كل واحد منها كافٍ في كشف هذه الشبهة وبيان بطلانها:

الجواب الأول: قال: «أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل» أي: هذا في حد ذاته كفر مستقل، والكفر أنواع، وأفراد الكفر كثيرة، ومن قال إن لله ولداً سواء الملائكة أو عزيزاً أو عيسى أو غير هؤلاء، هذا في حد ذاته كفر بالله تعالى: «نسبة الولد إلى الله كفر مستقل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١) اللَّهُ الصَّمَدُ ٢) [الإخلاص: ١، ٢]، والأحد الذي لا نظير له» الأحد أي: المتوحد بصفات الجمال ونعوت الكمال، فليس له شبيه ولا مثال، «والصمد: المقصود في الحوائج» أي: الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها وطلباتها، فتفزع إليه وتبتهل إليه وتلتجئ إليه «فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة»، وهو قوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤)﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] ثم قال - أي الله جلّ وعلا -: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣)﴾ [الإخلاص: ٣]، «فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة» إذن من جحد أول السورة أن الله أحد صمد فهذا كفر

مستقل، ومن جحد آخر السورة: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا كفر مستقل، وهذا فيه نقض لدعوى هؤلاء أن الكفر إنما في ادعاء الولد ونسبة الولد إلى الله والقول بأن الملائكة بنات الله، فالشيخ يقول: من جحد أول السورة الأحد الصمد، وأثبت آخرها لم يلد ولم يولد، يكون بذلك كافرًا مع أنه لم ينسب الولد إلى الله - تبارك وتعالى -؛ فهذا تقرير منه - رحمه الله - في رد هذه الشبهة ببيان أن نسبة الولد إلى الله - تبارك وتعالى - هذا بحد ذاته كفر مستقل، وما جاء في أول السورة أيضًا كفر مستقل.

-الجواب الثاني على هذه الشبهة؛ قال رَحِمَهُ اللهُ: «وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]»، ذكر الله - عز وجل - شيئين نفاهما ونزه نفسه عنهما - جل وعز - قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ ومن ادعى الله الولد فقد كفر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ومن ادعى أن مع الله إله آخر فقد كفر، وهذا فيه إبطال لدعوى هذا المدعي بأن الكفر إنما هو في ادعاء الولد، لأن الله ذكر شيئين أو نوعين فرق بينهما، قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، «فرق بين النوعين، وجعل كلا منهما كفرًا مستقلًا» فرق بين النوعين فرق بين ادعاء الولد أن الله اتخذ ولدًا وبين ادعاء أن الله معه إله آخر فهذان الكفران أو أمران فرق الله - سبحانه وتعالى - بينهما، وهذا فيه بيان لبطلان دعوى من ادعى أن الكفر إنما هو في ادعاء اتخاذ الله - جل وعلا - الولد «وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠]،

ففرق بين كفرين» قال رَحِمَهُ اللهُ: «فرق بين الكافرين» فرق بين نسبة الولد إلى الله -جلّ وعلا-، وأيضا ادعاء أن مع الله -جلّ وعلا- شريكا، فإذا الوجه الأول الذي ذكره الشيخ -رحمه الله- وقرره هو بيان أن ادعاء الولد هذا كفر مستقلا لوجه الثاني: أن الله -عزّ وجلّ- في عدد من آي القرآن فرق بين الأمريناتخاذ الشركاء مع الله يُدْعَوْنَ ويستغاث بهم ويذبح لهم وينذر لهم، وبين نسبة الولد إلى الله -سبحانه وتعالى-، ومثل على ذلك بآيتين، الأولى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ففرق فيها بين الأمرين، والثانية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾، هذا نوع من الكفر ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]

هذا نوع آخر من الكفر، فرق الله -عزّ وجلّ- بينه وبين النوع الأول، فهذا الجواب الثاني على هذه الشبهة.

-الجواب الثالث؛ قال -رحمه الله-: «والدليل على هذا أيضا أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابن الله» فالله -جلّ وعلا- كفّر الذين دعوا اللات وغيره مع الله، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١١) ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾ (٢٠) ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ (٢١) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ (٢٢) ﴿[النجم: ١٩-٢٢]، فهؤلاء الذين عبدوا اللات من دون الله، واللات رجلاً كان معروفاً بالبذل والإحسان والصدقة، كان يلتُّ العجيين للحجاج، ويحرص على إكرامهم واستضافتهم والإحسان إليهم، فلما مات صنعوا له حجراً، وقيل نفس الحجر الذي كان يلتُّ عليه السويق عبدوه من دون الله، فقول القائل: «إنما كفر أولئك بكونهم نسبوا الولد إلى الله وقالوا الملائكة بنات الله»، هل هؤلاء الذين كفّروهم الله -عزّ وجلّ- بعبادة

اللات هل ادعوا أن اللات ابن لله؟ أبداً ما قالوا ذلك، لكن كفرهم الله لأنهم عبدوه مع الله، وصرفوا له ما لا يُصرف إلا لله - سبحانه وتعالى - فهذا وجه ثالث للجواب على هذه الشبهة، قال: «أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابناً لله والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك - أي ابناً أو أبناء لله -»

-الوجه الرابع في الجواب على هذه الشبهة:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وكذلك العلماء أيضاً، وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب: (حكم المرتد) أن المسلم إذا زعم أن الله ولداً فهو مرتد».

يعني مما يرتد به من كان مسلماً ادعاء أن الولد لله، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرون بين النوعين، يعني من ادعى الله الولد ارتد بذلك، ومن أشرك مع الله غيره ارتد بذلك، ومن أعطى غير الله من خصائص الله - عز وجل - في ربوبيته أو أسمائه وصفاته ارتد بذلك، ومن سب الله أو دينه أو نبيه ﷺ ارتد بذلك، يذكرون أموراً كثيرة يرتد بها الإنسان ويتنقض بها إسلامه، ولم يحصروها في نسبة الولد أو دعوى اتخاذ الله الولد، فلم يحصروها في ذلك، فهذه وجوه أربعة ذكرها - رحمه الله تعالى - في إبطال هذه الشبهة، قال: «وهذا في غاية الوضوح» أي: أن وضوحه وضوحاً يبيّن في إبطال هذه الشبهة، وكشف زيفها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وإن قال» - وهذا أمر آخر - انتهى الجواب على الشبهة الأولى.

«وإن قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» أي: إذا

تلا هذه الآية مستدلاً بتلاوته لها على أن الآية تدل على أن للأولياء مكانة عند الله ومنزلة، وهذا كافٍ في تسويغ اللجوء إليهم، والالتجاء إليهم ودعائهم لمكانتهم

العظيمة عند الله ومنزلتهم العلية، وربما أيضًا قالوا: أتذكرون فضل الأولياء ومكانة الأولياء وقدر الأولياء وجاه الأولياء؟! فهذه الآية مما يستدلون بها ويتلونها في تقرير الشرك والعياذ بالله، وأعظم به من إثم؛ أن يتلى كلام الله -جلّ وعلا- ليقرر به الشرك، أن يتلى كلام الله -تبارك وتعالى- ليستدل به على الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبر الموبقات.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فقل هذا هو الحق» فالمسلم لا يُنكر فضل الأولياء ومكانة الأولياء، هذا حق، وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، نفى سبحانه عنهم الخوف والحزن، وإذا جُمع بين الخوف والحزن في موضع واحد، كان تعلق الحزن في الأشياء الماضية والخوف في الأمور المستقبلية، يعني لا تحزن أو لا حُزن عليهم فيما فارقه ولا خوف عليهم مما هم ملاقوه.

قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) ﴿٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ استدلالاً بهذه الآية الكريمة: «فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا»^(١) أي: أن ولاية الله -عزّ وجل- إنما تنال بالإيمان والتقوى، والإيمان والتقوى إذا جُمع بينهما فإن المراد بالإيمان: فعل الأوامر والطاعات والقيام بالعبادات، والتقوى اجتناب النواهي والمحرمات، فالإيمان يتناول التوحيد والإقرار بأمور الإيمان، وأيضا يتناول فعل الطاعات، والتقوى تتناول اجتناب النواهي والمحرمات، فدلّت الآية أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى، الذين يطيعون الله بفعل أوامره ويتقون

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٢٤).

ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم - سبحانه وتعالى - .

ولما كان عند القوم انحراف في هذا الباب وشطط فيه، أصبحت الولاية تطلق على من لا يُعرَف لا بإيمان ولا بتقوى، تطلق على من يضع الأوامر ويرتكب المحرمات، ويُدَّعى فيه أنه من أولياء الله، وكل هذا الباطل - أعني ترك الأوامر وفعل المحرمات - أُطلق على أصحابه أنهم أولياء الله، زعمًا أن هذا الترك هو من كراماتهم! وهذا من أعجب العجب، يمارسون فعل المحرم وترك الطاعة تحت باب الكرامة؛ وهذا قد يعجب له من يسمعه، لكن مثلاً - والأمثلة على ذلك في واقعهم كثيرة - مثلاً في باب ترك العبادة، يقولون: الولي مكانته وكرامته عند الله ألا يطوف بالبيت بل البيت هو الذي يطوف به!، وهذا مقرر في كثير من كتب هؤلاء، حتى كتب لأناس معاصرين، هنا الكعبة هي التي تطوف به، كرامته ومكانته عند الله الكعبة هي التي تطوف به، ولا يطوف بالبيت، سيد الأولياء وسيد ولد آدم طاف مرات وكرات بالبيت ذليلاً خاضعاً لله - سبحانه وتعالى - منكسراً لجناحه؛ يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وهؤلاء يقولون الولي مقامه أكبر من أن يطوف بالبيت، بل البيت هو الذي يطوف به، ولهذا في أحد كتب الفقه المشهورة عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على هذه الخرافة، قالوا إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟ قال لأهل العلم في هذه المسألة قولان:

القول الأول: يصلون إلى مكانها الأصلي ولأن متابعة الكعبة إلى أين ذهبت هذا أمر غير مستطاع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والقول الثاني: قال يلزمهم أن يبحثوا عنها أين ذهبت، إن كانت في أفريقيا فالصلاة إلى أفريقيا، وإن كانت في الهند فالصلاة إلى الهند وهكذا يتابعونها في كل فرض، قولان قال في المسألة، هذا مبني على خرافة هؤلاء وضلالهم فيما يعتقدونهم في الأولياء، فلاحظ أن ترك الطاعة والذل لله - سبحانه وتعالى - أدخل تحت نوع من الكرامة للولي، وأيضاً ما يدعونه للأولياء أنهم يصلون إلى مرحلة تسقط عنهم التكاليف، ويتلون في ذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يعني إذا وصل إلى درجة اليقين، واليقين يفسرونه في مراتب السلوك عندهم، إذا وصلوها توقفوا لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي لله طاعة لأنه من أولياء الله، وفي باب ترك النواهي أيضاً يمارسون النواهي والمعاصي والمحرمات باسم الولاية، ومن ذلكم الزنا والفواحش، يمارسونها باسم الولاية، وقرأت عن هؤلاء في كتب الأخبار القديمة وسمعتهم من بعض الناس في زماننا هذا، موجود في بعض المناطق يقولون أن المريد - التلميذ الذي عند الشيخ - المُدعى فيه الولاية، ليلة زواجه يأتي بزوجه إلى الولي، ويطلب من الشيخ أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها بنفسه، من أجل البركة والنسل فتدخل عند الشيخ ويزني بها الزنا الذي حرمه الله - جل وعلا - ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده، ثم يرتمي هذا التلميذ على قدمي الشيخ يقبلها، يشكره على هذا الإحسان العظيم!، لأنه زنا بزوجه وافتض بكارتها، انتهاك الأعراض وأكل لأموال الناس بالباطل، تحت اسم الكرامة والولاية وترك للطاعات والعبادات وفعل للفجور والمنكرات وكل ذلك يدخلونه تحت كرامة الأولياء، وأن هؤلاء أولياء الله.

فإذا جاء بهذه الآية سواء قصد بالأولياء هؤلاء المجرمين أو قصد بالأولياء الصالحين، سواء قصد هؤلاء أو هؤلاء وتلا الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، تقول له أولياء الله المقصودون

بهذه الآية لا من يعينهم هؤلاء من المبطلة، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما أخبر الله، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما نعتهم الله - سبحانه وتعالى - بذلك ووصفهم، قل له: نعم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا حق نُقِرَ بذلك لكن لا يُعبدون، يعني مهما علت مكانة الشخص في الدين والعبادة والتقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - هذا ليس مبرراً أن يجعل ندًا لله وقد أنكر النبي ﷺ ما هو دون ذلك، أنكر ألفاظاً لم تقصد حقائقها، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَدَلًا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ» (١).

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولكن لا يُعبدون» لأن العبادة حق لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالعبادة حق لله - جل وعلا - لا شريك له فيها لا مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله» نحن لا ننكر مكانة الأولياء، ولا ننكر فضل الأولياء ولا ننكر أيضاً كرامات الأولياء، لكن ننكر عبادتهم مع الله، أن

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

يُجْعَلُ الْوَلِيُّ نَدَى اللَّهِ يَذْبَحُ لَهُ كَمَا يَذْبَحُ لِلَّهِ، وَيَنْذِرُ لَهُ كَمَا يَنْذِرُ لِلَّهِ، وَيَدْعِي وَيَسْتَغَاثُ بِهِ كَمَا يَدْعِي اللَّهُ وَيَسْتَغَاثُ بِهِ، قَالَ: «وَنَحْنُ لَا نَنْكُرُ إِلَّا عِبَادَتَهُمْ مَعَ اللَّهِ وَإِشْرَاكَهُمْ مَعَهُ - أَيْ جَعْلَهُمْ شُرَكَاءَ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ وَاتِّبَاعُهُمْ وَالْإِقْرَارُ بِكَرَامَتِهِمْ، وَهَذَا يُشِيرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى الْوَسْطِيَّةِ الَّتِي عَلَيْهَا أَهْلُ السَّنَةِ فِي الْأَوْلِيَاءِ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ، الْغُلُوُّ طَرَفٌ سَلَكَهُ مَنْ رَفَعَ الْأَوْلِيَاءَ فَوْقَ مَنَازِلِهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْحَقُوقِ مَا لَيْسَ إِلَّا لِلَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، وَالْجَفَاءُ فِيمَنْ أَنْكَرَ مَقَامَ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدَّرَ الْأَوْلِيَاءَ وَحَقَّ الْأَوْلِيَاءَ وَفَضَلَ الْأَوْلِيَاءَ، وَجَفَا فِي حَقِّ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْوَسْطُ قَوَامٌ بَيْنَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَرَّرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْوَسْطِيَّةَ بِقَوْلِهِ: «نَحْنُ لَا نَنْكُرُ إِلَّا عِبَادَتَهُمْ» لِأَنَّ عِبَادَتَهُمْ غُلُوٌّ، وَاتِّخَاذُهُمْ شُرَكَاءَ مَعَ اللَّهِ غُلُوٌّ فِي الْأَوْلِيَاءِ، «وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ وَاتِّبَاعُهُمْ وَالْإِقْرَارُ بِكَرَامَتِهِمْ»، حُبُّهُمْ وَاتِّبَاعُهُمْ وَالْإِقْرَارُ بِكَرَامَتِهِمْ تَرْكُهُ جَفَاءٌ، فَعَقِيدَةُ أَهْلِ السَّنَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَسْطٌ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ، الْغُلُوُّ مِمَّنْ رَفَعَ الْأَوْلِيَاءَ فَوْقَ أَقْدَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْحَقُوقِ مَا لَيْسَ إِلَّا لِلَّهِ، وَالْجَفَاءُ مَنْ جَحَدَ فَضَائِلَهُمْ وَمَكَائِلَهُمْ وَمَنْزَلَتَهُمْ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَجْحَدُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا أَهْلُ الْبِدْعِ وَدِينُ اللَّهِ وَسُطُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَهَدَى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، وَحَقٌّ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ»، لَاحِظْنَا الْوَسْطِيَّةَ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ فِي الْأَوْلِيَاءِ، أَيْضًا الْوَسْطِيَّةَ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ النَّاسِ فِيهَا أَقْسَامٌ ثَلَاثَةٌ:

قِسْمٌ غُلُوٌّ فِي الْكَرَامَةِ، غُلُوًّا شَنِيعًا وَأَشْرَتْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ نَمَازِحِ الْغُلُوِّ فِي كَرَامَاتِ

الأولياء حيث عدّ بعضهم من كرامات الأولياء ترك طاعة الله وفعل ما حرم الله، هذا غلو.

وقسم جفا في باب الكرامة فجحدها، وأنكرها مثل المعتزلة جحدوا كرامات الأولياء وأنكروها، وهذا جفاء والحق قوام بين ذلك، أن نثبت للأولياء الكرامة بدون غلو ولا جفاء^(١).

قال: «ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين» طرف الغلو وطرف الجفاء وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

«وهدى بين ضلالتين» أي: ضلالة من غلا وضلالة من جفا.
«وحق بين باطلين» أي: باطل المُفْرِطِينَ والمُفَرِّطِينَ، وبهذه يكون - رحمه الله - ذكر هذه الشبهة وأجاب عليها.

(١) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ألقيت محاضرة قبل قرابة خمسة عشرة سنة بعنوان: كرامات الأولياء بين الغلو والجفاء، وذكرت فيها نماذج كثيرة من إسفاف الطُرُقِيَّة والمُبْطَلَة في هذا الباب، وما يزعمون أنه من كرامات الأولياء، ركام من الأباطيل وأنواع الأضاليل كلها أدخلوها وزجوا بها في باب كرامات الأولياء، حتى فعل الفواحش كما أشرت، وهذا يذكرونه في كتب الكرامات، أشياء من أسوء ما يكون وأشنع ما يكون وأقبح ما يكون، ونقلت نقول كثيرة من كتبهم موثقة».

[المتن]:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عليه فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين أحدهما أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٠ ﴿[الأنعام: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله -تعالى- ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون سادتهم، فتبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً جيداً راسخاً والله المستعان.

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله، إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا

يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر، أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به».

[الشرح]:

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَسْمِيهِ الْمَشْرُكُونَ فِي زَمَانِنَا، الْإِعْتِقَادُ هُوَ الشَّرْكَ، الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ شَرْكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شَرْكَ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي يَسْمِيهِ الْمَشْرُكُونَ فِي زَمَانِنَا الْإِعْتِقَادُ -يسمونه الاعتقاد- يعني الاعتقاد في الأولياء والاعتقاد في من لهم جاه أو مكانة أو نحو ذلك، ويقولون إن المتقرب إلى الولي بالنذر أو الذبح أو نحو ذلك، كلما قوي اعتقاده فيه نفعًا ودفعًا ونحو ذلك، حصل له مطلوبه، ولهذا يبررون من لم يحصل مقصوده بدعاء الولي يقول هذا من ضعف اعتقادك في الولي!، وأن لو كان اعتقادك فيه كما ينبغي وكما يليق بمقام الولي لحصلت مقصودك، فيُسمون هذا التعلق بالأولياء الاعتقاد، يسمونه الاعتقاد وحقيقته الشرك بالله -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وصرف العبادة والذل والخضوع والرجاء والانكسار لغيره -سبحانه وتعالى-

«إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَسْمِيهِ الْمَشْرُكُونَ فِي زَمَانِنَا الْإِعْتِقَادُ هُوَ الشَّرْكَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وَقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ شَرْكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شَرْكَ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ»، شرك الأولين أي: المشركين الذين

قاتلهم رسول الله ﷺ شرك هؤلاء أخف من شرك هؤلاء بأمرين، ويعني ذلك أن شرك الآخرين أغلظ من شرك أولئك بأمرين؛ «أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء» يعني في السعة واليسر والراحة والأمن والطمأنينة والصحة والعافية، في مثل هذه الحال يشركون يتخذون مع الله الشركاء من الملائكة والأنبياء والأصنام والأحجار وغير ذلك، «وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء»، يعني حال الشدة والكربات والدواهي العظام التي تنزل بهم ينسون ما يشركون، ولا تأتي في أذهانهم أصلاً ينسونهم، بل لا يكون منهم إلا الإخلاص، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فشرك الأولين في الرخاء دون الشدة، لأن الشدة حالهم فيها هو حال الإخلاص كما قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه آلهة أخرى ولا يتعلقون بغيره ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني دعاؤهم له خالصاً صافياً لا يدعون معه غيره، وإذا نجوا نجاههم إلى البر يعودون إلى الشرك ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ قال: «كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]» فقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني الشدة وعانيتم الغرق والموت ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يعني يذهب عنكم وعن أفكاركم وعن عقولكم من تدعون إلا إياه ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، هذا يفيد أنهم في حال الرخاء يدعون الله ويدعون غيره، لكنهم في حال الشدة والكربات يذهب عنهم كل من كانوا يدعونه من دون الله، ويخلصون الدعاء لله - سبحانه وتعالى -:

﴿ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى الْإِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾، هذا ذكره الله - سبحانه وتعالى - بعد ذكره لمنه على عباده بنعمة الفلك، قال: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ، المراد هنا المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى الْإِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، يعني عدتم إلى الشرك والتعلق بغير الله واتخاذ الأنداد والشركاء، ﴿أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧﴾، فانظر بيان الله - سبحانه وتعالى - لبطلان ما عليه هؤلاء وفساد عقائد هؤلاء بالتعلق بغير الله، قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَى الْإِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ؟ يعني الآن أنتم نجوتم من الشدة التي عاينتموها في البحر ولجأتم إلى الله - سبحانه وتعالى - مخلصين فنجاكم إلى البر، ثم لما وصلتكم إلى البر عدتم إلى الشرك، تنادون غير الله وتستغيثون بغير الله وتصرفون العبادة لغير الله، ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ هذه العودة منكم إلى الشرك هل أمتم أن يخسف بكم جانب البر مثل ما عاينتم موتاً في البحر، ألا تخشون أن يأتيكم الموت وأنتم في البر؟ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ هذا نوع من العقوبة التي يتوقع أن تنزل ولا عاصم منها إلا الله - سبحانه - كما أنهم لا عاصم لهم من الغرق إلا الله - سبحانه وتعالى - قال: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أو - هذا أمر آخر في البر أيضاً - ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ حاصباً أي: ريحا شديدة تحمل الحصباء، فتهلككم وأنتم في البر، هذان نوعان من الهلاك وأنواع الهلاك التي تكون على الناس في البر كثيرة جداً ولكن هذان نوعان.

ثم أمر آخر ثالث: ﴿أَمْرٌ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ [الإسراء: ٦٩] هل تأمنون أن يعيدكم تارة أخرى في البحر لحاجة من الحاجات ومقصد من المقاصد في يوم من الأيام القادمة ﴿أَمْرٌ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]، فأنتم في حاجة إلى الله - سبحانه وتعالى - في الشدة والرخاء، الشاهد أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، أما المشركون في الأزمنة المتأخرة يشركون في الحالين في الرخاء و الشدة، يشركون في الرخاء و الشدة، ويتعلقون بالأولياء في الرخاء و الشدة وإذا عاينوا الغرق في وسط البحر يهتف كل من هؤلاء بشيخه، الحقني يا فلان أدركني يا فلان، ولو كان معهم أبو جهل لخطأهم وقال لهم هذا وقت إخلاص هذا وقت شدة ما فيه إلا إخلاص ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ففي الفلك أيضًا يستغيثون: يا شيخ فلان، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، لأنه غرس في نفوسهم من وقت مبكر التعلق بالأولياء، حتى في مثل هذه الحالات وحكوا لهم مسبقًا قصصًا وحكايات أن الولي إذا هتفت به وأنت في البحر خلصك من الشدة، ويروون في ذلك كرامات ولهذا في أحد كتب هؤلاء المشهورة في الكرامات، كتابًا مطبوع باسم «كرامات الأولياء» وعدد نماذج كثيرة من كرامات الأولياء، قال في إحدى الكرامات في ترجمة رجل يقول: سيدنا - هكذا يقول: الشيخ علي - قال كان من كراماته أنه إذا جاءه رجل غريب عن البلدة، ومعه حمارة قال له امسك لي رأسها حتى أفعل بها؛ يقول له الولي! يقول امسكلي رأسها حتى أفعل بها، فإن أمسك رأسها ليفعل بها أصبح

الغريب في حرج أمام الناس يمسك الحماره لهذا يفعل بها، وإن امتنع، الحماره تتسمر في مكانها ما تمشي! هذا الآن مذكور في كرامات الأولياء، قالوا: إن الشيخ علي فعل ذلك، انظر الآن للكرامة التي تغرس في نفوس أولئك الشرك في الرخاء والشدة؛ قال إن الشيخ علي لما فعل بالحماره، ما فعل بها من أجل الفاحشة! قالوا لا، في سفينة في البحر مخروقة فهو رَتَقَ فتق السفينة، لما فعل بالحماره رتق الفتق الذي في السفينة، ونجا الناس الذين في السفينة من الغرق! الله أكبر يكبرون، ثم إذا ركبوا في السفينة يهتفون به حتى يفعل بحماره أخرى فترتق السفينة وينجون من الغرق! مهازل ومصائب وكوارث وجناية على عقول العوام والجهال، فهذه جناية من أعظم الجنایات، ثم يمشي العوام والجهال في شرك عظيم وفي ضلال مبين بمثل هذه الحكايات الملققة والقصص التي يروج به الباطل، فمثل هذه القصة وأمثالها هي التي تجعل هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، ولهذا مما قرأت أن شيخاً كان في سفينة، وعانت السفينة الغرق -قرأتها في إحدى حواشي الكتب- لشيخاً في سفينة وعان في السفينة الغرق، فأصبح كل يهتف بشيخه، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، ما وجد منهم واحد يقول يا الله! فمدّ يديه ورفعها؛ قال يا الله يا رب أغرق أغرق! ما على السفينة من يعبدك! لأن ليس على ظهر السفينة من يعبدك كلهم يعبدون غيرك ويلتجؤون إلى غيرك، فإذن هذا شرك أغلظ من شرك المشركين، ومثل هؤلاء -كما قدّمت- لو كان معهم في السفينة أبو لهب أو أبو جهل أو غيرهم من أساطين الكفر، لأنكروا عليهم، قالوا لا هذا وقت إخلاص! ما فيه إلا الإخلاص، خلّوا هؤلاء إذا خرجنا إلى البر أما الآن لا، أخلصوا، ﴿فَإِذَا

رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿العنكبوت: ٦٥﴾ فإذا هذا يدل على أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك أولئك من هذه الناحية، والشيخ - رحمه الله - أورد جملة من الآيات تقرر ذلك بدأها بهذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾ ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١) [الأنعام: ٤٠]».

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يعني أنكم أيها المشركون في مثل هذه الحالات لا تدعون إلا إياه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي: وحده دون شريك، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني في الشدائد ينسى المشرك الأنداد والشركاء ويخلص لله - تبارك وتعالى - أما المتأخرين ففي الشدائد (لا ينسون ما يشركون) بل بهم يتعلقون وإليهم يلتجئون وعليهم يتوكلون. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]».

أي: هذا وصف لحال المشرك، أي: أنه في حال ضرائه لا يدعو ولا يلجأ إلا إلى الله - سبحانه وتعالى - قال إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وأورد قول الله - تعالى -: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وأيضا قول الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، هذه كلها تقرر أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة بخلاف هؤلاء فإنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون الله -تعالى- ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم فبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين»، الفرق بين شرك المتأخرين وشرك الأولين الذي يشير إليه الشيخ -رحمه الله- أن أولئك كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، وهؤلاء يشركون في الشدة والرخاء، وما من شك أن من يشرك في الشدة والرخاء أغلظ ممن يشرك في الرخاء دون الشدة، ولكن انظر ألم الشيخ -رحمه الله- وأسفه: «ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً جيداً راسخاً، أين هو والله المستعان» فالشيخ -رحمه الله- يأسف لحال يراها ويقرر لذلك نصيحة للناس ومعدرة إلى الله -سبحانه وتعالى- وبمثل هذا النصح العظيم هدى الله خلقاً، وأخرجهم الله -سبحانه وتعالى- من الظلمات إلى النور ببركات هذه الدعوة الناصحة الصالحة لكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «الأمر الثاني: أن الأولين -يعني المشركين الأولين- يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية»، هذا شركهم وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم -يعني في كتب الأخبار وفي كتب التراجم- هم أنفسهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة، مثل الذي يفعل بالحمارة هذا يعدونه من كراماته ومن موجبات التعلق به من دون الله، واتخاذ

قبره وثناً يُعبد من دون الله، ولهذا يذكرون في تراجم من يتعلقون بهم أشياء عندما تقرأها أنت صاحب الحق الذي من الله عليك بالهداية تعرف أن هذا مُضِل، يعني يذكرون عن شخص قبره الآن من أكبر القبور التي تُعبد وتُقصَد ويذبح لها وينذر، يذكرون أنه ما كان يشهد للصلاة في الجماعة، وذكروا أيضًا في ترجمته أنه دخل مرة واحدة للمسجد وبال فيه، ويذكرون أشياء في ترجمته وأخبار ولما مات عملوا له قبة وضريحاً! بالآلاف المؤلفة يقصدون قبره، متعلقين وداعين وذابحين وإلى آخر ذلك، وكانوا يلقبونه أبو اللثامين السطوحي، أبو اللثامين قالوا أنه جلس تقريباً اثنا عشر سنة فوق سطح البيت ما نزل أبداً، بقي فوق السطح مثلثاً هذه كل المدة، وقالوا: كان مُتَلَثِّماً لحكمة، وهي أنه لو كشف وجهه لأحرق وجهه أو نور وجهه من يراه، ومثل الأمور هذه بدأ العوام يأتون قبره وضريحه زرافات ووحدانا، حتى إن أحد الكبار أَلَفَ كتاباً في مناقبه؛ قال: ولم أخرج هذا الكتاب حتى أتيت قبره واستأذنته وأذن لي أن أطبع الكتاب! أشياء يعني مؤلِّمة ومؤسفة، والمسلم يحمد الله على العافية، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولولا منة الله علينا بهذه الهداية وهذا التوحيد وهذه الكتب التي نقرأها ونتعلمها، لكان الأمر آخر لكن هذا فضل الله - سبحانه وتعالى -.

«الأمر الثاني: أن الأولياء يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم» انتبه لقوله: (هم الذين يحكون عنهم) يعني ليس خصومهم الذين يحكون عنهم، ولكن

هم الذين يحكون عنهم أمورًا هي من الفجور والزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك يحكونها عنهم في كتبهم هم، كتب الكرامات كتب الأولياء يحكون عنهم الزنا يحكون عنهم فعل الفواحش، يحكون عنهم تتبع المردان، يحكون عنهم فعل المحرمات ترك الصلاة ترك الطواف كل هذه يذكرونها في كتب الكرامات وفي مناقب الأولياء، فانتبه لقوله -رحمه الله تعالى-: «الذين يحكون عنهم» ما قال نحكي أو يُحكى، قال (يحكون) أي: هؤلاء الذين يتعلقون بهم ويعتقدون فيهم، يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، وكل هذه الأشياء التي تسمعهما الزنا السرقة ترك الصلاة وأعمال أخرى منكرا أكثر من ذلك، كلها تذكر في مناقب الأولياء! وتذكر في كرامات الأولياء عند القوم، «وغير ذلك».

قال رَحِمَهُ اللهُ: «والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل شجرة أو حجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به» وكل من الأمرين شرك، لكن هذا أهون من هذا، وإلا كله شرك، وكله موجب للنار وسخط الجبار، لكن هذا أهون من ذلك، والنفوس لها شيء من التعلق أو النفوس لها شيء من المحبة للصالحين والمعرفة لأقدار الصالحين، فربما أن الإنسان من هذا الباب مع سوء فهم وقلة علم وبصيرة، ربما عظم الصالحين تعظيمًا لا يليق إلا بالله، لكن أن يعظم هؤلاء الفسقة الفجرة أهل الفواحش أهل المنكرات، ويُصرف لهم من الحقوق والخصائص ما ليس إلا لله -تبارك وتعالى- فهذا لا شك أن مثل هذا العمل أغلظ من شرك المشركين الأول، كل من الشركين غليظ، لكن هذا أغلظ من هذا، فإذن هذان أمران يتبين من خلالهما أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين.

وأمر ثالث: وهو أن المتقدمين شركهم في الألوهية، أما الربوبية وخصائص الربوبية لا يعطونها للأصنام ومن يعبدونهم لا يقولون عنها إنها تخلق، ولا يقولون ترزق، ولا يقولون تحيي ولا تميت ولا تدبر الأمر، لا يقولون ذلك، ولا يعطونها خصائص الله في أسمائه -تبارك وتعالى- وصفاته، والمشركون المتأخرون كما أنهم يشركون في الألوهية أيضًا يشركون في الربوبية، ويعتقدون في الولي من التصرف والتدبير ما ليس إلا الله -تبارك وتعالى-، ولهذا أحد كبار المضلين المخرفين في عصرنا، سمعته في شريط له يقول الولي يخلق، من قال لكم أن الذي لا يخلق إلا الله، قال: الولي يخلق، قال والقرآن دلّ على ذلك! قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قال: هذا دليل على أنه فيه خالقين مع الله، وقال: أن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم، يستطيع ذلك ولكنهم لا يفعلون ذلك من أجل أن لا تختلط الأنساب، فقط لهذا وإلا فهم يستطيعون، ويذكرون في أحد كتب هؤلاء أن أحد الأولياء المزعومين كان متزوجًا من امرأة وصفوها بأنها شريفة، وتزوج عليها امرأة فلاحه فقيرة، فغضبت الشريفة ليش يأخذ عليها فلاحه وهي لها مكانة وشريفة، فغضبت وطلبت الانفصال منه، وكانت حاملاً منه في الشهر السادس، قال لها إذا ما تتركين هذه المطالبة سوف أنقل الجنين من رحمك إلى رحم الزوجة الجديدة! فأبت قالوا فنقل الجنين يعني أمر الجنين أن ينتقل من رحمها إلى رحم الزوجة الجديدة وولدت الزوجة الجديدة بعد ثلاث شهور، ولدت الزوجة الجديدة الفلاحه بعد ثلاث شهور، هذه كلها أبو جهل لو سمعها ينكرها، أبو جهل لو سمع هذا الكلام قال هذا منكر، ربما يقول لهم:

كبرت كلمة تخرج من أفواهكم، هذا كلام منكراً ما يقال، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فهذا من الأمور التي تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ، وهذا الجاهل ما فهم الآية ولا فهم معنى دلالة هذا الاسم ﴿الْخَالِقِينَ﴾ وإلا لو كان يعرف معناه ويفهم دلالته لما قال هذا القول المنكر، القول الذي لم يصل إليه المشركون الأول، لأنهم ما كانوا يعتقدون مثل هذه العقائد في الأصنام والأوثان والأولياء ومن يدعونهم من دون الله.

وأمر رابع وهو: أن المشركين الأول كانوا يفهمون معنى لا إله إلا الله وأنها تعني إخلاص العبادة لله، ولما قال لهم النبي ﷺ (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) قالوا ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ﴾ [ص: ٥]، والمشركون المتأخرون لم يفهموا لا إله إلا الله، وإذا قيل لهم ما معنى لا إله إلا الله فسروها في الربوبية فقط، قالوا معناها لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله أو لا مانع ولا معطي إلا الله فهذه وجوه أربعة تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا، وَأَخَفُ شُرُكًا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لَهُؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبْهَتِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ -

فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ، أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الْحَجِّ.

وَلَمَّا لَمْ يَنْقُذْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]

وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [الآية] [النساء: ١٥٠: ١٥١].

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبُهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأُخْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا.

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا، وَأَخَفُ شِرْكًَا مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لَهُوْلَاءِ شُبُهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبُهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا)، لَمَّا ذَكَرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ما سبق مما يتبين به أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين، وأن الأولين كانوا أصح عقولا من هؤلاء لسلامة لغتهم ومعرفتهم بدلالات الخطاب ومعاني الكلام، لما قرّر ذلك وذكره - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ونبه أيضا على أن شرك الأولين أخف من شرك المتأخرين من وجوه سبق بيانها عنده - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، لما ذكر ذلك قال: (اعْلَمْ أَنَّ لَهُوْلَاءِ شُبُهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا) أي: يثيرونها، (على ما ذكرنا) أن ما عندهم شرك بالله - ﷻ، وأن عملهم أغلظ من شرك الأولين، وكما قدّمت مرّ معنا عنده - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وجهان في تقرير ذلك.

يقول: (لَهُوْلَاءِ شُبُهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبُهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا) انظر إلى دقة العبارة، لم يقل - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: فأصغِ سمعك لها، أي: للشبهة، لأن الشبهة لا يُحفل بها ولا يُهتم بها، وإنما يُحفل ويُهتم بالأجوبة السديدة والنقد المفيد المستمد من كتاب الله وسنة نبيه، هذا الذي ينبغي أن يُرعيه المسلم اهتمامه، أما الذي يفتح قلبه للشبهات ويُصغي لها ويُقبل عليها ويُحاول

استيعابها فهذا ربما استقرت الشبهة في قلبه ولم تخرج، وربما تجلجلت في صدره إلى أن يموت، ولهذا لا ينبغي لمسلم أن يحفل بشبهة أو أن يُعنى بها أو أن يُصغي لها، ولهذا تكلم السلف -رحمهم الله- قديما في بيان خطورة من أصغى لصاحب شبهة؛ فصاحب الشبهة لا يُصغ له والشبهة لا يصغ لها ولهذا قال: **(فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِحَوَابِهَا)** اقرأ الشبهة وليكن اهتمامك وعنايتك وضبطك بالجواب، قال: **(فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِحَوَابِهَا)**، ثم ذكر الشبهة قال: **(وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ)** يعني المشركين الأول الذين نزل القرآن في ذمهم والتشنيع عليهم وبيان كفرهم وشركهم بالله **(لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**، لم يقبلوا الشهادة، **(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥)** وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ [الصافات ٣٥: ٣٦]، لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول -ﷺ-، يكذبونه ويكذبون بما جاء به ويدعون بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو غير ذلك، **(وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ)**، **(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ٧)** [التغابن: ٧] ينكرون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، **(وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا)**، قال **(فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤)** **(إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥)** [المدثر ٢٤: ٢٥]، يقولون: **(وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** أي: ننتق بالشهادة وتلفظ بها، نقول لا إله إلا الله، **(وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)** أيضا نشهد بأن محمدا رسول الله -ﷺ- **(وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ)** نؤمن بأن القرآن من الله -ﷻ-، وأنه وحي وأنه منزل على محمد -ﷺ-، لا نقول أنه كتاب سحر كما قال الكفار الأول، **(وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ)** نؤمن ونعتقد أننا مبعوثون، **(وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟)** ونحن عندنا هذه الأعمال وبيننا وبينهم هذه الفروق، وكأنهم يريدون

أن يقولوا إن وجود الشرك الذي كان عليه الأولين عندنا ونفعله ونمارسه هذا لا يؤثر في انتقاض الدين وانهدامه مادام أن عندنا هذه الأشياء، وهي ليست عندهم، هذا حاصل تقريرهم لهذه الشبهة: مادام أن هذه الأشياء موجودة، فكوننا نلجأ إلى غير الله، نذبح لغير الله، نستغيث بغير الله نصرف العبادة لغير الله هذا لا يؤثر طالما أننا نشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - ﷺ - ونؤمن بالقرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم، هذه لا تؤثر! وهذه فروقات بيننا وبين أولئك تمنع من أن نلحق بهم أو نُعدّ أمثالا ونظراء لهم!

هذا حاصل الشبهة والشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - طلب الإصغاء لجوابها ولم يذكر جوابا عليها واحدا؛ بل ذكر تسعة أجوبة - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كل واحد منها كاف لكشفها وتعريتها، فذكر أولاً الجواب الأول (فَالْجَوَابُ: أَنَّ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ، أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ) يقول هذه محل اتفاق بين أهل العلم، أنه إذا صدّقه في شيء وكذّبه في شيء كافر باتفاق أهل العلم، حتى وإن صلّى وإن صام وإن حجّ وإن صدّق بالبعث، إذا كذّب النبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - في شيء فهو كافر باتفاق أهل العلم.

قال: (وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ) هذا كافر باتفاق أهل العلم، من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض أو يؤمن ببعض ما جاء به الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ويكفر ببعض هذا باتفاق أهل العلم يكون كافراً فكيف بمن جحد التوحيد وردّ التوحيد الذي هو أعظم شيء أتى به الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَام-؟! قال ممثلاً: (كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة) هذا ما حكمه؟ من أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أيضاً عكس الأمر: من أقر بوجوب الصلاة وصلى وجحد التوحيد؟ هذا كافر باتفاق أهل العلم وذاك كافر باتفاقهم، (أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ) أي: بالتوحيد والصلاة والزكاة (وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الْحَجِّ) وذكر هنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مباني الإسلام الخمسة: بُني الإسلام على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله وهذا التوحيد، وأن محمد رسول الله ﷺ وهذا الإيمان بالرسالة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، فمن أقر ببعض هذه المباني وكفر ببعض ولو بواحد منها فإنه باتفاق أهل العلم يكون كافراً بالله -وَعَلَيْهِ السَّلَامُ-، فتكذيبه بواحد من هذه الأشياء نقض لتصديقه لألوف من الأشياء الباقية، تكذيبه لواحد من هذه الأشياء يُعد نقضاً لألوف من الأمور التي يأتي بها من أمور الإسلام لأنَّ التكذيب بشيء مما جاء به الله في كتابه -سبحانه- وما جاء في سنة النبي ﷺ - هذا يُعدّ ناقضاً للإيمان.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إذا صار جحد فرع من فروع الدين كفراً، فكيف بجحد الأصل وهو التوحيد؟! فبؤ قدر - وهو لا يكون - أن هذه الفروع كلها - من الصلاة وما بعدها - ليست معصية ولا عزيمة، لكان جحد التوحيد كفراً برأسه، فكيف وهو الأصل»^(١).

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (وَلَمَّا لَمْ يَنْقُذْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ)

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ١١٩).

أَتُوا بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَنْقَادُوا لِلْحَجِّ (أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾)

(وَمَنْ أَقْرَبُ بِهَذَا كُلِّهِ) أي: أقر بمباني الإسلام كلها (وَجَحَدَ الْبَعْثُ) أي: جحد بعث الناس وقيامهم لرب العالمين (كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿﴾) فسماهم الله - تبارك وتعالى - كفارا مع إيمانهم ببعض ما جاء به الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، ومثله قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] لكونهم اتخذوا الأنداد مع الله - سبحانه وتعالى - فإذا وُجد الأمر الناقل من الملة والناقض للإسلام فمع وجوده لا يُستفَع بالأعمال وإن كثرت والطاعات وإن تعددت.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبُهَةُ) لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا فكيف بمن لم يؤمن بالتوحيد ولم يرضه؟!!

قال: (وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا)، كان بعض خصومه يرأسونه معترضين على ما يدعو إليه من التوحيد وما يُحذر منه من الشرك والتنديد، وما يبينه من الحال السيئة التي عليها الناس بالتعلق بغير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وصرف العبادة له؛ فكان بعضهم يرأسله، معاندينه مخاصمين للحق الذي يدعو إليه.

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كُنْتَ تُقَرِّئُ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِّ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يُجَحَدُ هَذَا وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا.

فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هذا الجواب لثاني على الشبهة وبين من خلاله مكانة التوحيد وأنه أعظم شيء أمر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- به، وقرّر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إذا كان باتفاق أهل العلم من يجحد الصلاة ويجحد الصيام ويجحد غير ذلك من فرائض الإسلام يكفر اتفاقاً فكيف بمن يجحد أعظم شيء في الدين وهو توحيد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-. قال: (إِذَا كُنْتَ تُقَرِّئُ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ - فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِّ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ) أي: أنه يكون بذلك كافراً، (وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ) أي: أيضاً يكون كافراً باتفاق أهل العلم، (لَا يُجَحَدُ

هذا) أي: لا يجحده أحد ولا ينكره أحد، (ولا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا) أي: في الآيات التي ساقها مقرررة كفر من جحد شيئا من ذلك أو من فرق بين أمور الإيمان فأمن ببعضها وكفر ببعضها.

قال: (فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ) ولهذا يأتي مقدما في النصوص ومنها النص الذي ذكرته قريبا (مباني الإسلام) بُدئَ بأعظم المباني وهو التوحيد، وفي الأوامر في كتاب الله يُبدَأُ به وفي النواهي يُبدَأُ بالنهاي عن ضده، فهو أعظم شيء أمر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عباده به، فكيف يكون من جحد الصلاة مع إيمانه بباقي أمور الإسلام كافرا، ومن جحد الصيام مع إيمانه بباقي أمور الإسلام يكون كافرا، ومن يجحد التوحيد مع إقراره بتلك الأمور لا يكون كافرا؟!!

قال: (فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ)، يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ).

ولإلزام الخصم بمثل هذا لك أن تسأله عندما يطرح مثل هذا، ولو تريثت قليلا ثم فاجأته بسؤال قلت له: ما رأيك برجل يعرف الصلاة ويعرف ما جاء في مكانتها وفضلها؛ ولكن يجحد أنها واجبة ويُنكر ذلك، ماذا تقول فيه؟ تجد أنه سيقدر أنه كافر؛ تقول له وإن صام؟ وإن حج؟ وإن وإن، سيقول: كافر لأنه جحد هذه الفريضة المعلومة من الدين بالضرورة، والتي لها من الدلائل الشيء الكثير؛ فقل

له: التوحيد أعظم من الصلاة ودلائله أكثر، ومكانته أعلى وشأنه أرفع؛ فكيف يكون كافرًا بجحد الصلاة، ولا يكون كافرًا بجحد التوحيد؛ بل كما قال أهل العلم: التوحيد وحده قد يكفي الإنسان في إسلام العبد ودخوله الجنة؛ مثل لو أن شخصاً تكلم بكلمة التوحيد وشهد بها وأقر ثم قبضت روحه قبل أن يقوم بشيء من أعمال الإسلام تكفيه وتنجيّه من عذاب الله ويكون من أهل الجنة، فالتوحيد وحده يكفي وهذه الأمور وحدها لا تكفي إلا إذا وُجد التوحيد معها؛ فكيف يُعدّ جحد التوحيد ليس بناقض وجحد هذه الفرائض ناقضاً للإسلام؟!



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيُقَالُ أَيْضًا لَهُؤْلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤْذِنُونَ وَيُصَلُّونَ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ.

قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمَهُ وَلَمْ تَنْفَعُهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رُتْبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].»

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - هذا الجواب الثالث على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا لَهُؤْلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ) أي: بنو حنيفَةَ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ -؛ لكن الصحابة قاتلوهم واستباحوا دماءهم وأموالهم، (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَيُؤْذِنُونَ، وَيُصَلُّونَ) وهذه أشياء كانوا هؤلاء قد ذكروها سابقا في الشبهة، قالوا كيف تسوون بين يجحد القرآن ويكذب بالنبي ﷺ ويشهد أن لا إله إلا الله ويصلي ويصوم وبين أولئك المشركين فيقول - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤْذِنُونَ، وَيُصَلُّونَ)؛ لكن ما هي المشكلة عندهم؟ (فَإِنْ قَالَ) يعني يقول لك الخصم (إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ) يعني مع فعلهم لهذه الأشياء يدعون أن مسيلمَةَ نبيًا، مع أنهم يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة، ويشهدون أن

لا إله إلا الله ويصلون ويصومون؛ لكنهم يشهدون أن مسيلمة نبي؛ فيقول هؤلاء كفروا لأنهم يشهدون أن مسيلمة نبي، يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - (قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ) يعني في الجواب على هذه الشبهة؛ (إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمَهُ وَلَمْ تَنْفَعَهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَائِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رُتْبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟)، إذا كان من رفع شخصا إلى رتبة النبوة يكفر بإقرار هؤلاء الخصوم فكيف بمن يرفع شخصا إلى رتبة الألوهية؟! أليس الأمر أعظم؟ ولهذا أيضا بتقرير هذا الرد ممكن أن تقول للخصم عندما قال هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم؛ فيمكن أن تقول للخصم: ما رأيك في شخص يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويصلي ويصوم ويدّعي لشخص من الأشخاص أنه نبي، ما رأيك فيه؟ يدعي أنه نبي، ماذا سيقول لك؟ قطعاً سيقول لك هذا يكفر، حتى وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصلى وصام، إذا يشهد لشخص أنه نبي هذا يكفر؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده؛ فقل له إذا كان يكفر لرفعه لرجل إلى رتبة النبوة مع أنه يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم فكيف لا يكفر من يرفع رجلاً - أي كان مقامه - إلى رتبة الجبار - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فيعطيه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا لله - جَلَّ وَعَلَا -.

قال: (فكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ) شمسان وكذلك يوسف وسيأتي قريباً أيضاً تاج، هذه أسماء أشخاص كانوا في زمان الشيخ يُعَظَّمُونَ وَيُقَرَّبُ إِلَيْهِمْ وَتُصَرَّفُ لَهُمُ النُّذُورُ، ولهذا ذكر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - محمد بن إبراهيم في

سؤال له عن هؤلاء، قال: «أما تاج فهو من أهل الخرج تُصرف إليه النذور ويُدعى ويُعتقد فيه النفع والضرر، وأما شمسان فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه لا يبعد عن العارض -وهي منطقة- وله أولاد يُعتقد فيهم، وأما يوسف فقد كان على قبره وثن يُعتقد فيه؛ فهؤلاء شمسان ويوسف وتاج أشخاص كانوا يُعتقد فيهم، تقدم لهم القرايين والنذور ويُلتجأ إليهم؛ فكيف من رفع هؤلاء الأشخاص إلى رتبة الألوهية وأعطاهم من الحقوق ما ليس إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لا يكون كافرًا لكونه يُصلي ويصوم ويشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟! ومن ادعى في شخص أنه نبيّ يكون كافرًا وإن شهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإن صلى وصام»^(١).

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- (سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾) وهذا عمى في القلوب وضلال من أشد ما يكون لأنهم يدركون أن من يرفع شخصا إلى درجة النبوة يكفر وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإن صلى وصام ولا يقرون بأن من رُفِعَ إلى درجة الألوهية يكفر لكونه يشهد بهذه الأمور.



(١) «فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١/ ١١٧).

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ
الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الْاِعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ
أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ
تَظُنُّونَ أَنَّ الْاِعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْاِعْتِقَادَ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الجواب الرابع على تلك الشبهة، قال: (وَيُقَالُ
أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ،
وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) كانوا حوله ويعظمونه ويظهرون محبته
وتولييه، (وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ) كانوا يعيشون بين الصحابة وما عرفوه من
أمور الإسلام عرفوه من طريق الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وأرضاهم-، لكنهم وقعوا في
غلو شنيع فاعتقدوا في علي رضي الله عنه ورفعوه إلى مقام الألوهية، قال (وَلَكِنْ
اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الْاِعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا) يعني اعتقدوا في علي
اعتقادات مثل اعتقادات من اعتقد في شمسان أو في تاج أو يوسف أو غيرهم من
الذين كان من يتعلق بغير الله يعتقد بهم ويصرف لهم ما لا يصرف إلا لله تبارك
وتعالى.

قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ
الْمُسْلِمِينَ؟)، وهذه كلمة كثيرا ما قالها أهل الضلال في حق الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ-

ومن كانوا على نهجه في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، يقولون أنه يكفر المسلمين، وتبرأ من ذلك في كتابات ورسائل عديدة، وبين كذب هذه الدعوة وأنه لا يكفر مسلماً وإنما يكفر من كفره الله ورسوله ومن كان كافراً بدلالة كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -؛ وحاشاه وغيره من أئمة العلم والفضل أن يكفروا مسلماً؛ بل هو - رَحِمَهُ اللهُ - وغيره من أئمة العلم من أشد الناس نهياً عن التكفير، قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الْإِعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْإِعْتِقَادَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟)، فهذه أمثلة يسوقها - رَحِمَهُ اللهُ - وشواهد من الكتاب ومن السنة ومن أفعال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يبين من خلالها فساد هذه الشبهة ووهائها.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بِيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ».

[الشرح]

وها الجواب الخامس لهذه الشبهة، قال: (وَيَقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ)، بنو عبيد القداح هؤلاء تسلطوا على المغرب ومصر مدة من الزمن وكانت المساجد قائمة والأذان يُرفع وتقام الصلاة وتقام الجمع؛ ولكنهم عظموا هؤلاء الحكام من بني عبيد ويدعون أنهم من الفاطميين، وهذه دعوة كاذبة بينها أهل العلم وأنها نسبة كاذبة لا صحة لها، فأتباع هؤلاء عظموهم واعتقدوا فيهم اعتقادات لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى، فاتفق أهل العلم على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب مع أن بلادهم فيها إقام الجمعة والجماعة والصلاة، قال: (وَعَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بِيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ) أي: ولم يجعلوا الشهادتين والصلاة والزكاة والجمعة والجماعة فرقا مؤثرا عندهم أو مانعا

من الحكم عليهم بالكفر وقتالهم واعتبار بلدهم بلاد حرب، لم يعتبروا ذلك مانعاً
من ذلك.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشَّرِّ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ وَهُوَ الْمُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعَ كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يَكْفُرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ وَاللَّعِبِ».

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللهُ - هذا الجواب السادس على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشَّرِّ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) يعني كما يدعيه صاحب هذه الشبهة ويشير لها، (إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشَّرِّ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) وغير ذلك من الأمور التي ذكروها في الشبهة، يقول الشيخ في الجواب: (فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ) ما معنى هذا الباب؟ وفي كل المذاهب يوجد هذا الباب (باب حكم المرتد)، وتحت هذا الباب تُذكر الأمور التي تحصل بها الردة عن الإسلام ويحصل بها انتقاض الإسلام، وتجد من يذكر هذه الأمور التي يحصل بها الردة تجدهم بين مطول ومختصر، منهم من يذكر أشياء كثيرة وتفاصيل دقيقة ومنهم من يذكر ما هو دون ذلك، لكنهم جميعا متفقين على أن المرء يرتد عن دينه بفعل هذه الأمور التي

تكون بها الردة عن الإسلام سواء حصل منه أمرا واحدا ينقض الإسلام أو أكثر من واحد، ولهذا يقول الشيخ: (فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: **بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ**)^(١)، إذا كنتم تقولون أن الكفار الأول لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين هذه الأشياء يشركون ويكذبون وينكرون القرآن وينكرون البعث ويكذبون بالنبي - ﷺ - ولهذا كُفِّرُوا، إذن ما معنى باب حكم المرتد؟ الموجود في كتب الفقه عموما؟ قال: (وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ) هذا تعريف للمرتد، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً أَي: تحصل بها الردة، (ثُمَّ ذَكَرُوا) أَي: أئمة الفقه، علماء الفقه من كل المذاهب، (ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يَكْفُرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ وَاللَّعِبِ). عُدَّتْ نَاقِضًا لِلإِسْلَامِ وَمَوْجِبًا لِلرَّدَةِ عَنِ الإِسْلَامِ، فَإِذْنِ مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ وما معنى هذا الكتاب الذي في جميع كتب الفقه باختلاف المذاهب، هذا أيضا جواب آخر على هذه الشبهة.

(١) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا عقد العلماء من كل مذهب باب حكم المرتد، قالوا: باب حكم المرتد، ثم فسروه فقالوا: المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، يهني هو الذي يأتي بنقض من نواقض الإسلام، فيكفر بذلك وإن قال: لا إله إلا الله، فلو كان يقول: لا إله إلا الله، ويصلي ويصوم ولكن يقول: الزنا حلال من شاء زنى فلا بأس، كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن الخمر حلال؛ كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن عقوق الوالدين حلال؛ كفر عند جميع أهل العلم» (شرح كشف الشبهات) (ص ١١٤).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيَقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ﴿أَمَّا سَمِعَتْ اللَّهُ نَفْسُهُمْ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُؤَحِّدُونَ.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿قُلْ أَيْلَهُ وَعَائِنَهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْح.

فَتَأْمَلُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفِّرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ أُنَاسًا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيُصُومُونَ، وَيَحُجُّونَ، ثُمَّ تَأْمَلُ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ».

[الشرح]

قال: (وَيَقَالُ أَيْضًا) أي: في الجواب على هذه الشبهة وهو الجواب السابع (الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾) تأمل الآية ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إسلامهم أي: شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان هذا هو الإسلام الذي كانوا عليه، فأثبت الله - جل وعلا - لهم إسلامًا وكفرا بعده سببه أنهم قالوا كلمة الكفر ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ

إِسْلَامِهِمْ ﴿ فَإِذَنْ مَنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُصَلِّي وَيُصُومُ ثُمَّ يَحْصِلُ مِنْهُ أَمْرًا يَنْقُضُ الْإِسْلَامَ، أَيْبَقَى عَلَى إِسْلَامِهِ مَعَ وَجُودِ النَّاْقِضِ؟! أَتَفِيْدُهُ الشَّهَادَةَ وَتَفِيْدُهُ الصَّلَاةَ وَيَفِيْدُهُ الصِّيَامَ مَعَ وَجُودِ النَّاْقِضِ؟! حَاشَا، قَالَ: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ﴿، قَالَ: (أَمَّا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيَزُكُّونَ، وَيَحْجُونَ، وَيُوحِّدُونَ) مِنْ أَيْنَ لِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّهُمْ يَصَلُّونَ مَعَهُ وَيَزُكُّونَ مَعَهُ وَيَحْجُونَ مَعَهُ وَيُوحِّدُونَ مَعَهُ؟ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ إِسْلَامَهُمْ، قَالَ ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ﴿ أَثْبَتَ اللَّهُ لَهُمْ إِسْلَامَهُمْ وَأَثْبَتَ لَهُمْ كُفْرَهُمْ بَعْدَ هَذَا الْإِسْلَامِ، مَا مَعْنَى أَسْلَمُوا؟ أَيْ: شَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ، أَتَوُا بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ؛ لَكِنْ لَمَّا قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ انْتَقَضَ هَذَا الْإِسْلَامُ، فَكَيْفَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ أَيْ: مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ أَنَّنَا نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَنَقِيمُ الصَّلَاةَ وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا كَشَفَ لِهَذِهِ الشُّبُهَةِ.

قَالَ: (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ﴿) كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ الَّتِي قَالُوهَا: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قِرَائِنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ!»^(١)، وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، يَعْنِي مَا قَصَدْنَا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا كُنَّا نَذْهَبُ عَنْ أَنْفُسِنَا عَنْاءَ الطَّرِيقِ وَمَشَقَّةَ السَّفَرِ فَمِنْ بَابِ

(١) رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٤/ ٣٣٣)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٦/ ١٨٢٩).

المداعبة والمزاح قلنا هذه الكلمة، فنزل قول الله ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿﴾، وكان بعضهم يمسك بخطام الناقة ويعتذر للنبي - ﷺ - ولا يلتفت عليه النبي - ﷺ - ولا يزيد على هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ﴿﴾، فكان هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ويصومون ويصلون وجاهدوا مع النبي - ﷺ - ونزلت فيهم هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ﴿﴾.

قال: (فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ) قالوا في حق فضلاء الصحابة: «ما رأينا أجبن من قرائنا هؤلاء ولا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء»، قالوا هذه الكلمة فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿﴾ والشيخ يقول: (قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ) فكفروا مع أنهم يصلون ويصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويجاهدون مع النبي - ﷺ - وكفروا بذلك.

فمن كان يصلي ويصوم ويشهد أن لا إله إلا الله ويجعل مع الله شريكا ندا يصرف له من الحقوق ما ليس إلا لله ألا ينتقض إسلامه؟ قد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿﴾، قال: (فَتَأْمَلُ هَذِهِ الشُّبُهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكَفِّرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ أَنَسًا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، ثُمَّ تَأْمَلُ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ) أي: أن هذه الأجوبة السبعة التي ذكرها - رَحِمَهُ اللَّهُ - عظيمة الشأن عليّة القدر كبيرة الفائدة وصفها - رَحِمَهُ اللَّهُ - أنها أنفع ما في هذا الكتاب.

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَقَوْلَ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ) فَحَلَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾.»

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- أيضا جوابين إتماما لما سبق وإضافة إلى سبق، مع أن ما سبق كل جواب من الأجوبة التي ذكرها كاف -رَحِمَهُ اللهُ- في كشف هذه الشبهة؛ لكن لما كانت تُذكر وتكرر وتعاد وتُبدى وأثرت في أناس كثيرين حرص -رَحِمَهُ اللهُ- على أن يجيب عليها بأجوبة عديدة، ولهذا نلاحظ أن هذه الشبهة هي الشبهة التي أجاب عنها بأجوبة كثيرة، وبقية الشبه إما يجيب عنها بجواب واحد أو جوابين أو ثلاثة، أما هذه الشبهة فأجاب عنها بقراءة التسعة أجوبة، هذه السبعة التي مضت وهذين الجوابين هنا، وهذه كلها أجوبة منه -رَحِمَهُ اللهُ- على تلك الشبهة.

قال: (وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حَكَى اللهُ ﷻ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) هؤلاء أناس كانوا على علم وعلى شيء من الصلاح وإلى جنب النبي موسى عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل ثم طالبه هذه المطالبة قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، (وَقَوْلَ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ:

اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ فَحَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾^(١).



(١) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ - «سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ».

[الشرح]

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ) أي: عندما نحتاج عليهم بهذه القصة يشيرون شبهة وهي أنهم يقولون: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ) وحاصل هذه الشبهة: إذن لماذا تكفرونا وتستدلون على تكفيرنا بهذه الآية وبهذا الحديث مع أن هؤلاء لم يكفروا بذلك؟ أي: كيف تحتجون بهاتين القصتين على الحكم علينا بالكفر، قال: (فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا) طلبوا، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ هم طلبوا ولم يفعلوا، (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا) قالوا: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، طلبوا من النبي ﷺ ذلك لما رأوا للمشركين سدرة يعكفون عندها ويعلقون عليها أسلحتهم تبركا قالوا: يا رسول الله اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ وَكَانُوا

حدثنا عهد بإسلام، فقال ﷺ «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة» فيقول الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أن الذين مع موسى ﷺ لم يفعلوا والذين مع النبي -رَحِمَهُ اللهُ- لم يفعلوا (وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ)، والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- طالما نهاهم عن الشرك وحذرهم منه وذكر لهم الدلائل على بطلان ما هم عليهم وبين لهم حق الله وذكر لهم الآيات والحجج والبراهين من كتاب الله وسنة نبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ومع ذلك يعاندون ويخاصمون.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بِلِ الْعَالِمِ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَهَّالِ: التَّوْحِيدُ فَهْمُنَاهُ؛ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ.

وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفْرٍ وَهُوَ لَا يَدْرِي فَبُئِيَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ

وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُكْفَرْ فَإِنَّهُ يُغَلْظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[الشرح]

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ فوائد تستفاد من هذه القصة يستفيدها المسلم ويتنفع بها، قال (وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بِلِ الْعَالِمِ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا) وهذا يدخل في باب الخوف من الشرك؛ بل عقد -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابه التوحيد باب نافعاً عنوانه «الخوف من الشرك» وبدأه بقول الله تعالى ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ونقل عن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللهُ: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم؟!»^(١).

، قال: (وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بِلِ الْعَالِمِ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا) ولهذا أيضا جاء في الاستعاذة وثبتت عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/١٧).

إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ^(١)، فرق بين من يخاف من الشرك على نفسه وعلى ولده ويدعو الله جل وعلا أن ينجيه منه وبين من هو متلبس بالشرك متلطخ به ويدعي أنه بريء منه، قال: (فَتَفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ) هذه القصة تفيد التعلم والتحرز من جهة ماذا؟ إذا كان هؤلاء أصحابا لموسى من أولي العزم من الرسل يمشون معه ويتعلمون ويرونه ويتفقهون على يديه ثم فجأة يقولون: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وأيضا من هم مع النبي -ﷺ- ومتجهين إلى القتال في سبيل الله ونصرة لدينه ومعهم السلاح ويمرون بسدرة ويقولون: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فيقول ﷺ (الله أكبر! إنها السنن! قلم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)، فإذا هذا يفيد التحرز، إذا كان هؤلاء قالوا هذه الكلمة وهم كانوا يمشون جنبا إلى جنب مع النبي -ﷺ- في قتال وفي جهاد في سبيل الله، فهذا يفيد التعلم والتحرز، التعلم أي: للتوحيد وأيضا معرفة ضده وهو الشرك، والتحرز من الوقوع في الشرك بالله أي: الاحتياط والبعد والمجانبة للشرك ووسائله وأسبابه.

(فَتَفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنْ قَوْلَ الْجَاهِلِ: التَّوْحِيدُ فَهْمُنَاهُ؛ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ) هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان، بعض الناس لا يفهم التوحيد وإذا أُريد تعليمه التوحيد قال التوحيد نعرفه، لا يخفى علينا التوحيد، من يجهل التوحيد؟ التوحيد فهمناه! ولا يقبل أن يسمع درسا أو كلمة في التوحيد، أو بعضهم يقول التوحيد لا يحتاج أن يُدرس مرات وكرات وأن تصرف في دراسته

(١) (١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

أوقات، ممكن في دقائق ننتهي منه، ما يحتاج الأمر إلى ذلك.

فهذه القصة تفيد التعلم للتوحيد ومدارسته والاحتراز منه، وتفيد أن كلمة «التوحيد فهمناه» التي قد يقولها البعض هذه كما قال الشيخ لا تصدر إلا من جهل وهي من مكائد الشيطان، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الكلمة قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنه أو كتب نحوه، سئمو وأرادوا القراءة في كتب أخرى». «سئمو» أي: ملّوا من القراءة، أصابهم السّامة والملل من القراءة في التوحيد وأرادوا ان يقرؤوا في كتب أخرى.

فقالوا هذه الكلمة: خلاص التوحيد فهمناه لا نحتاج إلى دراسة توحيد.

ثم قال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الكلمة صدرت من بعض الطلبة وقيل إنها من المراسلين -أي الذين يرسلون الشيخ- فنقم عليه المصنف في هذا القول»^(١): يعني كان يرسلهم بالتوحيد ويذكر لهم شواهد وأدلة فكتب إليه بعضهم لا ترسل لنا التوحيد فهمناه التوحيد مفهوم عرفناه ما نحتاج أن تكتب لنا شيئاً في التوحيد، فيقول أن هذه القصة تفيد أهمية التعلم للتوحيد ودراسته وأهمية التحرز من الشرك مهما كان الإنسان في المكانة وأن الاستهانة بدراسة التوحيد هذه من أسباب الجهل وهي مكائد الشيطان.

قال: (وَنُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ) المجتهد بإسلامه وعبادته (إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفْرٍ وَهُوَ لَا يَدْرِي) خرجت منه كلام الكفر وهو لا يدري (فَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ)

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ١٣٧).

أي: أن موسى عليه السلام لم يكفرهم بذلك وأن النبي ﷺ - لم يكفرهم بذلك لأنه قالها وهو لا يدري ثم نبه من ساعته وانتبه وتاب إلى الله ورجع عن كلامه، هذا لا يكفر لكن شخص تنبهه وتأتي له بالآية والحديث والنصوص والأدلة والحجج والبراهين ويصر على أعمال الشرك والكفر بالله سبحانه وتعالى.

هذه كلها فوائد مستنبطة من القصة، قال (وَتَفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغْلَظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) يعني لو لم يكفر لقوله هذه الكلمة الكفرية كونها صدرت عنه وهو لا يدري لا يعني ذلك بأنه يترك؛ بل يغلظ عليه في الكلام ويشدد عليه في القول مثل ما غلظ موسى عليه السلام وشدد القول على أولئك وكما غلظ نبينا ﷺ أيضا القول على الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال (وَتَفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغْلَظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) أي: معهم، الذين قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

ويكون بهذا الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أجاب عن الشبهة من وجوه كثيرة مسددة موفقة نافعة جدا لطالب العلم، وأيضا ذكر جواب هذا الاعتراض الذي قد يورده البعض على جواب الشيخ الأخير -رَحِمَهُ اللهُ- وغفر له وجزاه خير الجزاء.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي - ﷺ - أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وكذلك قوله: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)). وأحاديثاً أخرى، وأحاديث أخرى في الكفِّ عمن قالها. ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها - أن من قال لا إله إلا الله - لا يُكْفَر، ولا يُقْتَل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء المشركين الجُهل: معلومٌ أنَّ رسول الله - ﷺ - قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله. وأنَّ أصحاب رسول الله - ﷺ - قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويصلون، ويدعون الإسلام. وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

وهؤلاء الجهلة، وهؤلاء الجهلة مُقَرَّون أنَّ من أنكر البعث كَفَرُ وقُتِل ولو قال لا إله إلا الله، وأنَّ من جحد شيئاً من أركان الإسلام كَفَرُ وقُتِل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع؟ وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟.

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث فأسامة، فإنه قُتِل رجلاً ادَّعى الإسلام بسبب أنَّه ظنَّ أنَّه ما ادَّعاه إلا خوفاً على دمه وماله.

والرجل إذا أظهر الإسلام، وَجَبَ الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك. وأنزل

الله في ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتشوا.

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتَّشَبُّت، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل؛ لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتَّشَبُّت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه: أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكفُّ عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله - ﷺ - الذي قال: ((أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟))، وقال: ((أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)). هو الذي قال في الخوارج: ((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، لَنْ أَدْرَكْتَهُمْ لِأَقْتُلْتَهُمْ قَتْلَ عَادٍ))، مع كونهم من أكثر الناس عبادةً، وتهليلاً، حتى إن الصحابة أو يحرقون صلاتهم عندهم، وهم تعلَّموا العِلْمَ من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة.

وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود، وقاتل الصحابة بني حنيفة. وكذلك أراد - ﷺ - أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقُ بَنِي فُتَيْيَنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَنُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] وكان الرجل كاذباً عليهم. فكلُّ هذه يدل أن مراد النبي - ﷺ - في الأحاديث التي احتجَّوا بها ما ذكرناه.

[الشرح]

ذكر المصنّف - رحمه الله تعالى - هنا شبهةً أخرى لمن يتعلقون بغير الله

-تبارك وتعالى- دعاءً، ورجاءً، وذلاً، ورغباً، ورهباً. وسبق أن ذكر لهم -رحمه الله- شبهة وجه إلى الإصغاء إلى جوابها، وأجاب عنها من تسعة أوجه، وهي؛ أن هؤلاء يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويُنكروُن البعث، ويكذبون بالقرآن، أما نحن فنشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلى آخره. وأجاب -رحمه الله- عن هذه الشبهة من وجوه تسعة، كل واحد منها كافٍ في نقض هذه الشبهة، وهنا قال: ولهم شبهة أخرى، يقولون: إن النبي -ﷺ- أنكر على أسامة رضي الله عنه قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: ((يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟))^(١).

فما الفرق بين هذه الشبهة والتي قبلها؟.

فالفرق بين هاتين الشبهتين من جهتين:

الجهة الأولى: هي استدلالهم على ما سبق بكلام النبي ﷺ تشبيهاً على الناس وتليسياً، استدلالهم على ذلك بأحاديث النبي -ﷺ-، وأن ثمة أحاديث ثابتة عن رسول الله -ﷺ- فيها الأمر بالكف عمن قال لا إله إلا الله، أو شهد أن لا إله إلا الله، ووظفوا هذه الأحاديث على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل.

والجهة الثانية: أنهم قالوا إن النصوص دلت على أن من شهد أن لا إله إلا الله فهو حرام الدم والمال، فأشاروا إلى هذه الأحاديث تقريراً لهذا المعنى، وأن من ينطق بالشهادتين حرّم دمه وماله، فكيف يقال بأنه يكفر وأنه يُقاتل إذا تعلّق بغير الله، ولجأ إلى غير الله، ودعا غير الله؟، فهذا محصل مراد هؤلاء بهذه الشبهة، وهذا

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

هو الفرق بينها وبين الشبهة التي قبلها.

وجواب الشيخ - رحمه الله - عن هذه الشبهة أيضاً كان من جهتين؛ الجهة الأولى: ذكره - رحمه الله - للنصوص الدالة على أَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وشهد بها وأتى بما يناقضها يَكْفُرُ.

وأعاد ذكر بعض الأدلة التي سبق أن ذكرها في الوجه، أو في الجواب على الشبهة السابقة أعادها ملخصة هنا.

والوجه الثاني: في نقضه - رحمه الله - لهذه الشبهة، بيانه لخطأ هؤلاء في فهمهم لهذا الحديث، ونظائره من أحاديث رسول الله - ﷺ - الواردة في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي - ﷺ - أنكر على أسامة قتل من قال: (لا إله إلا الله). وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها».

يقولون إن النبي - ﷺ - أنكر على أسامة، أي: ابن زيد قَتَلَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أنكر عليه قَتَلَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وقال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وكذلك قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

«وأحاديث أخرى في الكف عمن قال لا إله إلا الله»: ومراد هؤلاء بالشبهة واضح، وهو أَنَّ هذه الأحاديث ونظائرها دَلَّتْ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصِمَ دَمَهُ وماله، أو حَرَّمَ دَمَهُ وماله، فكيف تستجيزون أن يُكْفَرُوا وأن يُقَاتَلَ مع أنه يقول هذه الكلمة وينطق بها؟.

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ومراد هؤلاء الجهلة أن من قال لا إله إلا الله لا يُكفر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل» أي: من استدلالهم بهذه الأحاديث أن من قال لا إله إلا الله لا يُكفر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل: أي من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، ولو فعل ما فعل من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، فاستدلّوا بهم بهذا الحديث يفيد أنهم يرون أن قائل لا إله إلا الله يَحْرُمُ دمه وماله ولا يُكفر وإن قال ما قال، أو إن فعل ما فعل، وإن قال ما قال من المكفرات الناقضة مِنَ الملة، أو فعل ما فعل من نواقض الإسلام فإنه لا يُكفر ولا يُقتل، هذا فهمهم لهذه الأحاديث، وحاشا أن يكون مراد النبي - ﷺ - بهذه الأحاديث هذا المعنى الذي فهمه هؤلاء، وسيأتي بيان الشيخ - رحمه الله - في ختام جوابه على هذه الشبهة ذكّر معنى هذا الحديث ونظائره من أحاديث الرسول - ﷺ - الواردة في الباب.

قال - رحمه الله - في الجواب عن هذه الشبهة: «فيقال لهؤلاء المشركين الجهال»: المشركين؛ لكونهم صرفوا حق الله لغيره، وأخذوا يدافعون عن صرف هذا الحق الذي هو الله - تبارك وتعالى -، يدافعون عن صرفهم لغيره - سبحانه وتعالى - ممن لا يملك لهم نفعاً ولا دفعاً ولا يملك لهم موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وجهال؛ لأن هذا هو أعظم الجهل، الجهل بالتوحيد، الذي هو أعظم المقاصد، وأجل الغايات وأرفعها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فيقال لهؤلاء المشركين الجهال، معلوم أن رسول الله - ﷺ - قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله، قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إله إلا الله»، اليهود كانوا في المدينة مع النبي - ﷺ -، ويُسمع منهم الشهادتان،

ويشهدون الصلاة في المساجد، ويعملون أعمال أهل الإسلام، ومن المعلوم أنَّ المنافق هو من يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ومعنى يُظهر الإسلام: يشهد أنَّ لا إله إلا الله، ويشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤدي العبادات الظاهرة، ومن المعلوم أنَّ النبي - ﷺ - قاتل اليهود وسباهم، ليس مرة واحدة، ولا في موطن واحد، بل؛ مراتٍ، وفي مواطن، ومتى قاتلهم؟ عندما ظهر منهم ما يكشف عن نفاقهم، ويدل على سوء طويّاتهم، وأنَّهم ليسوا مع أهل الإيمان قلبًا وقالبًا، فعندما يظهر منهم ما يدل على ذلك، ويبيِّن حالهم قاتلهم ﷺ، وكان قتالُه للمنافقين، وسببُه لأموالهم ونسائهم، كان في عدة مواطن، كما دلَّ على ذلك القرآن، وكما دلَّ على ذلك السنة وسيرة النبي ﷺ، ومن ذلكم ما جاء في ﴿سورة الحشر﴾ في قتال النبي ﷺ لهؤلاء.

فالشاهد أنَّ النبي ﷺ صحَّ عنه قتال المنافقين مع أنَّهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويشهدون الصلاة، ومع ذلكم قاتلهم، وهؤلاء يقولون نحن نشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ونصلي، ونصوم، فلا يحل قتالنا، يعني: طالما أنَّ هذه الأمور نفعلها، أو تُفعل، فمنْ يفعلها لا يحلُّ قتاله، معنى كلامهم؛ بأي وجه من الوجوه، أليس كذلك؟

ومعنى كلامهم أنَّه لا يحلُّ تكفير، وقاتل مَنْ جاء بهذه الأمور بأي وجه من الوجوه، هذا هو المراد باستدلالهم.

ولهذا قال الشيخ - رحمه الله - في تقييض مراد هؤلاء، قال: «وإنْ فعل ما فعل» أي: من أنواع النواقض للإسلام.

قال: «وَأَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَصَلُّونَ وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ»، أي: ومعلوم أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَصَلُّونَ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، قَاتَلَهُمْ ﷺ، وَسَبَقَ أَنْ ذَكَرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هَذَا الدَّلِيلَ، وَذَكَرَ أَيْضًا اعْتِرَاضَ هَؤُلَاءِ عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ.

قال: «وَكَذَلِكَ الَّذِينَ حَرَّقَهُمُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا يَصَلُّونَ مَعَهُ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، لَكِنْ لَمَّا وُجِدَ فِيهِمْ مَا يَنْقُضُ الشَّهَادَتَيْنِ وَيَبْطُلُ الْأَعْمَالُ قَاتَلَهُمُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَرًّا قَتَلَهُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا غَلَوُ فِي عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَعَظَمُوهُ تَعْظِيمًا لَا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ، وَرَفَعُوهُ بِهَذَا التَّعْظِيمِ إِلَى رَتَبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، رَفَعُوهُ بِهَذَا التَّعْظِيمِ إِلَى رَتَبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَأَجَجَ عَلِيٌّ نَارَهُ وَأَلْقَاهُمْ فِي النَّارِ وَقَاتَلَهُمْ هَذِهِ الْقَتْلَةَ، وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ قَتْلَهُمْ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ التَّحْرِيقَ بِالنَّارِ، أَيْ؛ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ طَرِيقَةَ الْقَتْلِ، لَكِنْ لَمْ يَنْكَرُوا عَلَيْهِ قَتْلَهُ لَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَهُمْ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمِنْ أَصْحَابِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ شِيعَتِهِ، وَمِنْ أَعْوَانِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا غَلَوُ فِي هَذَا الْغُلُوِّ، وَرَفَعُوهُ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، قَاتَلَهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - هَذِهِ الْقَتْلَةَ، قَالَ: «وَهَؤُلَاءِ الْجَهَالُ مُقَرَّرُونَ أَنَّ مِنْ أَنْكَرِ الْبَعْثِ كُفْرَ وَقِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَهَذَا وَجْهٌ فِي نَقْضِ شَبْهَةِ هَؤُلَاءِ، يُؤْتَى لَهُمْ مِنَ النَّوَاقِضِ مَا يَقَرُّونَ بِهِ وَيَسْلَمُونَ، وَيُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، فَيَقَالُ لَهُمْ مِثْلًا: مَاذَا تَقُولُونَ فِيمَنْ يَنْكَرُ الْبَعْثَ؟ يَقُولُ: لَيْسَ هُنَاكَ بَعْثٌ وَلَا جَنَّةٌ وَلَا حِسَابٌ

ولا نار ما رأيكم فيه؟ ما قولكم فيه؟ ما رأيكم بمن ينكر اليوم الآخر؟ ويقول ليس هناك يوم آخر، ينكر هذا الركن من أركان الإيمان، ما رأيكم فيمن ينكر النبوات؟ ويزعم أنه لا نبي وليس هناك نبوات يجحد ذلك، ما رأيكم فيمن ينكر وجود الملائكة؟ يقول ليس هناك ملائكة مع أنهم ذُكروا في القرآن وذُكروا في السنة، ما رأيكم فيمن ينكر ذلك؟ فيقولون: يكفر، وإن شهد أن لا إله إلا الله؟ وإن شهد أن لا إله إلا الله يكفر، وهذه من أركان الإيمان: الملائكة، والكتب، والأنبياء والرسل، والبعث، لكنها ليست أعظم من الإيمان بالله، الذي هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع هذه الأصول، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُنْهِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فهذه الأصول ترجع إلى هذا الأصل الذي هو أصل أصول الإيمان، وفي باب الكفر قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُنْهِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فهي ترجع إليها، فكيف يقال في حق مَنْ أنكر هذه الأصول أو شيء منها أنه يكفر وإن قال لا إله إلا الله؟ ولا يكفر مَنْ جحد أصل الأصول وهو توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له؟!!

قال: «وهؤلاء الجهلة مقرون أن منكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها» فهؤلاء يُقَرُّون أيضاً أن من يجحد شيئاً من أركان الإسلام ومبانيه، مثل: لا يقر بوجوب الصلاة، ولا يقر بوجوب الصيام؛ فيما لو قال قائل: الصيام ليس واجباً، أو الحج ليس واجباً، وجحد ذلك ماذا يقولون هؤلاء فيه؟ يقولون: هو كافر وإن قال لا إله إلا الله.

قال رحمه الله: «فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد

الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟» أي: كيف لا تنفعه لا إله إلا الله ونطقه بها إذا جحد شيئاً من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟، كيف لا تنفعه عندما يجحد تلك الأصول البعث واليوم الآخر والأنبياء أو يجحد شيئاً من أركان الإسلام، وتكون نافعة له عندما يجحد أصل الدين وهو توحيد الله - سبحانه وتعالى - وإخلاص الدين له، فهذا واضح تمام الوضوح في كشف هذه الشبهة وإظهار بطلانها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث»، هنا انتقل - رحمه الله تعالى - إلى الوجه الثاني في رد هذه الشبهة، وبيان المعاني الصحيحة لهذه الأحاديث التي استدلو بها، وردّ المعنى الباطل الذي فهمه هؤلاء من هذه الأحاديث، وأنّ استدلالهم بهذه الأحاديث استدلالاً بها فيما لا تدل عليه وفيما ليس مراداً منها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فأما حديث أسامة، فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله» أي: إلا خوفاً على دمه وماله، الذي حصل من أسامة رضي الله عنه أنه لما لقي هذا الرجل، وتمكن منه وأراد أن يجهز عليه بسيفه، قال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، نطق بالشهادتين في هذه الحالة، فظنّ أسامة - رضي الله عنه - أنه إنما قالها تعوداً، ظنّ أنه إنما قالها أي في هذه اللحظات تعوداً أي ليحمي نفسه من القتل وليقي نفسه من القتل، لا عن اعتقاد ولا عن رغبة فظنّ ذلك فقتله، قتله لأنه - رضي الله عنه - وأرضاه ظنّ وحسب أن هذا الرجل إنما قالها تعوداً من القتل وليقي نفسه بذلك من القتل، قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله، ما ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله،

أي: لا عن رغبة، ولا عن صدق، في هذه الشهادة مع الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا قال النبي ﷺ: ((أَفَلَا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟)) يعني هذا المراد لا يظهر لأحد إلا إذا اطلع على ما في قلب الإنسان، الإرادة مكانها القلب والنية مكانها القلب، ونحن لنا الظاهر والله - تبارك وتعالى - يتولى السرائر، فالرجل أعلن الإسلام، ادعى الإسلام، نطق بالشهادتين أصبحت عاصمة له، فيبقى على أصل العصمة بنطقه بالشهادتين إلا إذا ظهر لنا منه ماذا؟ ما ينقضها، أمّا إذا قالها عصمته حتى يقول لا إله إلا الله، إذا قالها عصمته، عصمته وحرم دمه وماله، وحرم دمه وماله، إذا شهد وادّعى الإسلام أصبح بذلك معصومًا، معصوم الدم والمال، إلا إذا ظهر بعد ما ينقض ذلك، لكن بمجرد إعلان الإسلام والنطق بالشهادتين ليس لنا إلا الظاهر والله - تبارك وتعالى - يتولى السرائر.

وأسامة - رضي الله عنه - قتله لما ادعى الإسلام بناء على ظن منه رضي الله عنه وأرضاه أنه إنما قالها تعوذاً، فبناءً على هذا الظن قتله، فقال له النبي ﷺ: ((أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟)).

قال - رحمه الله -: «والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه ومن أظهر الإسلام النطق بالشهادتين، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك»، معنى قوله: «ما يخالف ذلك» أي: أن يأتي بناقض، بجحد شيء من أركان الإيمان، أو جحد شيء من مباني الإسلام، أو الوقوع في أعظم المكفرات، وهو جحد ما يتعلق بحق الله - عز وجل - على عباده الذي هو أصل الدين ورأسه

وأساسه، قال: «وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، أي: فتثبتوا» أي: أنزل الله تبارك وتعالى في ذلك أي: في هذه الواقعة وفي هذا الأمر أنزل هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] ومعنى تبينوا أي: تثبتوا، والمراد تثبتوا فيمن أردتم قتله وقتاله، حتى لا يكون قتل ولا قتال لمن هو من أهل الإسلام، ومن هو مظهر للإسلام ولم يتبين منه خلاف ذلك، «فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد أو بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتِلَ»، ما الدليل؟ قال: «لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]»، هذا هو الدليل، أنه إن تبين منه ما يخالف الإسلام وينقض الإسلام قُتِلَ، والدليل على ذلك قوله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وجه الاستدلال؛ قال: «ولو كان لا يُقْتَلُ إذا قالها لم يكن للتثبت معنى» لم يكن للتثبت والتبين معنى، ما معنى فتثبتوا؟ إن كان لا يُقْتَلُ مَنْ قال لا إله إلا الله، لا يُقْتَلُ أو لا يُقاتل مَنْ قال لا إله إلا الله.

قال - رحمه الله -: «وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه أن مَنْ أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك» أي: فإن تبين منه ما يناقض ذلك كإنكار البعث، وإنكار الملائكة، وإنكار النبوات، وجحد أصل الأصول وأعظمها على الإطلاق وهو توحيد الله، وإنكار شيء من مباني الإسلام أو نحو ذلك من المكفرات فهذا لا يَكْفُ عنه ولا يكون داخلاً في هذه الأحاديث.

ولهذا جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث قال: ((أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،

إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)).

قال: «والدليل على هذا»، أي: الدليل على أن هذا الذي قرره -رحمه الله تعالى- هو مراد النبي -عليه صلاة والسلام- خلافاً للمعنى الخاطيء، والاستدلال الباطل الذي قرره هؤلاء الجهال، قال: «والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ -الذي قال: ((أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟))، وقال: ((أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)) هو الذي قال في الخوارج: «فَأَيْنَمَا لِقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

والخوارج أليسوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ أليسوا يصلون؟ أليسوا يصومون؟ أليسوا يقرؤون القرآن ويجتهدون في العبادة؟، بل؛ قال النبي ﷺ للصحابه: ((يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ))^(٢)، فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويجتهدون في العبادة، ومع ذلك قال ﷺ: ((فَأَيْنَمَا لِقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))، وقال: ((لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ))^(٣)، لأقتلنهم شرَّ قتلَه، مع أنهم يأتون بهذه الأشياء، يأتون بالشهادتين، ويصلون، إلخ..

فماذا يقول هؤلاء في مثل هذه الأحاديث؟ وسبق أن قالوا: أن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم لا يُقتل؟

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

قال - رحمه الله -: «مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً، تهليلاً: أي تكراراً لكلمة التوحيد - لا إله إلا الله -، «حتى إِنَّ الصحابة يَحْقِرُونَ صلاتهم عندهم»، يَحْقِرُونَ صلاتهم عندهم، أي: عند الخوارج؛ لأنَّ عندهم اجتهاد في الصلاة، واجتهاد في العبادة، «وهم تعلموا العلم من الصحابة»، أي: الخوارج من أين حفظوا القرآن؟ ومن أين عرفوا الصلاة؟ ومن أين عرفوا الصيام؟ بل الدين من أين عرفوه؟ ما عرفوه إلا من طريق الصحابة، أخذوا الدين وتلقوه عن الصحابة، ولازموا أصحاب النبي ﷺ وجالسوهم، وتلقوا عنهم العلم والدين، ثم انحرفوا والعياذ بالله هذا الانحراف الشنيع، «فلم تنفعهم لا إله إلا الله»، يعني: انظر إلى حال هؤلاء، وأعدادهم ليست بالقليلة، يسر الله لهم لُقيا الصحابة، وشاهدوا ذلك الجيل العظيم المبارك -خير القرون-، ورأوا ما هم عليه من الحال العظيمة من العبادة، والجد، والاجتهاد، والنصح لدين الله، والعبادة، وأخذوا عنهم الدين، حفظوا القرآن من طريقهم، وحفظوا السنن من طريقهم، وتعلموا العبادة من طريقهم، ثم انحرفوا بعد ذلك هذا الانحراف، حتى قال النبي ﷺ: ((فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))، وقال: ((لَئِنْ أَدْرَكْتُمُهمْ لَأَقْتُلَنَّهمْ قَتْلَ عَادٍ))، وهم يحفظون القرآن، ويقرؤونه، ويصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال: «وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرت العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، لما ظهر منهم مخالفة الشريعة»، أي: لما ظهر منهم ذلك، أمر النبي ﷺ، أو عندما يَظْهَرُ منهم ذلك أمر النبي ﷺ - أن يُقتلوا قتل عاد، أي: أن يُقتلوا أينما وجدوا شَرَّ قِتْلَةٍ، فماذا يقول

هؤلاء في مثل هذا الحديث؟، وشبهتهم نذكرها وهي قولهم: الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويصلي، ويصوم، لا يَحِلُّ أَنْ يُقْتَلَ!

قال: «وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة»، فماذا يقول أيضًا هؤلاء في هذه النصوص؟ والذين قُتلوا هنا وقوتلوا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويُصلُّون، ويدَّعون الإسلام.

قال: «وكذلك أراد -ﷺ- أن يغزو بني المصطلق، وأمر بالغزو لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة»، فإذا كان عليه صلاة والسلام أراد أن يغزو هؤلاء لكونهم منعوا الزكاة، فكيف بمن جحد التوحيد؟ وامتنع من قبول التوحيد، وأتى بما يَنْقُضُ التوحيد، الذي لا تنفع الزكاة ولا الصلاة ولا أي طاعة إلا مع وجوده، فإذا انتفى التوحيد لم يُتَنَفَّعْ بمثل هذه الأعمال؛ لأنَّه لها كالأساس للبيان، وكالأصول للأشجار، «حتى أنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]». وكان الرجل كاذبًا عليهم، كاذبًا عليهم، أي: في زعمه أنَّهم منعوا الزكاة، فهَمَّ النبي ﷺ أن يغزوهم، لكن أنزل الله عليه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] أي: تثبتوا.

قال: «فكل هذا يدل على أن مراد النبي -ﷺ- في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه»

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي - ﷺ -؛ أَنَّ النَّاسَ يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثُمَّ بنوح، ثُمَّ بإبراهيم، ثُمَّ بموسى، ثُمَّ بـعيسى، فكلُّهم يعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله - ﷺ -، قالوا: هذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً.

فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإنَّ الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها؛ كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغْنُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب، وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق.

ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قُبُورِ الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثَبَتَ ذلك: فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف.

وهذا جائز في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي عند رجل صالح، حيٍّ يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: ادعُ الله لي، كما كان أصحاب رسول الله - ﷺ - يسألونه في حياته، وأما بعد مماته، فحاشا وكلاً أَنَّهُمْ سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه؟».

[الشرح]

ثم ذكر - رحمه الله - هذه الشبهة لهؤلاء، قال: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي - ﷺ - أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعبسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله - ﷺ -». قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً، هذا يدل أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً.

وحديث الشفاعة المشار إليه هنا، هذا ثابت في «الصحيحين» وغيرهما عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، والشفاعة حق، ومضى قول الشيخ - رحمه الله -: عن الشفاعة «لا تُكْرَهُها»، وهو هنا - رحمه الله - يذكُر استدلالهم على هذا الأمر بحديث النبي - ﷺ -، وحملهم له على الباطل، ونقول: حاشا أن يكون في حديث رسول الله - ﷺ -، أو في شيء من كلامه - صلوات الله وسلامه عليه - ما يدل على جواز الشرك، والاستغاثة بغير الله، والتعلق بالمخلوقين رجاءً، ورغباً، وطمعاً، حاشا أن يكون في كلامه شيء من ذلك، بل؛ حياته كلها ﷺ أمضاها في نقض ذلك، وإبطاله، فحاشا أن يكون في شيء من كلامه ﷺ شيء من ذلك، ومن استدَلَّ بشيء من حديثه - صلوات الله وسلامه عليه - على تقرير مثل هذا الأمر، وكما قيل في المثل: «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟!»^(١)، فجمع بين تقرير باطل، واستدلالٍ على هذا

(١) «الكَيْلَةُ: فِعْلَةٌ مِنَ الْكَيْلِ وَهِيَ تَدَلُّ عَلَى الْهَيْئَةِ وَالْحَالَةِ نَحْوِ الرُّكْبَةِ وَالْجُلْسَةِ؟ وَالْحَشْفُ: أَرْدَأُ التَّمْرِ أَيْ أَتَجَمَّعُ حَشْفًا وَسُوءَ كَيْلٍ يَضْرِبُ لِمَنْ يَجْمَعُ بَيْنَ خَصْلَتَيْنِ مَكْرُوهَتَيْنِ» «مجمع الأمثال» (١/٢٠٧).

الباطل بكلام الرسول ﷺ وحاشاة.

قال: «فقالوا: هذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شرًّا»، ونقول: بل هي عين الشرك، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] أي: أي أحد كائنًا من كان، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] فالاستغاثة عبادة، وصرف هذه العبادة لغير الله -تبارك وتعالى- شرك بالله، وهذا المعنى الذي ذكرناه؛ وهو طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يشفعوا لهم عند الله هذا ليس عبادة، كما أنَّ طلب الناس في حياتهم من الأنبياء ومن الصالحين الأحياء أن يدعوا لهم الله -جلَّ وعلا- في حاجاتهم الدينية والدنيوية ليس عبادة، لكن؛ القوم أرادوا أن يُسَووا بين مفرقين.

«فهذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شرًّا»: ولا حظ الخلط الواضح عند هؤلاء في تقريرهم للباطل من جهة، واستشهادهم عليه واستدلالهم عليه بحديث رسول الله ﷺ - من جهة أخرى.

وهنا؛ يُتَنَبَّه للفرق بين أمرين؛ بين الاستغاثة الشركية وهي: الاستغاثة بالغائب، أو الميت، أو الحي الحاضر الذي لا يقدر.

استغاثة بالغائب، مثل: أن يكون رجل في سفينة، ويعاين الموت، ويعاين الغرق، ثم يهتف بشيخ أو نحوه، يهتف باسمه: «أنقذني يا فلان!»، «ألحقني يا فلان!»، وهو حي حاضر، وهذا في البحر، وهذا بعيد عنه في البر، «أنقذني» أو «أغنني»، فهذا شرك

لأنها استغاثة شركيّة؛ لأنه التجاء، واعتصام، وعودٌ بغير الله.

ومثله كذلك الاستغاثة بالميت، مثل: أن يكون الإنسان أصابه ضرٌّ، أو نزلت به نازلة، فيهتف بأحد الأموات، «أدركني يا فلان!»، «إلحقني يا فلان!»، «أنا عائذ بك يا فلان!»، أو «ملتجئ إليك يا فلان!»، فهذه أيضاً استغاثة شركيّة.

أو كذلك أن يستغيث بحيٍّ حاضرٍ أمامه في أمر لا يقدر عليه إلا الله - سبحانه وتعالى -، مثل: أن يطلب منه شفاءً مرضٍ نزلَ به، لا من طريق الأسباب المعروفة (كأن يذكُر له دواء معيناً)، وإنما يطلب منه أن يشفي مرضه، فيقول: «أنا مريض فاشفني!»، فيطلب منه أن يشفي مرضه، لا أن يطلب منه دواء لذلك المرض وأسباب وعلاجات، وإنما يقول: «أرجوك أن تشفيني» أو «أنا لائذ بك أن تشفيني»، وهو أمامه حي، فهذا شرك، أو كذلك أن يطلب منه أن يُدْخِلَهُ الجنة، أو يُنْجِيَهُ من النار، أو أن يهدي قلبه، أو أن يُثَبِّتَهُ على الدين، يقول: «أرجوك أن تثبتني على الدين»، وهو أمامه حي حاضر، فهذا شرك بالله - ﷻ -، ناقل عن الملة.

فإذا الاستغاثة الشركية هي: الاستغاثة بالغائب، وبالميت، وبالحَيِّ الحاضر فيما لا يقدر عليه، وبالحَيِّ الحاضر فيما لا يقدر عليه، هذه استغاثة شركية.

أمّا طلب المخلوق من المخلوق في شيء يقدر عليه، مثل: أن يعاونه على عدوِّ هاجمه أو أراد إيذاؤه ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ [القصص: ١٥]، هنا؛ هذا الصنيع ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ﴾ [القصص: ١٥]، لم يفعل شركاً لأن الاستغاثة هنا ليست استغاثةً بغائب، ولا بميت، ولا أيضاً بحي فيما لا يقدر عليه، بل؛ هي استغاثة وطلب من حي حاضر، يسمع كلامه، ويرى حاله في

أمر يقدر عليه المخلوق.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فالجواب أن نقول: سبحانه مَنْ طبع على قلوب أعدائه»، كلمة «سبحان» تأتي للتنزيه، تنزيه الله -جل وعلا-، والمقام هنا مقام تنزيه، يُنَزَّهُ اللهُ -سبحانه وتعالى- عما يشركون، وَيُنَزَّهُ عَنْ تَسْوِيَتِهِمْ لِلْمَخْلُوقِينَ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّهِ مِنَ الدُّعَاءِ، وَالرَّجَاءِ، وَالذَّلِّ، وَالطَّمَعِ، وَالرَّغْبِ، وَالرَّهْبِ.

قال: «فإنَّ الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]»، فيقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «لا ننكرها»، وهذا الذي لا يُنْكِرُ، ما ضابطه؟ استغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه. ثلاثة أمور: استغاثة بالحي، الحاضر، فيما يقدر عليه. إن كان ميتاً، أو كان غائباً، أو كان حاضراً لا يقدر، هذا كله باب آخر غير هذا الباب، وهنا: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، كان موسى -عليه السلام- أمامه واقفاً، والله -سبحانه وتعالى- أيضاً أعطى موسى ﷺ قوةً في بدنه، فهو حي وحاضر وفي أمر يقدر عليه، واستغاثه، قال: «ساعدي»، «أغثني»، «أعني»، هذا جائز، وليس من الشرك، وليس باباً من أبواب الشرك.

قال: «وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب»، هذا لا بأس به عند ملاقة الأعداء. فيقول القائل لأخيه أو صاحبه: «إلحقني»، «أعني»، «ساعدي»، كل هذا لا بأس به، كما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، مثل: شخص جاء للبحر، أو في مكان يسبح، وبدأ يغرق، وحوله ناس، وقال: «إلحقوني»، «أغثوني»، «أدركوني».. هل هذا نوع من الشرك؟ الجواب:

لا؛ هذا ليس شركاً؛ لأنه ينادي حاضرين أحياء في أمر يقدر عليه المخلوق، فهذا من الأمور المباحة الجائزة.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، ضع خطأ عند هذه الكلمة قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، أي: هذا الذي أنكرناه، -وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة جداً- استغاثة العباد: أن يقف المخلوق أمام قبر مخلوق منكسراً متذللاً خاضعاً راجياً طامعاً راجباً خاشعاً داعياً طالباً، هذه عبادةٌ وذُلٌّ لغير الله، وتعلُّقٌ بغير الله.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله»، فهذا الذي نُكِّرُ: يذهبون إلى القبر، ويستنجدون به، ومنهم من يطلب ولدًا، ومنهم من يطلب عافيةً، ومنهم من يطلب شفاءً من مرض، ومنهم من يطلب هدايةً، إلى غير ذلك من الطلبات والرغبات التي ينزلونها بمخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا شيئاً من ذلك. فسبحان من طبع الله على قلبه، وقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ نُظِيرُ ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَيْنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، هذا لا يقوله إلا من طبع على قلبه، ويسوي بين مباح وبين شرك صراح.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم»، في غيبتهم يعني: أن يكون الولي حي غائب، فيهتف به في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله -سبحانه وتعالى- من هداية، ومن إنجابٍ للولد، ومن عافية، وصحة، ورزق، وثباتٍ، وغير ذلك. هذا كله طلبه من غير الله -تبارك وتعالى- شرك بالله.

قال: «إذا ثبت ذلك فلاستغاثه بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة»، جائز في الدنيا؛ الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يأتون النبي ﷺ ويطلبون منه الدعاء، الدعاء بالغيث، «فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا»^(١)، الدعاء بالهداية «فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»^(٢)، الدعاء بالمغفرة والرحمة، وغير ذلك مما ثبت مما كان الصحابة يطلبون من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يفعله، أن يدعو الله لهم، وكان يدعو ﷺ. وهو ﷺ أعظم الناس جاها عند الله، وأعلاهم مكانة عنده، فهذا جائز، جائز في الدنيا، وجائز في الآخرة، ولهذا ﷺ لما جاءوه بعد أن اعتذر الأنبياء، قال: «أنا لها»، قال: «أنا لها»، فهذا جائز وهو ﷺ الشافع المشفع يشفع للناس يوم القيامة، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، وهذا صحت به الأحاديث، ودلت عليه الدلائل، وهو أمر جائز.

قال: «وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: «ادع الله لي»، هذا جائز باتفاق أهل العلم، ولا خلاف فيه كما كان أصحاب رسول الله - ﷺ - يسألونه في حياته» أي: يسألونه أن يدعو الله لهم بالغيث، بالهداية، بالمغفرة، بالرحمة.

«وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره» ولا يُعرف عن أحد من الصحابة أنه سأل النبي - ﷺ - شيئا من ذلك مما كانوا يسألونه إياه في حياتهم عند

(١) رواه البخاري (٩٣٢)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩١).

قبره، مثلاً: أن يأتي أحد ويقول: «ادع الله أن يغفر لي»، «ادع الله أن يهديني»، «ادع الله أن يغشنا»، ولما قحط الناس في زمن عمر رضي الله عنه، قال كلمته المشهورة: دعا العباس عم النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»^(١)، فلماذا عدل -رضي الله عنه- عن التوسل بدعاء النبي ﷺ -إلى التوسل بدعاء عم النبي العباس -رضي الله عنه-، لم يعدل إلا لكون الأمر غير جائز، وهم الحريصون على كل فضيلة، والسباقون إلى كل خير، وهكذا مضى صنيع السلف الصالح -رحمهم الله ورضي عنهم-.

قال: «بل؛ أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف دعاءه بنفسه؟ دعاءه نفسه ﷺ». أنكر السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان على من قصد دعاء الله عند قبره، يعني؛ من تحرى الدعاء عند القبر، وقال: إن الدعاء عند القبر مستجاب، وأنه أفضل، أو نحو ذلك، بل أنكروا مثل ذلك، فكيف بمن دعاه نفسه ﷺ؟ ومن ذلكم إنكار علي بن الحسين -وهو أعلم أهل البيت في زمانه- على من أتى قبر النبي ﷺ -يدعو الله، فنهاه وقال: «أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثِ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا يَبُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ وَتَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ»^(٢) فأنكر عليه هذا، فكيف بمن يأتي إلى قبره ﷺ؟ أو لقبر غيره عائداً ولائذاً ومستجيراً ومستغيثاً، قائلاً: «مالي من ألوذ به سواك، وليس لي إلا الالتجاء بحماك، وأنا عائذ ببابك، ولائذ بجنابك، أنا

(١) (١) رواه البخاري (١٠١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٢٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٢٦)، وانظر «تحذير الساجد» (ص ٨٥) للألباني.

عبدك الفقير الكسير بين يديك، الذليل عندك»، أو نحو ذلك من العبارات التي يقولها المشركون المستغيثون بغير الله - سبحانه وتعالى - . فهل يقال إنَّ صنيع هؤلاء وعملهم هو من جنس دعاء الصحابة، أو طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يدعو لهم، أو يقال إنَّه من جنس طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يدعو الله لهم، حاشا وكلا، فرق بين الهدى والباطل، والحق والضلال.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم -عليه السلام- لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم -عليه السلام-: أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم -عليه السلام- في مكانٍ بعيدٍ عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعلوهذا كرجلٍ غنيٍّ له مَالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ، ويصبر حتى أن يأتيه الله برزق لا مَنَّةَ فيه لأحد؛ فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون».

[الشرح]

ثم ذكر الشيخ -رحمه الله- هذه الشبهة وبها ختم ما أورده من شبهات يثيرها من يتعلق بغير الله -تبارك وتعالى- ويصرف العبادة لغيره -جل وعز-.

قال -رحمه الله تعالى-: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم -عليه السلام- لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم -عليه السلام-: أما إليك فلا قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على

إبراهيم».

هذا استدلالٌ من هؤلاء أو تشبيه من هؤلاء بتقرير الشرك ودعاء غير الله والالتجاء بغيره - سبحانه وتعالى - بقصةٍ تتعلق بإمام الحنفاء إبراهيم الخليل - عليه السلام - الذي جعله الله - تبارك وتعالى - للناس إمامًا، وذكر الله - جلَّ وعزَّ - في القرآن من قصصه في نصرته التوحيد وإبطال الشرك شيئًا كثيرًا، وكل ذلكم لم يُقبل عليه القوم ولم يلتفتوا إليه ولم يحفلوا به، وأخذوا يتبعون المتشابه، وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البين، وإلا ففي قصص إبراهيم عليه السلام مما ذكره الله - عزَّ وجلَّ - في القرآن، وجاء في سنة النبي ﷺ من النصره للتوحيد وإبطال الشرك والرد على من يتعلق بغير الله - تبارك وتعالى - ما فيه كفاية وغنية، وما فيه أيضًا الوضوح والشفاء في هذا الباب العظيم، وكل ذلكم عند القوم يُترك ولا يُلتفت إليه ثم يتبعون مثل هذه الأمور التي يلبسون من خلالها على الناس!

قال: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم - عليه السلام - لما أُلقي في النار^(١)، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟»

استدلالٌ بهذه القصة من هذا الموضع جبريل لإبراهيم الخليل في

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/٤٦٧)، وقال العلامة الألباني رحمه الله: «لا أصل له؛ أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه السلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيرًا لضعفه فقال: روي عن كعب الأحبار: «أن إبراهيم عليه السلام... لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟»

قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي»
«السلسلة الضعيفة» (١/٧٤).

الهواء، وقوله له: «ألك حاجة؟» قالوا -مستدلين على ذلك بجواز الاستغاثة بغير الله- قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل عليه السلام شركاً لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام، فرجعوا هنا بهذا التقرير الباطل إلي عبادة الملائكة، واللجوء إليهم واتخاذهم آلهة مع الله، هذا مُفاد هذا التقرير أَنَّ الملائكة يجوز الالتجاء إليهم والاستغاثة بهم والاستنجاد بهم وهذا اتخاذُ لهم آلهة مع الله -تبارك وتعالى-، قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام؛ ثم شرع رحمته الله في الجواب على هذه الشبهة؛ قال: «فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى»، ونحن عرفنا في الجواب على الشبهة الأولى أَنَّ الاستغاثة أو الطلب هناك طلبٌ من حيٍّ حاضر قادر، حي أمامهم يخاطبونه، وحاضر عندهم، وأيضاً قادرٌ على هذا الأمر الذي طلبوه منه.

قال: «فهي من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه».

فاجتمعت الأمور الثلاثة كونه حيّاً وحاضراً وأيضاً قادراً بما أعطاه الله -سبحانه وتعالى- من القوة والشدة، ولهذا قال المصنف -رحمه الله-: «فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]».

جبريل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله -عز وجل-: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، أعطاه الله -سبحانه وتعالى- قوةً وشدةً؛ ولهذا يقول الشيخ مستدلاً بالآية: «فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل»؛ لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- أعطاه

القدرة على فعل مثل هذا الأمر، ولو أمره أن يضع إبراهيم - عليه السلام - في مكان بعيد، وهو أيسر من الأول بعيداً عنهم؛ لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء؛ لفعل، فجبريل عليه السلام شديد القوى، وعرض على إبراهيم الخليل أشياء هي في مقدوره؛ ولهذا نظر المصنف - رحمه الله تعالى - هذا بمثال قال: «وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً» - يعني: يرى رجلاً فقيراً محتاجاً إلى المال - «فيعرض عليه أن يقرضه»؛ فيقول له: تريد مالاً، تريد أن أعطيك مالاً، تريد أن أساعدك بالمال، «يعرض عليه أن يقرضه أو أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته؛ فيأبي ذلك الرجل أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله بالرزق، برزق لا منة فيه لأحد»؛ فهل مثل هذا يُقال أنه فيه دليل على الاستغاثة؟! رجل غني يعرض على رجل فقير مالاً؛ فيعتذر عن قبوله، يريد أن يأتيه رزق من الله - سبحانه وتعالى - لا منة لأحد فيه.

يقول الشيخ رحمه الله: «فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون؟!».

فأين هذا من استغاثة العباد والشرك التي يفعلها أهل الشرك عندما يستنجدون بغير الله من المقبورين وغيرهم، يسألونهم كشف الكربات وإزالة الهموم وتيسير الأمور، ويسألونهم الولد والرزق وغير ذلك مما لا يُسأل إلا من الله - تبارك وتعالى -؟!!

هذا جواب الشيخ - رحمه الله - على فرض ثبوت هذه القصة؛ وإلا فهي غير ثابتة^(١)، وأعيد ما بدأت به أن القوم تركوا من قصة إبراهيم أو قصص إبراهيم - عليه

(١) سئل العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «قصة جبريل مع إبراهيم ثابتة؟»

الجواب: ما أعرف فيها أحاديث، إنما ذكرها المؤرخون أنه قابله في الهواء، وقال: أما إليك

السلام- في الكتاب والسنة ما فيه تقرير التوحيد وتثبيته وتدعيمه ونصرته، كل ذلكم تركوه ولم يحفلوا به وأخذوا يتتبعون الأخبار الواهيات وما لا يثبت ويتعلقون به؛ لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل.



[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «ولنختم الكلام - إن شاء الله تعالى - بمسألة عظيمة مهمة جداً تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، وكثرة الغلط فيها؛ فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً.

فإن عَرَفَ التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما. وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون: هذا حق ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ كما قال تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، ولا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تُبَيِّنُ لك إذا تأملتها في السنة الناس؛ ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه، أو مدارة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه».

[الشرح]

ثم ختم - رحمه الله تعالى - بهذه الخاتمة الجامعة لثبوت ما مضى وتقريره؛ قال:
«ولنختم الكلام - إن شاء الله - بمسألة عظيمة مهمة جداً تفهم مما تقدم، ولكن
نفرد لها الكلام لعظم شأنها، وكثرة الغلط فيها»

سيتحدث الشيخ - رحمه الله - عن أصل مفيد وأساس نافع يتعلق بالتوحيد
الذي هو أساس السعادة وسبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فسيتحدث عن
أصل نافع في التوحيد عظيم الشأن، وفي الوقت نفسه يكثر فيه الغلط عند الناس؛
قال: «سنقول لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل»
فالتوحيد أصل يدل على الإفراد، توحيد الله - عز وجل - هو إفراده بحقوقه سبحانه
على عباده وخصائصه - جل وعلا - التي لا تليق إلا به، ولا تكون إلا له - سبحانه
وتعالى - لا شريك له في شيء من ذلك؛ فالتوحيد هو إفراد الله بحقوقه سبحانه
وخصائصه، ونبذ الشرك والضلال والبراءة منه.

قال: «لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل».

فالقلب يوحد واللسان يوحد والجوارح توحد، توحد بالأعمال، التوحيد لا بد
منه بهذه الثلاث.

قال: «فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً»

كما سيأتي توضيح ذلك عند المصنف - رحمه الله تعالى - فهذه فائدة عظيمة
في التوحيد أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب اعتقاداً وإقراراً واعترافاً بوحداية الله

- عزَّ وجل - وإيماناً بذلك دون شكٍ أو ريب، واللسان: نطقاً بالتوحيد تلفظاً به، وإعلاناً للشهادة به، وبالعمل: بأن يجعل أعماله كلها لله خالصة، ولا يجعل لأحدٍ فيها شيئاً.

ثم بيّن الشيخ - رحمه الله - أمثلة لحصول اختلال في هذه الموازين أو الأصول التي يقوم عليها التوحيد، ضرب شيئاً من الأمثلة على ذلك.

قال: «**فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر**» معرفة التوحيد توحيد؛ لكن ترك العمل به كفرٌ ناقض لهذه المعرفة مبطلٌ لها، «**فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفر عون وإبليس وأمثالهما**».

وهذا يسميه أهل العلم كفر الإيذاء والاستكبار، يكفر عن معرفة، عرف ولم يقبل؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

وفي إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]

فهذا كفرٌ عن معرفة، وهو يسمى كفر جحود وإيذاء أو استكبار؛ قال: «**فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفر عون وإبليس وأمثالهما**».

وهذا يغلط فيه كثير من الناس - ثم يُبين وجه الغلط في هذا الباب - قال: «يقولون: هذا حقٌّ ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكن - ثم يذكر لهم أعداراً يوردونها يمتنعون بسببها من الإقبال على التوحيد والعمل به، ونحن نعرف أن التوحيد حق بعبارة ذكرها عنهم - رحمه الله - في بعض مصنفاته ورسائله قال:

يقولون هذا: «التوحيد زين»^(١)؛ لكن عندما يأتون إلى جانب العمل يمتنعون من العمل لأعذار يُوردونها لأجلها لا يعملون بالتوحيد الذي قالوا عنه أنه زين وأنَّ ضده -وهو الشرك بالله- عز وجل -شين، قال -في حكاية قولهم- «ولكن لا نقدر أن نفعله» لماذا لا تقدرون على فعله، ما الذي يمنع؟ قال: «لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم» لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم هذا من الأعذار التي يوردها بعضهم مع معرفته بالتوحيد، وأحياناً يحصل أنَّ بعض الناس يأتي إلي مدارس التوحيد التي تقررهِ ويمكث فيها بعض السنوات ويفهم التوحيد ويقف على دلائله وحججه وبراهينه، وإذا رجع إلي بلده رجع إليهم كما كان! موافقاً لهم على كل ما هم عليه من ضلال وخرافة! ويسايرهم في أعمالهم ويحاكيهم في شريكاتهم، وقد حفظ من الدلائل والحجج ودرسها وفهمها وعرفها وتبين له صحتها؛ لكن مجاراة الأهل والعشيرة والمجتمع الذي عاش فيه؛ صار حاجزاً عنده يمنعه من العمل بالتوحيد.

يقول: «لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم»؛ بمعنى أنه إذا لم يكن على ما هم عليهم من الشرك والضلال يعادونه وينابذونه ويسفّهونه إلى غير ذلك فهو لا يريد ذلك؛ فيمضي إليهم موافقاً لهم.

قال: «وغير ذلك من الأعذار»، أعذار هؤلاء في هذا الباب كثيرة؛ مثل أيضاً: اتباع الآباء والأجداد؛ هذه طريقتنا منذ نشأنا عليها في البلاد، هذه عقيدة الآباء والأجداد؛ قال: «ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء

من الأعدارِ» يعني: عرف الحق لكن تركه إما مثلاً مجاراةً لعشيرة وقراية، وإما حفظاً لجاهٍ ورياسة وزعامة، وإما أيضاً استبقاءً لمالٍ وثراء ونحو ذلك؛ فغالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعدار؛ يعني يبدون أعداراً لأجلها لا يقبلون على هذا الذي عرفوه؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، يعني استعاضوا عنها بثمن قليل، يعني من أجل شيء من المال، وتحصيل شيء من المال؛ آثروا ذلك على آيات الله - عز وجل - وحججه - سبحانه وتعالى - وبيناته؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إذاً قوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه الآية تفيد أنهم عرفوا الحق وآيات الله - سبحانه وتعالى - وحججه؛ لكنهم آثروا عليها دنيا زائلة ومال فان.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فيه أن: علماء اليهود كانوا على معرفة بأن النبي ﷺ حق وأنه مرسل من ربه، وأن ما يدعوا إليه حق، لكنهم تركوا ما دعاهم إليه حفظاً للرياسة وإبقاءً للزعامة والمكانة والجاه، هذا مثال للإخلال بأمور التوحيد التي هي القول، والاعتقاد والعمل بالقلب واللسان، والعمل.

مثال آخر: قال: «إن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، أو لا يعتقد بقلبه» - يعني وجد من العمل الظاهر لكن لا يفهم التوحيد، ولا يعرفه، أو لا يعتقد

التوحيد بقلبه-؛ فهو منافق، وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لأن المنافق يظهر إيماناً ويبطن خلاف ذلك؛ قال: وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فجعل -جَلَّ وعلا- رتبته في النار أسفل رتبة، وأحط رتبة، هذه فيه دلالة لما ذكره المصنف أنهم شر من الكافر الخالص.

قال: «وهذه المسألة مسألة كبيرة»

قوله: هذه المسألة؛ أي: مسألة أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل؛ يقول: «هذه مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملتها في السنة الناس»، يعني إذا اختبرت التوحيد وحقيقته في السنة الناس؛ تبين لك هذه المسألة وعظم شأنها، وأيضاً تبين لك الإخلال الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس في التوحيد بأعذارٍ يدونها يعتذرون بها عن قبول التوحيد والإقبال عليه.

قال: «إذا تأملتها في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به»؛ لماذا يعرف الحق ويترك العمل به؟!

«الخوف نقص دنيا»؛ يعني مثل أن يكون له مكانة ومنزلة فيخاف أن تنقص هذه المكانة وهذه المنزلة عند الناس إذا قبل التوحيد وأعلن ذلك.

«أو جاه»؛ الجاه: هو المكانة والمنزلة، ونقص الدنيا؛ أي: المال والثراء.

«أو مداراة» ومقصود الشيخ -رحمه الله- بالمدارة؛ أي: المداينة، مداينة أهل الباطل.

قال: «أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته عن ما يعتقد بقلبه

فإذا هو لا يعرفه» فباطنه لا يُطلع عليه لكن إذا سألته عما يعتقد تجد أنه لا يعرف التوحيد، لو قيل له: ما التوحيد؟ ما الذي ينبغي أن يعتقد الإنسان في التوحيد؟ بعضهم ربما يقول لك: التوحيد أن تعتقد أنه لا خالق غير الله، أو لا غني عما سواه إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذه حقيقة التوحيد عنده! وهذا حده! فتجد بعضهم إذا تأملت في حاله وجدته لا يعرف التوحيد.

قال: «تري من يعمل به ظاهراً لا باطناً» من أين عُرِفَ أنه باطناً لا يعمل بالتوحيد؟ عندما يُسأل ما الذي يجب أن يعتقد الإنسان في التوحيد، ويستقر في باطن المسلم؟ يقول مثل هذه الإجابات التي تدل وتنم عن عدم فهم منه بالتوحيد^(١).



(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «فالناس مع التوحيد ثلاثة أقسام: القسم الأول: من يعرفه ويؤمن به باطناً ويججده ظاهراً وينكره.

القسم الثاني: من يتكلم به ويعمل به ظاهراً وينكره ويكفر به باطناً. وهم المنافقون.

القسم الثالث: من يعتقد باطناً ويعمل به ظاهراً وباطناً. والقسمان الأولان كافران خاسران والقسم الثالث مؤمن مفلح» «شرح كشف الشبهات» (ص ١١٩).

[المتن]

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال، أو جاه، أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفاً، أو مداراةً، أو مشحّةً بوطنه، أو أهله أو عشيرته، أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، والآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحد عليها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين، والله

- سبحانه وتعالى - أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين».

[الشرح]

ثم قال - رحمه الله تعالى - : «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله - عز وجل -» يعني: بعد أن ذكر - رحمه الله - أن هذه المسألة وهي مسألة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، وأنها مسألة كبيرة، وأنك إذا تأملت في حال الناس للنظر في تحقيقهم لهذه المسألة؛ أي: تحقيقهم للتوحيد بالقلب واللسان والعمل؛ تجد أن منهم من وجد منه بعض دون بعض فلا تكون مجتمعة، والتوحيد لا يكون من الشخص إلا إذا اجتمعت هذه الأمور؛ يعني: كونهم نطقوا بالتوحيد واعتقدوه، نطقوا به بألسنتهم واعتقدوه في باطنهم وعملوا به في جوارحهم، إذا وجدت هذه الثلاثة صح توحيد الإنسان، وإذا اختل شيء منها لم يستقم توحيده.

يقول: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله»؛ أي: يتضح لك بفهمها الأمر وتستبين لك هذه المسألة العظيمة.

قال: «أولاهما - أي: أولى الآيتين - ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]».

تأمل في الكفر الذي حصل هنا ما نوعه؟ وبما يتعلق من الأمور الثلاثة التي أشار إليها الشيخ - رحمه الله -؛ قال: التوحيد في القلب واللسان والعمل، قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها»، الآن هؤلاء كانوا مع النبي ﷺ -؛ وكما قال رحمه الله -: من الصحابة في

غزوا، والله - جل وعلا - ذكر أن كفرهم بعد إيمان؛ قال: ﴿لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]. كفرهم بعد إيمان؛ فهم كانوا على الإيمان وعلى التوحيد ولكن بهذه الكلمة كفروا، كفروا بكلمة قالوها، هذه توضح لك أن التوحيد كما أنه بالاعتقاد، فهو أيضًا بالقول والعمل.

قال: «إذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول صلى الله عليه وآله كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزمح واللعب، تبين - أي: لك من هذا - أن الذي يتكلم بالكفر - أي: يقول بلسانه كلمة الكفر - أو يعمل به - كأن يستغيث بغير الله أو نحو ذلك من الشرك - خوفًا من نقص مال، أو جاه - أي: خوفًا من نقص جاه - أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها، أعظم - أي: كفرًا - ممن تكلم بكلمة يمزح بها»

إذا كان الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أجبين عند اللقاء، وأكذب ألسنًا وأرغب بطونًا، إلي آخر ما قالوه؛ ثم اعتذروا عن هذه المقالة أنهم إنما أرادوا قطع عناء الطريق، وأنهم إنما أرادوا المزمح واللعب، ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ يعني: لسنا جادين عندما قلنا هذه الكلمة، وهم يعتذرون، لماذا؟ لأنهم أدركوا أن هذه الكلمة أخرجتهم من دائرة الإسلام، ونزل فيهم هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾؛ فجاءوا معتردين إلي النبي ﷺ فكان لا يلتفت إليهم ولا يزيد على قراءة هذه الآية: ﴿لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

فهذه الآية تبين كما قال الشيخ أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم؛ أي: كفرًا ممن تكلم بكلمة كهذه على وجه

المزاح واللعب؛ فهذه الآية تبين لك هذا المقام العظيم.

والآية الثانية قال: قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

تنبه لهذين الأمرين الواردين بعد الاستثناء، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ﴾ هذا أمر، الثاني: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ هؤلاء استثناهم الله.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾؛ يعني: من قال كفراً أو فعل كفراً فإنه لا يُعذر إلا إذا كانت هذه حاله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

إذاً من قال كفراً أو فعل كفراً خوفاً من ذهاب رئاسة؛ أو من قال كفراً أو فعل كفراً خوفاً من ذهاب جاه، أو ذهاب مال أو مذمة الناس فأخذ يداهن، ويجاري أو أن يكون في مجلس معهم ويقررون هذه الشراكيات ويلتفتون إليه فيقول: صحيح، وفي قرارة نفسه يدرك أنه باطلٌ وشركٌ بالله؛ فيقول: صحيح مدارةً أو مDAHنة لهم، مجارة لهم؛ فلنتنبه للأمرين المذكورين بعد الاستثناء؛ قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال الشيخ في تقرير الاستدلال في هذه الآية الكريمة: «فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان».

فإذا العذر في هذه الآية، يعني من حصل منه الكفر لا يعذر إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون مُكرهاً، والشرط الثاني: أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان؛ أي: ساكناً لم يتغير باقٍ على الإيمان ثابتاً عليه؛ فالله -جل وعلا- لم يستثن من هؤلاء؛ أي: الذين قالوا الكفر أو فعلوا الكفر لم يستثن منهم إلا من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

والإكراه كون الشخص وصل إلي حد يخشى على نفسه القتل أو على ولده؛ فمثل هذه الحال يجوز للإنسان أن ينطق الكفر أو يفعل الكفر، إذا خاف على نفسه ووصل إلي درجة يخشى على نفسه أن يُقتل أو على بعض ولده أن يُقتل، فقال كلمة الكفر أو فعل الكفر؛ لكن قلبه في باطنه ثابت على الإيمان، ولهذا الإكراه القول والعمل، أما الاعتقاد الذي يكون في الباطن هذا لا يكون فيه إكراه، الإكراه إنما يكون على القول والعمل، أما الباطن باطن الإنسان وما يكون في قلبه هذا لا يكون فيه إكراه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ يعني: من أكره على الكفر وخشي على نفسه أو على ولده القتل إن لم يقل الكفر أو لم يفعله؛ فيجوز له أن يقول الكفر وأن يفعل الكفر ولا يخرج بذلك من الإيمان، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قال الشيخ - رحمه الله -: «وأما غير هذا - أي: غير المكره المطمئن قلبه بالإيمان - فقد كفر بعد إيمانه، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواءً فعله خوفًا - يعني: خوفًا من ملامة الناس، أو مذمة الناس، أو احتقار الناس -، أو مداراة - يعني: مجاملة للناس ومداهنة لهم - أو مشحةً بوطن أو أهل أو عشيرة أو مال؛ - يعني أثر هذه الأشياء على توحيده لله - سبحانه وتعالى - وإخلاصه الدين له - أو مشحةً بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزاح - يعني: يقول الكفر أو يفعل الكفر ويقول: إنما فعلته مزحًا ولعبًا - أو لغير ذلك من الأغراض».

قال الشيخ: «إِلَّا الْمُكْرَهَ»؛ كما دلت على ذلك الآية، وكما هو واضح في الاستثناء الذي في الآية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ﴾؛ لك أن تقول: من كفر بالله بعد

إيمانه قولاً أو فعلاً مازحاً أو خائفاً أو مُداهناً أو حفظاً لجأه أو مكانةً أو مشحة بوطنٍ أو أهلٍ أو غير ذلك من الأعذار؛ كل هؤلاء يكفرون إلا من أكره، كما قال الشيخ: «إلا المكره»، ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال: «والآية تدل على هذا من جهتين»

قوله: «على هذا»: إشارة إلى أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل.

«فالأية»: أي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ تدل على

هذا-أي: على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل - من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان

لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.

سؤال ونجيب عليه من الآية: هل يكفي لئّن يكون الشخص موحدًا أن يعتقد

التوحيد في باطنه وفي سره وفي قلبه دون القول والعمل؟

ليس كافٍ؛ الدليل الآية؛ قال: «لم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا

يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها».

وتقرير الاستدلال أنه لو كان يكفي في التوحيد مجرد الشيء الذي يكون في

القلب، المعرفة القلبية، أو الإقرار الذي يكون في القلب أو الاعتراف الذي يكون

في القلب، لو كان هذا يكفي؛ فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾؟! لأن الذي في

القلب لا أحد يكره عليه؛ فالإكراه إنما يكون على القول والعمل.

فإذاً هذا وجه في دلالة الآية على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان

والعمل؛ فلا يكفي في التوحيد مجرد ما يكون في القلب فقط.

الجهة الثانية - في دلالة الآية على ذلك - : قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ ، فصرح - جل وعز - أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر ، - ليس هذا سببه ، ليس سبب الكفر والعذاب المترتب على الكفر لم يكن سببه الاعتقاد ، من أين عرفنا أنه لم يكن سببه الاعتقاد ؟ لأن العقوبة عُلِّقت على شيء لا علاقة للقلب فيه ، وهو القول والعمل ؛ لأن هذا الذي يكون عليه الإكراه ، أما الذي في القلب لا إكراه عليه ؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر ، - وهذه أشياء في القلب ، والآية ليس الكلام فيها عما في القلب ، وإنما الكلام فيها لوجود الكفر وحصول المكفر الذي عليه العذاب ، كلها تتعلق بالقول واللسان ، أما الاعتقاد ، بغض الدين ، محبة الكفر ؛ هذه أشياء في القلب ، والتكفير الذي في الآية ليس منصباً على الشيء الذي في القلب ؛ وإنما هو منصبٌ على القول والعمل .

قال : « وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين »

هذا مأخوذ من قوله : « بأنهم » والباء سببية ؛ يعني : بسبب إثارهم للحياة الدنيا على الآخرة ؛ أي : على الجنة وثواب الله في الدار الآخرة ؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب الذي حُكِمَ على أهله بالكفر لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر ؛ وإنما سببه أنه له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا ؛ أي : فآثر هذا الحظ الدنيوي على الحظ الأخروي الذي أعده الله لعباده الموحدين وأوليائه المؤمنين .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله -: «فالإنسان الذي يُلجئه من يلجئه إلى أن يصدر من الكفر له حالات:

أحدها: أن يمتنع ويصبر عليها؛ فهذه أفضل الحالات، أن يمتنع ويصبر عليها، وهذه الحالة مثل حالة الذي ذُكر في الحديث: ((دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب))^(١) ففيه أن أحدهما قيل له: قَرَّب؛ قال: لم أكن لأقربَ لأحد غير الله؛ فقتلَ فدخل الجنة؛ فصبر على ذلك، أن يمتنع ويصبر عليها، هذه أفضل الحالات.

الثانية: أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان فهذا جائز له تخفيفاً ورحمة، قد قال بعض أهل العلم - ومنهم الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه «أضواء البيان» وأطال في تقرير ذلك -: أن هذا التخفيف لأمة محمد ﷺ واستدل لذلك ببعض الأدلة تجدونها في كتابه؛ منها: الحديث: عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

(١) «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقرب.

قالوا له: قرب ولو ذباباً.

فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد في «الزهد»

(ص ١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٩٢) للألباني.

رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وذكر بعض الدلائل، فهذا التخفيف لأمة محمد ﷺ في قولٍ لبعض أهل العلم، أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه بالإيمان؛ جنانه أي قلبه، مع اعتقاد جنانه بالإيمان، فهذا جائز له.

إذاً الحالة الأولى أفضل؛ يعني: أن يصبر فلا ينطق بالكفر ولا يفعل الكفر إلى أن تفارق روحه جسده صبراً على التوحيد هذا أفضل.

فلو قال الكفر بسبب الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، هذا جائز ولا يكون بذلك قد دخل في الكفر.

الحالة الثالثة: أن يُكْرَهَ فيجيب ولا يطمئن قلبه بالإيمان؛ فهذا غير معذور وكافر، أن يُكْرَهَ فيجيب؛ يعني: يجيب بنطق الكفر؛ لكن في الوقت نفسه لا يكون قلبه مطمئن بالإيمان؛ يعني: يكون عنده شيء من أو يدخله شيء من الارتياب في دينه وفي توحيده وفي عقيدته وفي إيمانه بالله - سبحانه وتعالى -؛ فهذا غير معذور وكافر.

الحالة الرابعة: أن يُطْلَبَ منه ولا يُلْجَأَ فيجيب ما وصل إلي حد الإكراه؛ فيجيب دون أن يصل لحد الإكراه ولكن يوافق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان فهذا كافر؛ لأنه لم يُكْرَهَ على الكفر؛ يُقال له: اسجد للصنم، يُقال له: سب الدين مثلاً، يُقال له من الأمور الكفرية فيبادر دون أن يصل إلي حد الإكراه، وقلبه مطمئن بالإيمان هذا يكفر؛ لأن الله استثنى من عدم الكفر من كان مُكْرَهًا، وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٦٢).

الحالة الخامسة: أن يذكر له ولا يصل إلي حد الإكراه فيوافق بقلبه ولسانه؛ فهذا أيضًا كافر.

ثم ختم الإمام -رحمه الله تعالى- الكتاب بقوله: «والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

يمكن مزيدًا للاستفادة في هذا الباب أن يُطالع ويُراجع بعض الكتب المفيدة في هذا الموضوع، والمنطلقة من هذا التأسيس والتقعيد والتقرير الذي قرره الشيخ -رحمه الله تعالى-، في كتاب «تيسير العزيز الحميد» لحفيد الشيخ: عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله- في شرحه لباب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو أن يدعو غيره، في آخر شرحه لهذا الباب أشار إلى كتاب كشف الشبهات، ونوه بالجهد الذي بذله الشيخ -رحمه الله- في هذا الكتاب المبارك، ثم أضاف -رحمه الله- ذكر بعض الشبهات وأجاب عنها بنفس طريقة الشيخ -رحمه الله- في كشف الشبهات.

فذكر هناك إضافة بعض الشبهات وهي ثلاث شبهات يوردها هؤلاء، وأجاب عنها إجابة مفصلة وافية نافعة، يمكن أن تُراجع في كتاب تيسير العزيز الحميد.

أيضًا يمكن أن يُراجع في الباب كتب أئمة الدعوة التي ردوا فيها على هؤلاء من خصوم الدعوة المنافحين عن الشرك والتعلق بغير الله -ﷻ-، ومن هذه الكتب على سبيل الإشارة فقط كتاب «تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب: «القول الفصل النفيس في الرد على المفتري بن جرجيس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن

صاحب الفتح المجيد، وصاحب «قرة عيون الموحدين»، وأيضًا كتاب: «كشف الشبهتين» للشيخ: ابن سحمان، وكتاب: «النبذة الشريفة في الرد على القبورين» للشيخ: حمد بن ناصر آل معمر، وكتاب: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للسهسواني.

وغيرها من الكتب النافعة المفيدة في هذا الباب، وكثير من هذه الكتب التي أشرت إليها وغيرها من كتب أئمة الدعوة -رحمهم الله تعالى- مشتملة على مادة نافعة جدًا في كشف الشبهات، ومطالعة هذه الكتب والمرور عليها يفيد طالب العلم، خاصة عندما يكون في مجتمع يُبتلى فيه بمثل هذه الشبهات التي تُثار، فمن خلال هذه الكتب يتمكن بإذن الله -ﷻ- من معرفة الطرائق القويمة والسبل السديدة لرد مثل هذه الشبهات.

وأذكر في وقت قديم فعلت أنا وبعض طلبة العلم واستفدنا من ذلك، استقرأنا هذه الكتب التي ذكرت لكم كلها كتابًا كتابًا، وصنعنا لها فهرسة، يعني نذكر الشبهة ونذكر أجوبتها، نذكر الشبهة كراس قلم ادعائهم كذا قولهم كذا استدلالهم بحديث كذا ثم نحيل على الردود في هذه الكتب بعد قرأتها وتأملها في هذه الكتب؛ فالشاهد أن مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها ومطالعتها نافعة لطالب العلم.

نحمد الله الكريم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن يسر لنا هذا الخير، وأكرمنا بدراسة هذا الكتاب والوقوف على مضامينه الطيبة وتقريراته المفيدة.

نسأل الله -ﷻ- أن يغفر للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ولتلاميذه أنصار هذه الدعوة المباركة التوحيد، وإخلاص العبادة لله،

ونصرة سنة النبي الكريم، ونبذ الشرك والبدع والخرافة والضلال.

نحمد الله -عز وجل- على نعمه الكثيرة ومننه العديدة، نحمده على نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة السنة، نحمده -تبارك وتعالى- على كل نعمة أنعمها علينا في قديم أو حديث، أو خاصة أو عامة، أو سر أو علانية.

ونسأله -جل وعلا- أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً.

ونسأله -جل وعلا- أن يعيذنا من الضلال، وأن يسلك بنا سبيل الهداية والرشاد، وأن يسددنا في أقوالنا وأعمالنا، وألا يكلنا إلي أنفسنا طرفة عين.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.





صَدَرَ لِلْمُؤَلِّفِ



ISBN 978-9931-616-53-5



9 789931 616535

